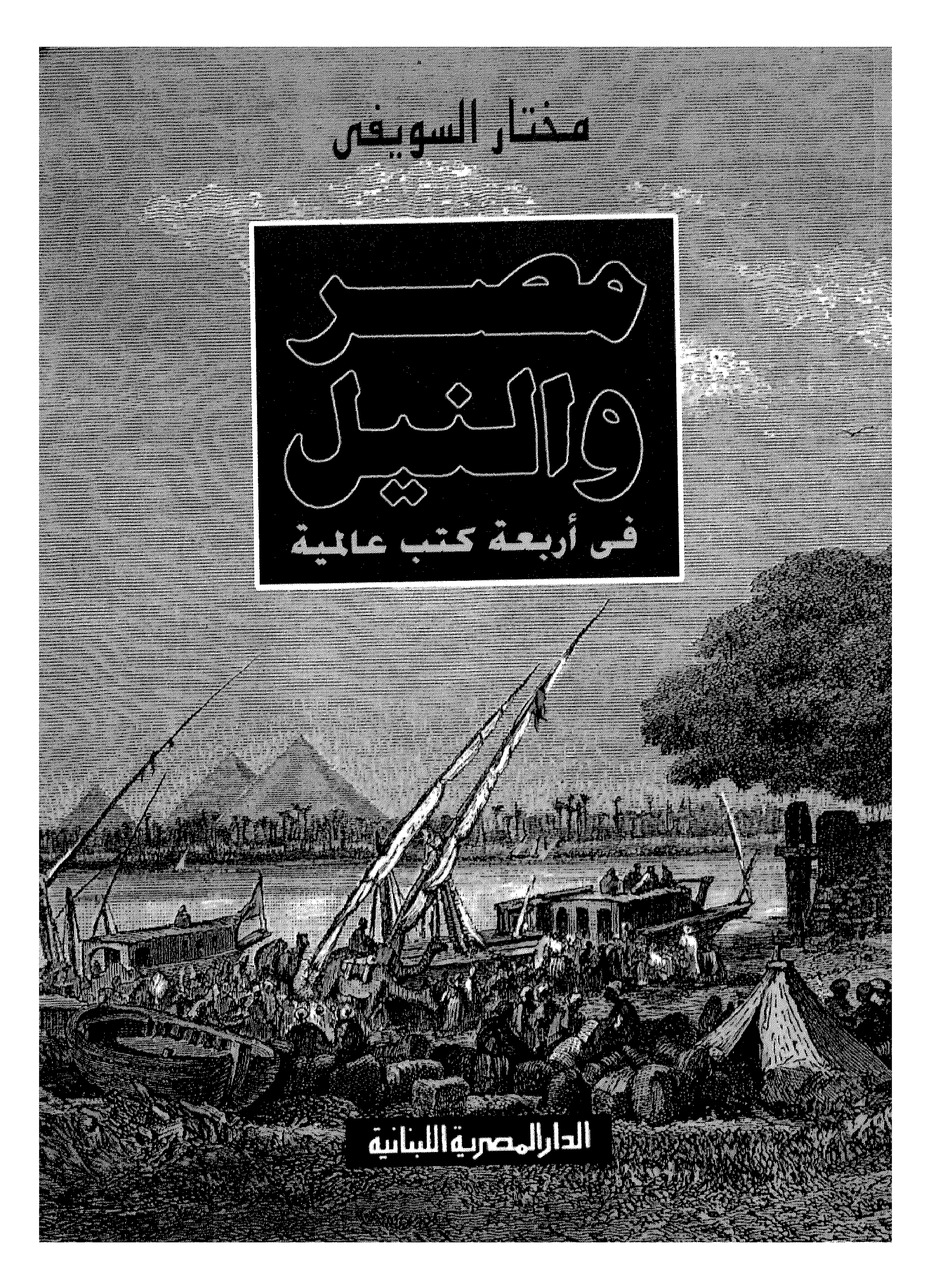

مختار السويفى
مصر والنيل
فى أربعة كتب عالمية
الدار المصرية اللبنانية


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصــر والنيل

فى أربعة كتب علمية

الناشـــر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ٤٨١٠ / ٩٦
الترقيم الدولى : 4 - 275 - 270 - 977
جمع وفصل ألوان وطبع : **عربية للطباعة والنشر**
العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣

الطبعة الأولى : ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م
الطبعة الثانية : ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م
الطبعة الثالثة : ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م
الطبعة الرابعة : ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م
تصميم الغلاف : محمد حجى

مختار السويفى

مصر والنيل

فى أربعة كتب عالمية

- النيل : النهـر والنـاس
- مشـرق القـــوة
- رمسيس الأكبر.. سيد العالم
- المؤسسة العسكرية المصـرية فى عصر الامبراطورية

النـــاشر
الدار المصرية اللبنانية



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾
خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾
ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى
عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

صدق الله العظيم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا الكتاب :

عرض تفصيلى حر

للكتب الأربعة التالية :

1. NILE
2. SUNRISE OF POWER
3. RAMSES THE GREAT
4. OFFICERS AND OFFICIALS
   IN THE NEW KINGDOM

تقديم الطبعة الأولى

بقلم : الاستاذ / محمد العزب موسى

كان من الممكن ألا يصدر هذا الكتاب لوكنا نستورد الجديد المتنوع من الكتب الاجنبية ، ونتيحها للقراء والمثقفين الراغبين فى الاطلاع على كل جديد .

فهذا الكتاب قراءة فى بعض الكتب العالمية التى تتحدث عن « مصر » و« النيل » ، أى تتحدث عنا .. عن حضارتنا العظيمة وتاريخنا المجيد ، وعن نيلنا الرائع الذى هو نسيج وحده بين أنهار الدنيا ، كما أن حضارتنا نسيج وحدها بين حضارات البشرية .

وللأسف ، فان محتويات هذه الكتب متاحة لكل القراء فى مختلف البلاد ، ابتداء من انجلترا الى اليابان ، ومن سكندينافيا الى استراليا ، الا القراء المصريين ، فنحن قد نستورد أرقى العطور الباريسية ، وافخر الفراء النمسوى ، واجود الكافيار الروسى وأغلى الويسكى الانجليزى ولكننا لانستورد أحدث الكتب ، خاصة إذا كانت تتحدث عنا .. عن حضارتنا وتاريخنا وبلادنا !

ولولا معرض الكتاب الدولى الذى يعقد بالقاهرة سنويا فى اواخر يناير من كل عام لكانت مصر قد انقطعت تماما عن مجرى الثقافة العالمية الزاخرة المتجددة .

وحتى الكتب القليلة التى يجرى استيرادها ، نجد أن معظمها من الكتب العلمية فى فروع الطب والهندسة والكمبيوتر والاحصاء وما أشبه ، ومعظم باقيها من القواميس والاطالس والكتب الدراسية وما أشبه . أما كتب الثقافة الانسانية الرفيعة فهى أندر فى سوق الكتاب المصرى من بيضة الديك !

ومن الطبيعى أن هذا الوضع يستفز جمهور المثقفين المصريين ، وبالذات مثقفاً من طراز مختار السويفى درج على التغذى بأحدث ثمار الفكر الانسانى ، فاذا وقع على ثمرة منها كان حريصاً غاية الحرص على أن يذيق منها الآخرين .

والصديق مختار السويفى ، الى جانب هوايته للقراءة ، يهوى شيئا آخر هو السفر والترحال بين جنبات هذا الكوكب الضيق جدا المسمى بالأرض ، وهو من سفرياته هذه الكثيرة يأتى محملا بالكتب ، تأخذ من حقيبته مكان الملابس ، ومن محفظته مقابل الوزن الاضافى .

زرته يوما فى منزله بعد عودته من احدى هذه الرحلات ، فوجدته غارقا بين عشرات من الكتب الأجنبية الجديدة ، جميعها أو معظمها من الوزن الثقيل .. حجم كبير ، غلاف مقوى ، ورق سميك مصقول ملىء بالصور الملونة الرائعة . وبالتالى لابد أن تكون غالية الثمن جداً .

سألته : كيف نقلت كل هذه الكمية من الكتب ؟

فضحك وهو يتذكر الموقف ، وقال : عادى .. فى الحقائب .. المهم ان أنقلها إلى القراء .. !

ومختار السويفى كما قلت من أشد الناس حرصاً على اشراك الآخرين فيما لديه من معلومات ، انه يعتبر الثقافة أخذا وعطاء ، فلا يكتمل لديه ما يأخذه من الثقافة إلا إذا أعطاه لغيره .

وقد اختار مختار السويفى أربعة من هذه الكتب العالمية ليقدمها للقراء .

الكتاب الأول هو « **النيل .. النهر والناس** » من تأليف بارتون ورثنجتون ، وهو رحلة عبر المكان والزمان مع نهرنا الخالد ، قام فيها المؤلف بمتابعة نهر النيل العظيم من عند مصبه فى الدلتا حتى منابعه العليا فى بحيرة فيكتوريا ونهر كاجيرا وجبال القمر . مع إطلالة على تاريخه القديم والحديث ونظامه المائى البالغ التعقيد وتاريخ الجهود البشرية للسيطرة عليه . كما يقدم المؤلف دراسة مختصرة للانسان والحيوان والنبات والحضارات التى قامت على شطآنه .

والكتاب الثانى هو « **مشرق القوة** » من تأليف جويس ميلتون ، وهو كتاب بالغ الاهمية والتشويق ، ويمكن أن نطلق عليه عنوانا آخر هو « كيف تقرأ تاريخ مصر »

إذ يتتبع هذا الكتاب مراحل التاريخ المصرى من عهد مينا حتى « صحوة الموت » فى العصر الصاوى أو الفصل الأخير فى تاريخ الحضارة الفرعونية .

ومن أبدع اجزاء هذا الكتاب الجزء الخاص بالامبراطورية المصرية التى أسسها أحمس طارد الهكسوس ، إذ يتناول فى عرض مختصر شيق تاريخ ملوك الاسرة الثامنة عشرة العظام .. امنحتب الأول (العادل) وتحتمس الأول (المحارب) وتحتمس الثانى (المتأنق) وحتشبسوت (سيدة النساء) وتحتمس الثالث (الامبراطور) وامنحتب الثانى (الرياضى) وتحتمس الرابع (الدبلوماسى) وامنحتب الثالث (ملك الملذات) واخناتون (أول الموحدين) وأخيرا توت عنخ آمون (أشهر الملوك) .

ويقول مختار السويفى عن الحضارة المصرية القديمة :

« من بين جميع الحضارات الانسانية التى ظهرت واندثرت عبر آلاف السنين من التاريخ المكتوب أو المعروف تبوأت الحضارة المصرية مكان الصدارة واعتبرت بكل المقاييس العلمية حضارة رائدة أنارت الطريق أمام الانسان الحى ليبلغ أقصى درجات الرقى ، وليس من قبيل المبالغة أن بعض المؤرخين الغربيين يطلقون على الحضارة المصرية القديمة اسما شهيراً هو « أم الحضارات » .

وهذه شهادة لا يسطرها إلا محب للحضارة المصرية وعالم بها ، وهما صفتان يتمتع بهما مختار السويفى .

فاذا انتقلنا الى الكتاب الثالث وهو « **رمسيس الأكبر.. سيد العالم** » من تأليف وليم ماكويتى قرأنا صفحات مشرقة مضيئة عن تاريخ هذا الملك العظيم الذى هز الدنيا والتاريخ ، والذى لم يكن مبالغاً أو مدعياً حين أمر النقاشين أن ينقشوا على مسلته القائمة الآن فى ميدان « الكونكورد » بباريس هذه الكلمات :

« رمسيس .. قاهر كل الشعوب الأجنبية .. السيد على كل من لبس تاجاً .. المحارب الذى هزم الملايين من الخصوم والاعداء .. الذى خضع العالم كله لسلطانه معترفاً بقوته التى لا تقهر » .

انجازات رمسيس الثانى فى مجال الحرب والقتال لم يكن يعادلها سوى ما أنجزه فى مجال التشييد والبناء ، فقد ترك هذا الفرعون اكبر مجموعة من المنشآت ـــ معابد وتماثيل ومسلات ولوحات تذكارية ـــ فى كل أنحاء مصر من الجندل الثانى جنوبا حتى الدلتا

ومصب النيل ، حتى صار من حقه ان يوصف « بسيد البنائين » . و يتحدث الكتاب عن هذا الجانب أيضا من نشاطات رمسيس بدقة وافاضة .

فاذا وصلنا الى الكتاب الرابع والأخير من هذه المجموعة المنتقاة وجدناه مختلفا عن الكتب الثلاثة السابقة فى شيء هام ، هو أن مؤلفه ليس أجنبياً ، وانما هو الاستاذ الدكتور احمد قدرى رئيس هيئة الآثار المصرية ، وهو كتاب **« المؤسسة العسكرية فى عصر الامبراطورية من عام ١٥٧٠ الى ١٠٨٧ ق . م »**

ومع ذلك فان هذا الكتاب يتفق مع الكتب الاخرى التى تضمها المجموعة فى عنصرين : الأول ان مؤلفه وضعه باللغة الانجليزية فقد كان الرسالة العلمية التى نال بها الدكتور احمد قدرى درجة الدكتوراة فى التاريخ من جامعة بودابست بالمجر . والثانى ان الكتاب فى حد ذاته على نفس المستوى العالمى للكتب الاخرى من حيث أصالة البحث ودقة المعلومات وجودة المحتوى ، ممايجعله متسقا من حيث الشكل مع كتب المجموعة .

أما من حيث الموضوع فربما يكون كتاب الدكتور أحمد قدرى اكثر اهمية من الكتب السابقة ، إذ انه يتناول موضوعاً بالغ الاهمية والغموض حتى بالنسبة للقارىء المتخصص فى التاريخ المصرى القديم . هذا الموضوع هو الجيش المصرى الذى بنى الامبراطورية فى عهد الدولة الحديثة ، وهى الاسرة الثامنة عشرة وماتلاها من عصر الرعامسة ، فنحن نعلم بوجود هذا الجيش وفتوحاته ولكننا لانعرف الكثير عن تكوينه والقابه وخططه ورجاله ودوره الهائل فى السياسة المصرية ، فيأتى كتاب الدكتور قدرى ويجلو كل ذلك بوضوح واقتدار و يركز بالتحديد على نشأة وتطور المؤسسة العسكرية كظاهرة جديدة فى السياسة المصرية بدأت على يد أحمس العظيم بعد طرد الهكسوس وحاجة مصر الى وجود جيش دائم يحمى حدودها و يرد عنها غائلة الطامعين والمعتدين .

و يتتبع الدكتور أحمد قدرى نشاط طبقة العسكريين فى السياسة المصرية ، حربا وسلماً ، منذ عهد احمس وتحتمس الثالث الى أزمة العمارنة فى عهد اخناتون ، الى حرب قادش فى عهد رمسيس الثانى . وكيف تمكنت هذه الطبقة فى النهاية من « عسكرة » الحياة المصرية وتسللت الى المراكز المدنية والكهنوتية حتى سيطرت على البلاد سيطرة فعلية ، ثم سيطرة رسمية بانقلاب الجنرال الكاهن حريحور .

وللدكتور أحمد قدرى نظرات جديدة فى هذا المجال تعارض ما استقرت عليه الآراء من قبل ، من ذلك مثلا تصحيح نظرتنا التقليدية الى علاقة اخناتون بالجيش ، فخلافاً لمعظم الباحثين الذين يرون ان الاتجاهات السلمية لاخناتون جعلته يهمل الجيش يرى الدكتور

قدرى ان اخناتون كان من اكثر الفراعنة استعانة بالجيش واعتمادا عليه ، ان لم يكن لشيء فمن أجل ضرب طبقة كهنة آمون . ومنذ عهد اخناتون بدأ الجيش يلعب دورا فريداً فى السياسة الداخلية بدليل بروز القادة الثلاثة آى وحورمحب ورمسيس الأول .

وهذا الجيش المصرى يعد أول جيش نظامياً منظماً فى تاريخ العسكرية ، وأول ما استحدث من الاستراتيجية والادارة والتقسيم الى قلب وجناحين ، وكان مكونا من عدة أسلحة منها الفرسان والمركبات والمشاة والإمداد والتموين تجمعها « هيئة اركان حرب » عليا ، وبعض الخطط التى طبقها هذا الجيش أوحت لبعض كبار القواد العسكريين فى العصرالحديث بمضاهاتها .

تقول موسوعة كامبردج عن هذا الجيش : « كان جيشاً وطنياً هائل الحجم ، يتألف معظمه من جنود محترفين سواء من الجنود العاملين فى الخدمة العسكرية أوجنود الاحتياط ويقوم على قيادته وتدريبه ضباط محترفون مدربون على أعلى مستوى ويؤدون وظائفهم وواجباتهم الحربية فى ادارة الفرق والاسلحة المنوطة بهم قيادتها بشكل منظم ومنسق ودقيق .. وكان المصريون هم أول من كون (هيئة الضباط) أو(هيئة اركان الحرب) التى تؤدى وظيفة العقل الادارى والتنظيمى والحربى فى الجيوش الحديثة الآن » .

● ● ●

أقول ، ربما لوكانت هذه الكتب متاحة للقارىء العام لما ظهر هذا الكتاب ، ولكن هل الأمر فعلا كذلك ؟ لا اعتقد ، فهذا الكتاب الذى يقدمه مختار السويفى يظل مع ذلك محتفظاً بقيمته ، كيف ؟

ان هذا الكتاب خلاصة جيدة للكتب الاربعة المشار اليها ، ويمكن أن يغنى عنها جميعا ، فهويقدم كل أفكارها الرئيسية باسلوب أدبى راق ، وفى عرض متناسق بديع ، بحيث تصبح قراءة هذا الكتاب متعة فى حد ذاتها حتى لمن سبق له قراءة الكتب الأصلية .. انها اضافة الفنان .

أما بالنسبة للقارىء الذى ينظر بوجل الى ميزانيته ـــ وأغلبنا هذا الرجل ـــ فلا بد أن يستشعر الرضا بحصوله مقابل جنيهات قليلة يدفعها ثمنا فى هذا الكتاب على ماقيمته عشرات الجنيهات تتكلفها تلك الكتب الأصلية .

ومنْ ناحية أخرى ، فان هذا الكتاب يقدم مادته باللغة العربية ، فى حين ان الكتب الاصلية باللغة الانجليزية بما فيها كتاب الدكتور احمد قدرى [الذى ترجم الى العربية أخيراً] مما يجعل قراءته متاحة لجميع قراء العربية بعكس اللغة الانجليزية التى لا يقرأها الكثيرون .

من أجل ذلك يظل هذا الكتاب محتفظاً بقيمته فى جميع الأحوال .. سواء أتيحت الكتب الأصلية فى الاسواق أم لم تتح ، وسواء أكان القارىء يجيد الانجليزية أويقتصر على قراءة العربية ، وسواء أكانت محفظته متخمة بأوراق النقد أم لا تحوى سوى القليل .

ولا يسعنا فى النهاية إلا أن نقدم الشكر للكاتب الصديق الاستاذ مختار السويفى على مابذله من جهد وعناية فى نقل هذه الكتب العالمية الى اللغة العربية ، وأن نتمنى للقارىء سياحة مفيدة .. لذيذة .. فى صفحات هذا الكتاب .

اول مايو ١٩٨٦

محمد العزب موسى

تقديم الطبعة الثالثة :

بقلم الأستاذ / سامح كريّم

من الكلمات المأثورة للفيلسوف الإنجليزى فرنسيس بيكون قوله : « هناك كتب تستحق أن يذوقها القارىء ، وأخرى تستحق أن يلتهمها ، وثالثة تستحق أن تمضغ وتهضم » .

وهذه الكلمة توحى بأن الكتب درجات ومراتب من حيث ما تتضمنه من الفائدة والمتعة . وإذا نظرنا إلى الفائدة كمعيار نحكم به على قيمة الكتاب فى زماننا، لسبق هذا الترتيب الذى اختاره بيكون كتبا أخرى لا تحقق فائدة ولا متعة . وأعنى بها الكتب التى إذا رجع إليها الانسان بددت وقته .

ولو عاش بيكون إلى أيامنا هذه ورأى بعينيه ما تقذف به المطابع من ثمرات فاسدة أحيانا أو غير ناضجة أحيانا أخرى ، لأعاد النظر فى عبارته فيبدو أن الكتب على زمان بيكون كانت من الجودة التى لا تسمح للكتاب الردىء بالمرور .

فى زماننا أصبح العثور على كتاب يتسم بواحدة من هذه السمات التى أشار إليها بيكون أمراً عسيرا . وهو ما يجعل المرء يهجع أحيانا إلى كتب أزمنة أخرى غير زمانه . ومع وجود هذا النوع من الكتب الرديئة لا يخلو الأمر من كتب لها قيمة ومستوى حيث تحقق الفائدة والمتعة .

وفوق راحة اليد الآن كتاب لعله بما حقق لى من فائدة ومتعة يمكن وضعه بين الكتب المميزة فى زماننا الذى تسود فيه البضاعة الرديئة لتكون هى الرائجة .

الكتاب الذى حقق لى فائدة ومتعة عنوانه : « مصر والنيل فى أربعة كتب عالمية» وواضح من العنوان أن هذا الكتاب يتحدث عن حضارة مصر والنيل ، وأنه يحتوى على أربعة كتب ، وأن هذه الكتب بلغات عالمية ، وأنه يتطلب ترجمة إلى العربية . قام بها الأستاذ مختار السويفى .

ونظرة إلى صفحات الكتاب توضح أن المترجم قد أجهد نفسه فى اختيار هذه الكتب لهؤلاء المؤلفين الأربعة . كما أجهد نفسه حين ربط فيما بينها فى وحدة عضوية تحمل عنوانا واحدا . وهذا الجهد سبقه بالطبع جهد الترجمة الذى يفوق جهدها التأليف أحيانا . ففيها يكون المترجم مقيدا بما يكتبه المؤلف . وإذا خرج عن الحدود أصبح خائنا للأمانة . ولذلك قالوا أن التأليف أسهل من الترجمة .

والحق أن الأستاذ السويفى قد كابد كل ذلك ليقدم فى النهاية عملا صالحا يفيد الآخرين . ونظرة متأنية إلى ما تتضمنه صفحات الكتاب تعلن عن هذا الجهد المبذول . فالكتاب يحتوى على ما يشتمل عليه أربعة كتب أولها « النيل النهر والناس» تأليف الكاتب الانجليزى بارتون ورثنجتون . وهو عبارة عن رحلة فى المكان من مصب هذا النهر إلى منبعه ، وعبر الزمان منذ آلاف السنين . راصدا فى هذه الرحلة عادات وثقافات وأعمال وإنجازات الناس وهو ما تترجمه كلمة الحضارة على ضفاف هذا النهر العظيم . والكتاب الثانى « مشرق القوة » وهو تحديد لجوانب الحضارة المصرية من وجهة نظر مؤلف أجنبى هو « جويس ميلتون » . تابع فيه مراحل هذه الحضارة مؤكدا أنها تبوأت مكان الصدارة حتى أصبحت أم الحضارات. والكتاب الثالث « رمسيس الأكبر سيد العالم » وفيه يرصد مؤلفه « وليم ما كويتى » الكثير من إنجازات هذا الملك العظيم فى ميادين التشييد والبناء ، وحروبه وانتصاراته على الأمم والممالك حيث كان يقول « سأدخل بجلالتى على جيش المخنثين هؤلاء ، وسوف أشبعهم قتلا وذبحا ، وسوف أطرحهم أرضا ، وأدخل فى قلوبهم الرعب فردا فردا » .

أما الكتاب الرابع « المؤسسة العسكرية المصرية » فمن عجيب أمره أنه وهو باللغة الانجليزية فإن كاتبه مصرى ، هو الدكتور أحمد قدرى ، حيث كان قد قدمه

إلى جامعة بوادبست بالمجر للحصول على الدكتوراه . ولعل تيسير قراءتنا لهذا الكتاب بالذات يمثل فضيلة من فضائل الترجمة التى لا يقتصر دورها على مد الجسور إلى الثقافة العالمية ، وإنها يمتد إلى فكرنا العربى حين يصبح فى دائرة إهتمام الأوساط العلمية والثقافية فى العالم . إننا نعرف من خلال هذا الكتاب ما نجهله عن عبقرية مصر العسكرية وعن ريادتها فى حروب التحرير ، وسبقها فى اكتشاف الاستراتيجية العسكرية . . إلى آخر هذه الموضوعات التى لا تتسير لنا ، وتلقى أضواء على تاريخنا فى الأوساط العالمية .

إن كتابا مترجما يتضمن هذه الكتب الأربعة يستحق كل التقدير . . يا ليت دور النشر تهتم بهذا النوع من الكتب .

سامح كريّم



مقدمة الطبعة الثالثة

بقلم : مختار السويفى

لهذا الكتاب قصة لا بأس من ذكرها . . ففى أوائل الثمانينيات تولى صديق العمر الأستاذ الكبير محمد العزب موسى [رحمة الله وأكرم مثواه] الاشراف على تحرير ملحق جريدة « الأخبار » القاهرية الذى كان يصدر فى تلك الأيام متضمنا ثلاث صفحات تلحق بالجريدة بصفة أسبوعية كل يوم ثلاثاء .

وكانت الصفحة الأولى من هذا الملحق تتناول موضوعات عن عديد من «الشخصيات العالمية » التى تصنع أحداث العالم أو تؤثر فيها . . وكانت الصفحة الثانية تتناول موضوعات عن أهم « الأحداث العالمية » التى وقعت خلال الأسبوع السابق لصدور الملحق . . أما الصفحة الثالثة فكان عنوانها « كتاب يقرأه العالم » وكانت تعرض بعض الكتب ذات الطابع السياسى الدولى .

وقد عُرف الأستاذ محمد العزب موسى بثقافته الموسوعية الواسعة ، وبدقته الشديدة فى البحث والدراسة وبأسلوبه المتمكن الرصين فى الصياغة والكتابة .

وكم كنت أراه منكبًا على تصحيح وإعادة صياغة ماكتبه الكتاب والصحفيون لنشره فى هذا الملحق الذى يشرف على تحريره . وكان يحرص دائما على إثراء القارىء بالمعلومات الجديدة ، وإغراء القارىء بهذا الأسلوب السهل الجذاب .

وذات يوم عرض على رغبته فى تطوير وتجديد الصفحة الخاصة « بكتاب يقرأه العالم » . . وإنه رأى تمصير هذه الصفحة تمصيراً خالصًا . . وأن تخصص هذه

الصفحة لتعميق إحساس القارىء المصرى بتاريخه التليد وحضارته العظيمة فى مختلف العصور التاريخية من فرعونية وبطلمية ورومانية وقبطية وإسلامية . .
وسألنى : أليس هذا أفضل بكثير من تزويد القارىء بمعلومات قد لا تهمه عن الأحوال السياسية فى بعض دول العالم المعاصر . . ؟!

قلت له : إن تزويد القارىء بأحوال السياسة العالمية له شأن لا يغفل . . ولكن تبصيرالقارىء بالتاريخ المصرى والحضارة المصرية يعتبر رسالة وطنية لها الأولوية المطلقة .

قال وهو يشير إلى عشرات الكتب الحديثة المرصوصة على رفوف مكتبتى والتى كتبها علماء محدثون فى علم « المصريات » : كم أود أن نزود القراء بما تتضمنه هذه الكتب التى تتناول تاريخ مصر ، وتثريهم بتلك المعلومات الضافية التى ظهرت حديثا فى علم التاريخ وعلم الآثار .

وهكذا بدأنا سوياً فى اختيار بعض الكتب العالمية التى تتناول موضوعات عن جذور مصر الضاربة فى التاريخ القديم ، والمتشعبة فى الروابى الخضر على ضفاف النيل العظيم الذى يشقها من الجنوب إلى الشمال ، والممتدة إلى أعماق القارة الأفريقية باعتبار مصر عاصمة لأفريقيا كلها .

لم تكن العملية سهلة ولا هينة ، فقد كان من العسيرغاية العسر أن يتم عرض وتلخيص أى كتاب من هذه الكتب القيمة فى صفحة واحدة من صفحات الجريدة، الأمر الذى اضطررنا معه إلى عرض الكتاب الواحد فى عدة حلقات تنشر أسبوعيا حتى يمكن أن يتزود القارىء بمشتملات فصول الكتاب من مادة علمية لا تخفى أهميتها .

وكانت الخطة التى اتبعناها هى الالتزام بتقديم ملخص وافٍ للكتاب المعروض، يغنى القارىء بقدر الإمكان عن قراءة الكتاب الأصلى إذا تسنى له الحصول عليه . وكانت النتيجة أن عرض الكتب بهذه الطريقة أعطانا مطلق الحرية فى إعادة صياغة فصول الكتاب بأسلوب بسيط يتمشى مع قدرات واحتياجات القارىء العام ، مع الالتزام بألا يخل هذا التلخيص والعرض المبسط بالمادة العلمية التى يشتمل عليها الكتاب المعروض .

وقد تتابع اختيارى لمجموعة من الكتب العالمية التى صدرت حديثا ، وعرضتها

على صفحات جريدة الأخبار عرضاً مسبهًا وافيًا لكل ما ورد بها من موضوعات عن مصر والنيل وأفريقيا . وأشير فيما يلي إلى أهم هذه الكتب :

- ARCHAIC EGYPT- CULTURE AND CIVILIZATION IN EGYPT FIVE THOUSAND YEARS AGO.
  BY : W.B. EMERY .
- ISLAND OF ISIS
  BY : WILLIAM MACQUITTY
- WARRIOR PHARAOHS
  BY : P.H. NEWBY
- RAMSES THE GREAT
  MASTER OF THE WORLD
  BY : WILLIAM MACQUITTY.
- OFFICERS AND OFFICIALS
  IN THE NEW KINGDOM
  BY : DR. AHMED KADRY
- SUNRISE OF POWER
  BY : GOYCE MILTON
- RELIGIONS OF AFRICA
  BY : THOMAS LAWSON
- AFRICA- A SOCIAL GEOGRAPHY.
  BY : ANTHONY SILLERY.
- THE ART OF BENIN
  BY : PAULA BEN- AMOS.
- VOODOO - AFRICA'S SECRET POWER.
  BY : GERT CHESI.
- THE NILE
  BY : E. BARTON WORTHINGTON.
- BLACK AFRICAN KINGDOMS AND EMPIRES.
  BY : JUAN JOSEPH.

وبعون من الله وفضله وتوفيقه ، فقد وجدت هذه الدراسات قبولاً حسناً ومشكوراً لدى القراء ، تمثل فى عشرات الخطابات التى كانت تصلنى مرسلة على

عنوان جريدة الأخبار بمؤسسة أخبار اليوم بالقاهرة . وقدشجعنى هذا الإقبال على مواصلة عرض المزيد من هذه الكتب العالمية التى تهم القارىء المصرى والقارىء العربى بصفة عامة .

وقد اقترح على الأستاذ محمد رشاد مدير عام الدار المصرية اللبنانية أن أقوم بتجميع عروض بعض هذه الكتب التى تتناول موضوعات عن « مصر والنيل » لاصدارها فى كتاب واحد يحمل نفس العنوان . واخترنا أربعة من الكتب التى أشرنا إليها مسبقا ، وهى على وجه التحديد :

- النيل : النهر والناس .
- مشرق القوة .
- رمسيس الأكبر : سيد العالم .
- المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية .

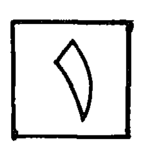
وهكذا صدر كتاب « مصر والنيل » . . وبين يدى القارىء الآن الطبعة الثالثة منه فى ثوب جديد يختلف إلى حدما عن الطبعتين السابقتين .

ولا يسعنى إلا أن أتقدم بكل الشكر والتقدير لروح الصديق الكريم الإستاذ محمد العزب موسى ، فهو صاحب فكرة نشر عروض حرة لهذه الكتب الحضارية بجريدة الأخبار . . ولروح الأستاذ الكبير موسى صبرى رئيس مجلس إدارة مؤسسة أخبار اليوم ورئيس تحرير جريدة الأخبار الذى كان يحثنى باستمرار على مداومة عرض هذه النوعية من الكتب . . وللأستاذ الكبير سامح دريم المشرف على صفحة الأدب بجريدة الأهرام والذى تفضل مشكوراً بتقديم هذه الطبعة الثالثة من كتاب مصر والنيل . . وللناشر الكبير الأستاذ محمد رشاد صاحب الفكرة التى كانت وراء هذا الكتاب حتى صدرت طبعته الثالثة بهذه الصورة .

وكل التوفيق فضل من الله

مختار السويفى

كورنيش النيل : القاهرة
أول يناير ١٩٩٦



النيل : النهر والناس

1. THE NILE
BY: E. BARTON WORTHINGTON.



المؤلف .. والكتاب

● دكتور بارتون ورثنجتون .. من أكبر خبراء علوم البيئة .

● تولى رئاسة لجنة بحوث المياه بالمجمع الدولى للاتحادات العلمية .. ومنصب كبير العلماء بمنظمة صيانة الموارد الطبيعية بالمملكة المتحدة .

● قام بمجموعة عديدة من الرحلات العلمية فى مختلف قارات ومناطق العالم .. وألف العديد من الكتب والبحوث العلمية عن أشهر أنهار العالم وبحيراته العذبة ..

● وكتابه عن « نهر النيل » عبارة عن تسجيل لرحلة صاعدة فى مجرى النهر، تبدأ شمالاً من أقصى مناطق الدلتا ومنافذها .. إلى الجنوب حتى منابع النيل العليا فى بحيرة فيكتوريا ونهر كاجيرا وجبال القمر ..

● وتتناول الرحلة أهمية نهر النيل فى التاريخ القديم والتاريخ الحديث .. وطبيعة تكوين النهر ونظامه المائى البالغ التعقيد .. وتاريخ الجهود البشرية فى السيطرة على النهر وتنظيم إمداداته بالمياه للمناطق التى يجرى فيها .

● كما يتناول الكتاب دراسة ملخصة عن طبيعة الحياة التى يتيحها النهر للانسان والحيوان والنبات على ضفافه وعلى طول الوادى الذى يصنعه ..

● كما يشير إلى دراسة بيئية موجزة عن المشاكل الحديثة للشعوب التى تعتمد على نهر النيل فى حياتها ، مع التركيز على مشاكل الانفجار السكانى ومشاكل السيطرة على الموارد الطبيعية .

• تقديم

فى صيف كل عام ، يحتفل المصريون ــ قدماؤهم ومُحْدَثوهم ــ بعيد وفاء النيل ، نهرهم الخالد الذى وهبهم الأرض التى يعيشون عليها ، ومهّد أمامهم سبيل الحياة ، ومنحهم القدرة على إرساء أعظم حضارة فى تاريخ الإنسان ..

وكان الاحتفال بوفاء النيل حتى عهد قريب ، من أكثر الاحتفالات شعبية وصدقاً . ولكن أصابه الإهمال ضمن ما أصاب ، فانزوى العيد الشعبى وتقلص ، وأصبح عيداً من الدرجة الثانية لا تعطل فيه المصالح والدواوين .

وفى إحدى هذه الاحتفالات منذ نيف ونصف قرن من الزمان ، تساءل « شوقى » مخاطباً النيل فى مجراه : **من أى عهد فى القرى تتدفق .. وبأى كف فى المدائن تغدق .. ومن السماء نزلت أم فجرت من عليا الجنان جداولاً تترقرق .. ؟ !**

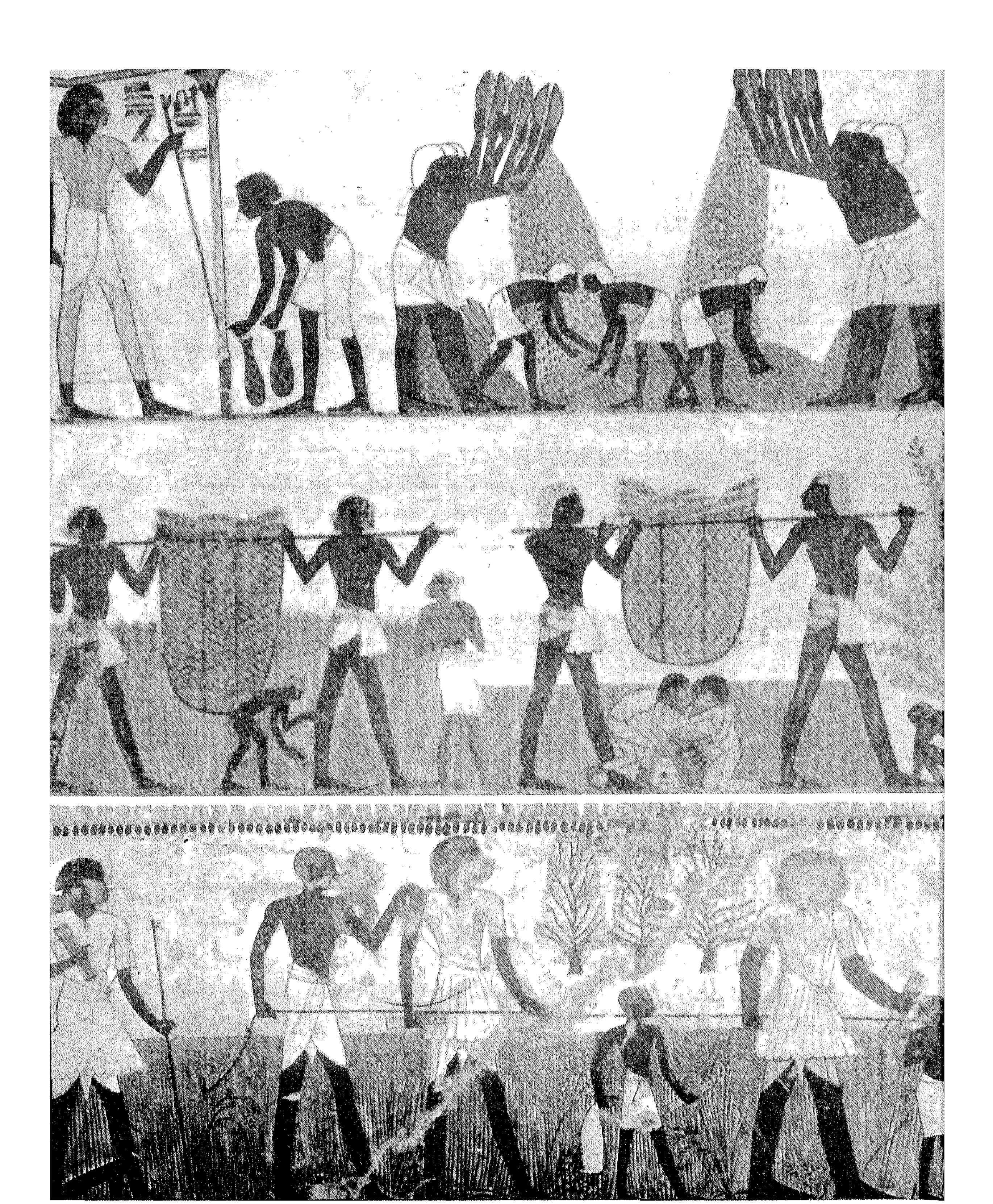
هذه التساؤلات التى أطلقها « شوقى » تمجيداً للنيل .. كانت صدى للتساؤلات المماثلة التى طالما ترددت فى شمال الوادى عبر آلاف السنين .. وما هذه الاحتفالات الشعبية التى كانت تقام كل عام عبر أكثر من سبعين قرناً من الزمان ، إلا اعتراف من المحتفلين بفضل النيل عليهم ، حين يفيض و يفى بالخيرات على كل من الأرض والناس ..

وعبّر المصرى القديم عن عرفانه بجمائل النهر وفضله العظيم على الأرض المصرية والإنسان المصرى .. وأطلق عنان بهجته فى تعبير شعرى جميل :

« هو النيل .. يفيض على الأرضين [الوجه القبلى والبحرى] .. فتمتلىء مخازن الحبوب .. وتزدحم المستودعات .. وتتوافر حاجات الفقراء ..

إنه النيل .. لأبنائه جميع النباتات .. وإذا هو لم يطعم الناس .. هجر النعيم المساكن .. وأصيبت الأرض بالاضمحلال .. ! ! » .

هو النيل إذن .. أعظم أنهار الدنيا .. وعلى ضفافه الشمالية ، نشأت أعظم حضارة صنعها الإنسان ..



هو النيل .. يفيض على الأرضين .. فتمتلىء مخازن الحبوب ..
وتزدحم المستودعات .. وتتوافر حاجات الفقراء ..

● رحلة النهر.. عبر المكان ..

كان هناك لقاء عظيم تم منذ نحو (٥٤) مليون سنة .. التقى مجرى النيل الأزرق هابطاً من مرتفعات الحبشة إلى سهول السودان .. بالنيل الأبيض القادم فى بطء وجلال عبر رحلة طويلة من منطقة البحيرات بوسط أفريقيا ..

ومنذ كان هذا التلاقى بين النيلين واتحادهما فى نيل واحد ، اندفع النهر نحو الشمال ليخترق رمال الصحراء فيقسمها إلى صحراوين شرقية وغربية .. ويفرش أرض الوادى الخصيب بصنوف من الخيرات لا تقع تحت حصر ..

ويقطع النهر العظيم رحلة هائلة تمتد نحو (٦٦٤٠) كيلومترا ، منذ أن يخرج من أقصى منابعه بوسط افريقيا ، حتى يصب فى البحر المتوسط .. ماراً ورابطاً بين تسع دول افريقية [حسب النظرية الحديثة لتحديد منابع النيل] هى : مصر والسودان واثيوبيا وكينيا وأوغندا وتانزانيا وزائير ورواندا وبوروندى ..

هذه الرحلة الطويلة تتفاوت فيها المناطق المناخية من النقيض إلى النقيض .. فبينما يبلغ مستوى هبوط الأمطار فى مناطق المنابع إلى أعلى من « ألف » ملليمتر فى السنة ، فلا يزيد هذا المستوى فى وادى النيل المصرى عن « عشرة » ملليمترات فى السنة ..

ولذلك فلم تكن هناك مشكلة مياه فى المناطق الجنوبية للنهر، بينما كانت المشكلة الحقيقية فى رحلة النهر نحو الشمال من وادى حلفا حتى أطراف الدلتا ، حيث لايمكن الاعتماد على المطر إطلاقا فى عمليات الزراعة ، وحيث تصبح السيطرة على مجرى النيل وعلى مياهه ، أمراً واجباً وحيوياً إلى أقصى حد .. ولذلك فقد كان لابد على المصريين الأوائل أن يتعلموا الحساب والكتابة والهندسة ليتفهموا النهر أكثر وأكثر ، وليشتركوا معه فى تقدم الحضارة الإنسانية على وجه العموم ..

● المنبعان .. الأزرق والأبيض ..

والنيل الأزرق والنيل الأبيض نهران من طبيعة مختلفة .. ولكن عليهما معاً يعتمد النيل الرئيسى فى الحصول على مائه وقت الفيضان وطوال أيام السنة .

والمجرى الذى شقه النيل الازرق منذ خروجه من بحيرة « تانا » بمرتفعات الحبشة حتى ملتقاه بالنيل الأبيض عند الخرطوم ، ظل على درجة كبيرة من الثبات والاستقرار النسبى عبر ملايين السنين ..

أما النيل الأبيض ، فقد تعرض عبر هذا الزمن لعديد من العوامل الجيولوجية التى جعلته يغير مجراه عدة مرات .. فقد حدثت بعض الانكسارات فى القشرة الأرضية بوسط افريقيا ، وتكون الأخدود الافريقى العظيم ، وتكون بسببه الواديان الصدعيان بوسط القارة ، كما تكونت المساحة الهائلة التى تشغلها الآن بحيرة فيكتوريا ..

و بعد استقرار القشرة الأرضية على هذا النحو، أخذت الكثير من أنهار المنطقة تشق طريقها نحو البحيرة لتزو يدها بالمزيد من المياه ، كما أخذت بعض الأنهار والنهيرات الأخرى تشق طريقها خارجة من البحيرة .

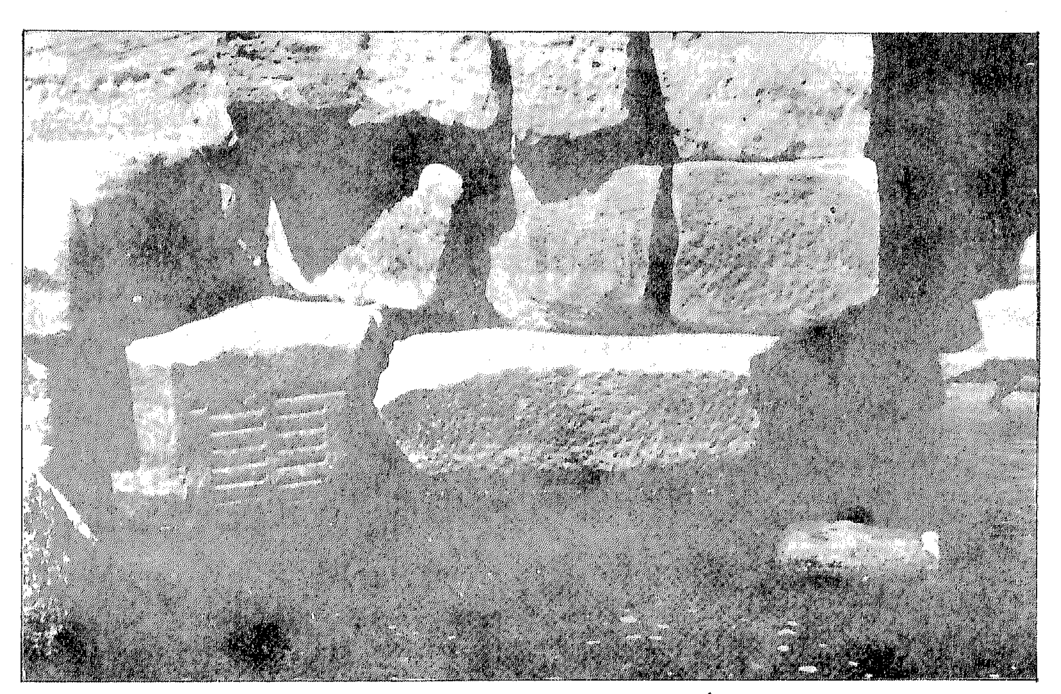
والمجموعة المائية التى نطلق عليها اسم النيل الأبيض تبدأ فى هذا المكان ، عند خروج نيل فكيتوريا من بحيرة فيكتوريا .

إلا أن هناك نظرية حديثة تُرْجِع منابع النيل العليا إلى منطقة «بوروندى» Burundi عند الحدود الشمالية لبحيرة تنجانيقا ، على النحو الذى سنعرضه تفصيلا فيما بعد .. وعلى أية حال فيمكن القول بصفة عامة أن مساحة المناطق التى يحصل منها النيل على مائه ، تبلغ نحو ثلاثة ملايين كيلومتر مربع .. أى نحو عُشر مساحة قارة افريقيا بأكملها .

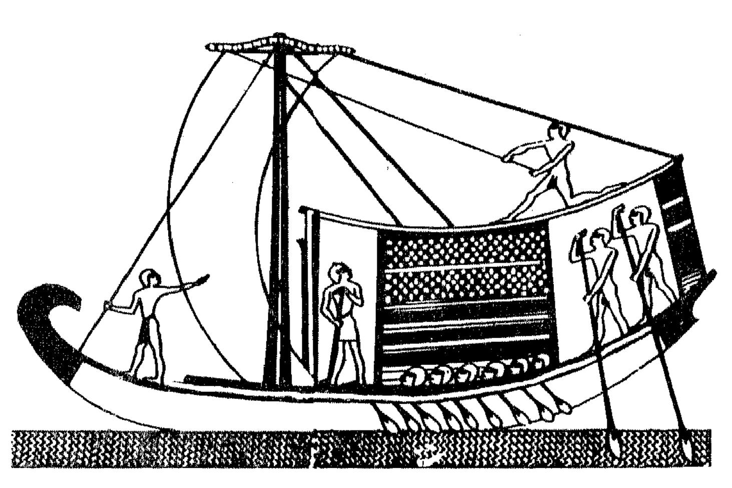
• معروف فى الشمال .. مجهول فى الجنوب ..

عندما شق النيل واديه فى شمال شرق افريقيا ، تجمع الإنسان حول شاطئيه على طول المجرى وفى مناطق دلتاه . و بدأ يتعايش مع النهر، و يصنع حضارة مستقرة تقوم على العلوم الرياضية والهندسية ، بعد أن علمه النهر كيف يمسك بالإزميل ليحفر على الحجر، أو يمسك بالقلم ليخط على الورق .

حتى أكثر الآثار الموغلة فى القدم والتى تركها لنا أوائل قدماء المصريين كانت لا تغفل النهر أبداً . وفى الغالبية العظمى للنقوش التى تم العثور عليها ، حرص المصرى



مـن أقدم مقاييس النيل .. بناه المصريون القدماء
على الـصـخـور الجـرانيـتيـة بجزيرة إلفنتين بأسوان



كـان لدى المصريين القدماء عدة آلاف من السفن الشراعية التى
كانـت تـذرع النـيل جيئـة وذهاباً

القديم على رسم النيل وقوار به وسفنه وأحراشه ونباتاته وزراعاته وأسماكه وحيواناته . كما أن نمط الحياة المصرية السائد فى مصر القديمة ومصر الحديثة على السواء ، يدل بصفة قاطعة على أن المصريين يعرفون نهرهم تماماً ، وأنهم درسوا أحواله دراسة مستفيضة متأنية ، استمرت منذ الزمن القديم حتى أيامنا هذه .

ومن الغريب حقا ، أنه بالرغم من بلوغ سكان شمال وادى النيل أعلى مراتب الحضارة المعروفة منذ آلاف السنين ، إلا أن قدماء المصريين لم يعرفوا « على وجه اليقين » من أين يأتى النهر بمائه ، ولا أين تقع منابعه الحقيقية . وأثبتت الآثار التى تركوها أنهم كانوا يقومون برحلات مستمرة إلى الجنوب الداخلى وراء النوبة . واستكشفوا النهر من جنوب الخرطوم حتى منطقة السدود العظمى . وهناك استحال عليهم التقدم صاعدين إلى منابع النهر فى المنطقة الاستوائية .

ومن الأغرب أن هذه المناطق التى تقع جنوب التقاء النيلين الأبيض والأزرق ، ظلت من المجاهل طوال ذلك التاريخ الطويل ، اللهم إلا منذ نيف ومائة عام فقط ، حين استكشفت تلك المناطق ووضعت لها الخرائط الصحيحة لأول مرة .

• نحو الجنوب .. صعوداً مع النهر.

وبنظرة خاطفة على برنامج الرحلة النيلية التى يتضمن الكتاب وصفا تسجيليا لها ، نرى أن طبيعة المناطق التى سنزورها ، سيتحتم علينا استعمال العديد من سبل المواصلات ، كالطرق البرية والسكك الحديدية والصعود فى مجرى النهر بالقوارب والبواخر النيلية الشهيرة ، وفى بعض مناطق الرحلة لن نجد أمامنا إلا امتطاء ظهر الحيوان .

ولأن الرحلة ستكون صعوداً من الشمال إلى الجنوب ، فسوف نبدأ أولاً بدلتا النيل التى يصب فرعاها « الباقيان » فى البحر المتوسط . وسنتأكد من أن الدلتا عبارة عن بقعة هائلة من النباتات الخضراء ، تحيط بها الصحارى من الشرق والغرب ، كما تحيط الصحارى والمناطق الجبلية بالنهر وضفافه والأراضى الزراعية التى تعتمد عليه .. وسنرى وادى النيل من مفرق الدلتا حتى السد العالى جنوب أسوان ، عبارة عن شريط أخضر ضيق ، وسط أراض صفراء قاحلة تحف به من الجانبين .

وبعد أن نترك بحيرة السد العالى للدخول إلى وادى حلفا ، سنرى بطاحاً شاسعة من الأراضى المشققة ، تنبت فيها أعشاب مختلفة ونباتات شوكية .. فيما عدا منطقة الخرطوم وأم درمان وأرض الجزيرة .

وكلما توغلنا نحو الجنوب .. تحول النهر إلى مستنقعات ومساحات مائية تمتد من الأفق إلى الأفق ، مغطاة بأدغال كثيفة من نبات البردى « بابيروس » Papyrus وهو النبات الذى استخدمه المصريون القدماء كورق للكتابة ، والذى أعطى للورق اسمه الأجنبى « بيبر» Paper

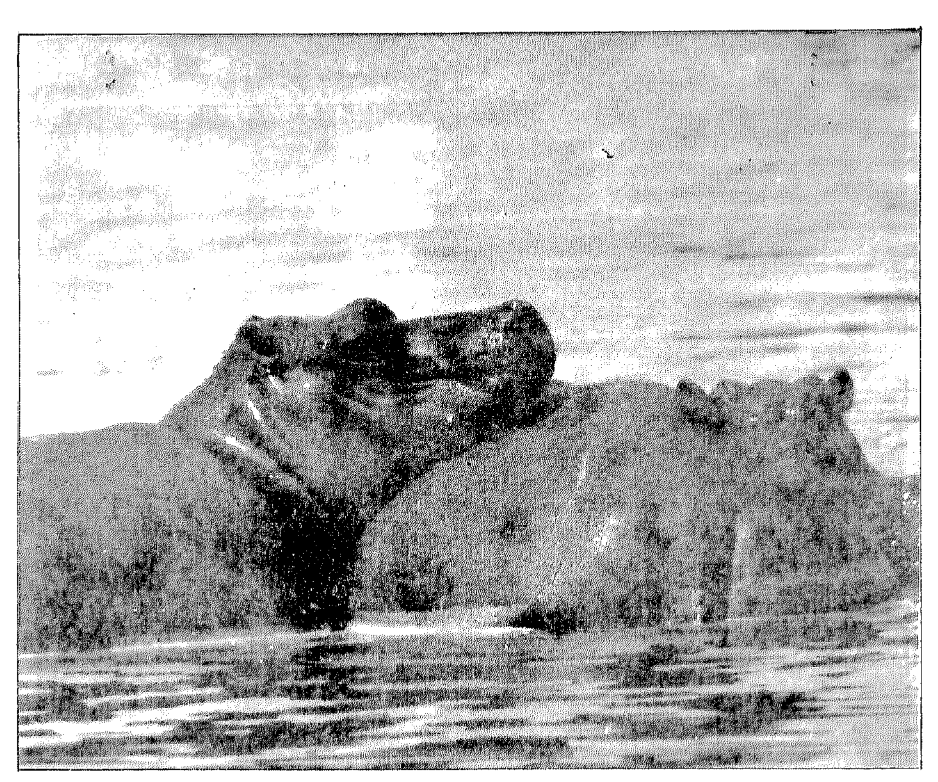
ثم ندخل بعد ذلك منطقة واسعة من الغابات المدارية والغابات الاستوائية التى تنمو فيها أعشاب كثيفة يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثة امتار، وحيث يسقط عليها المطر بأعلى منسوب ..

وإذا واصلنا الطريق صاعدين فى مجرى أحد روافد النيل التى تنبع من جبال رونزورى « جبال القمر» سنرى هناك غابات الخيزران على ارتفاع نحو ثلاثة آلاف متر فوق سطح البحر. وفى هذه المنطقة سنرى مساحة جبلية هائلة يجلل قمها جليد لا يذوب أبداً .

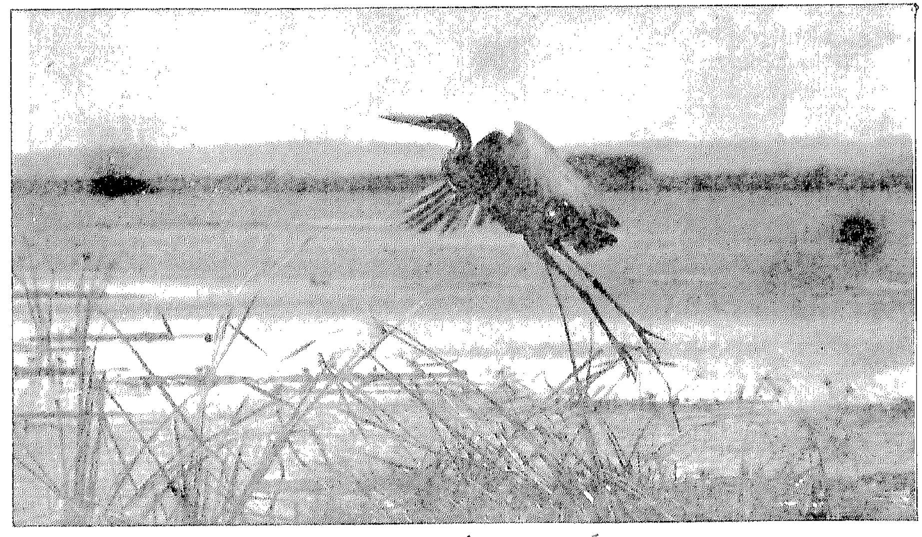
وفى خلال رحلتنا سنرى مئات من أنواع الحيوان ، منها الصغير ومنها الكبير ومنها الضخم كالأفيال والجاموس وفرس النهر « سيد قشطة » والأسود .. والزواحف كالتماسيح وثعابين الأصلة التى تصل فى طولها نحو ستة أمتار، وبعض أنواع السحالى التى يزيد طولها على متر ونصف متر..

وفوق المسطحات المائية الشاسعة سنرى ملايين من الطيور الصغيرة والضخمة ، أغلبها يجيد صيد الأسماك . وفى كل مناطق النيل عبر مجراه الطويل تعيش عشرات ومئات الأنواع من الأسماك النهرية التى تعيش فى المياه العذبة . وبعض هذه الأنواع يعتبر أسماكا نيلية ليس لها مثيل فى أى نهر أو أى مكان آخر من العالم ، مثل سمك الفرخ النيلى الذى يتضخم حتى يزن بعضه نحو ١٣٦ كيلوجراما . وسمك النمر النيلى بأسنانه الحادة المتوحشة .

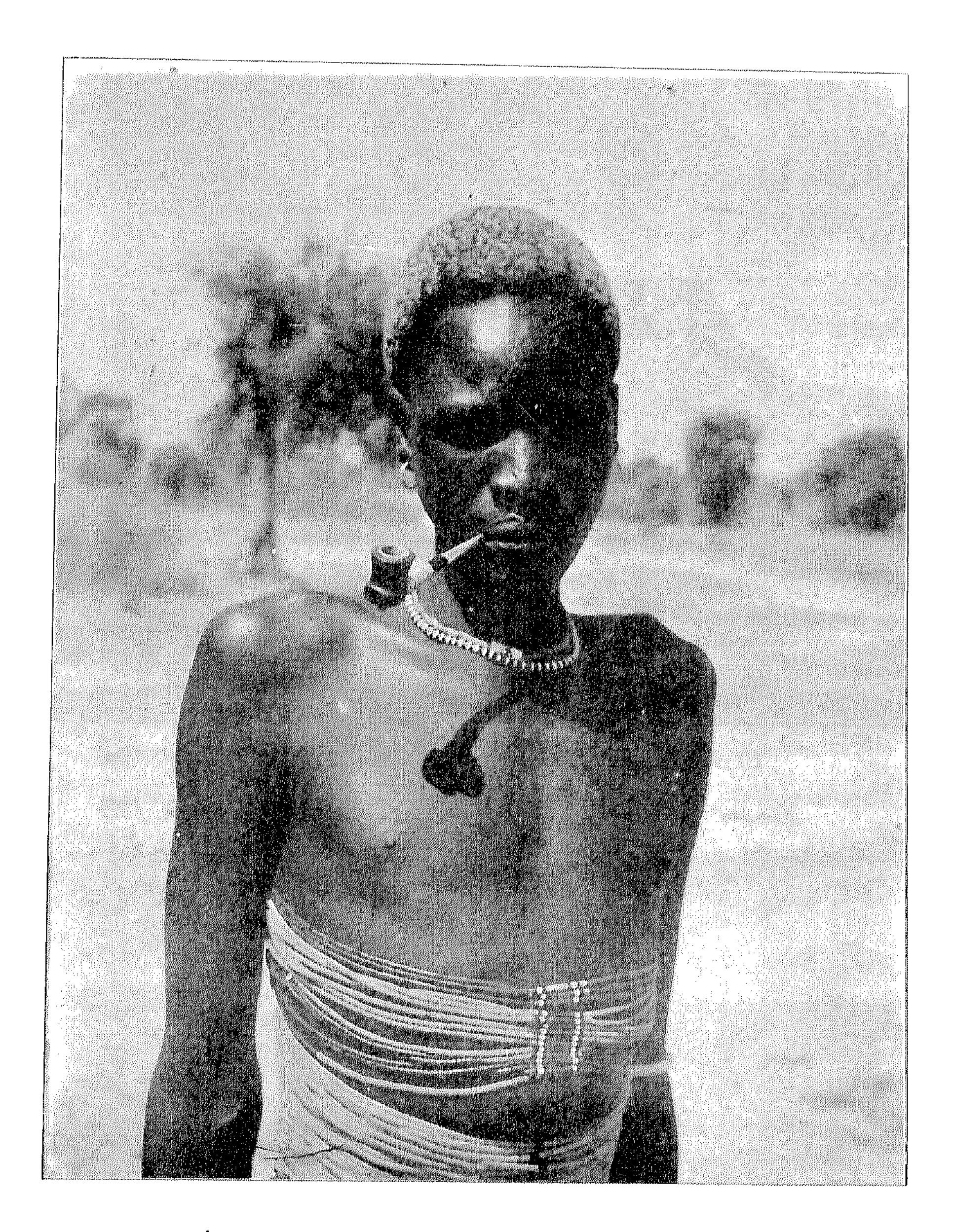
أما الأجناس البشرية التى سنصادفها خلال تلك الرحلة ، فتبدأ بالمصريين ــ المحدثين والقدماء ــ وأغلبهم من الجنس الحامى ذوى البشرة القمحية أو البنية الخفيفة . ثم نجد فى جنوب الوادى المصرى مجموعة من النوبيين ذوى البشرة السمراء الداكنة . وعندما



أفراس النهر « سيد قشطه » .. من أشهر الحيوانات النيلية ..
يقضى النهار فى الماء ، ويخرج ليلاً للبحث عن الطعام



« مالك الحزين » يقلع طائراً .. وهو من أشهر الطيور صائدة الأسماك بمنطقة السدود



أحد ملاك القطعان .. ينتمى إلى قبائل الدنكا التى تعتبر من أشهر
الشعوب النيلية بمناطق جنوب السودان

نتوغل جنوباً سنرى شعوباً نيلية أخرى أهمها الشيلوك والدنكا الذين يعيشون على صيد السمك ورعى القطعان. وسنعجب من طريقة وقوف الراعى فى تلك المنطقة لساعات طويلة على ساق واحدة ومستنداً إلى رمحه.. تماماً مثلما يقف طائر اللقلق المنتشر فوق وحول المسطحات المائية..

وأخيرا عندما نصل إلى أقصى منابع النيل جنوبا ، سنرى قبائل وشعوب البانتو..

والقاسم المشترك الأعظم بين هؤلاء الملايين من البشر بأجناسهم المختلفة ، هو اعتمادهم جميعاً على النيل.. زراعةً ورعياً وصيداً وطاقة..

• رحلة النهر.. عبر الزمان..

ولنهر النيل ذاتية خاصة أعطته معالم شخصية يتميز بها عن غيره من الأنهار الكبرى فى العالم. فهو يمتد من الجنوب إلى الشمال فى استقامة غير عادية من الناحية النسبية ، رغم وضوح عدد من ثنيات النهر فى السودان ومصر.

وجريان النيل على هذا النحو من الجنوب صوب الشمال يعطيه صفة فريدة بين أنهار العالم الكبرى التى تجرى غالباً من الغرب إلى الشرق والتى تقع غالباً فى منطقة مناخية واحدة.. أما النيل فيبدأ رحلته عند خط عرض ٣,٥ درجة جنوب خط الاستواء ، وتستمر رحلته عبر ٣٤ درجة من الخطوط العرضية حتى تنتهى عند المصبين فى خط عرض ٣١ درجة شمال خط الاستواء.

هذه الرحلة الطويلة أعطت للنيل صفة جوهرية أخرى يتميز بها ، وهى مروره على مناطق مناخية مختلفة ، تبدأ بالمناخ الاستوائى فالمدارى فالصحراوى وتنتهى بمناخ البحر المتوسط. وكل منطقة من هذه المناطق لها طبيعة نباتية وبشرية تميزها عن بقية المناطق الأخرى ، ومع ذلك فهى تشترك جميعاً فى رباط واحد ، هو هذا النهر العظيم الذى يتيح لسكانها الحياة ، متمثلة فى الماء والطعام..

وقد قطع النيل هذه الرحلة الطويلة عبر ملايين السنين حتى وصل إلى شكله وتركيبه الحالى.. ومن الحقائق الجيولوجية أن النهر لم يكن دائما فى شكله النهائى الذى نراه الآن.. بل غيّر النهر من شكله عدة مرات..

ومنذ ملايين السنين لم يكن النيل نهراً واحداً متصلاً ، وإنما كانت هناك ثلاثة نظم نهرية مستقلة عن بعضها تماماً : أولها النظام النهرى فى الهضبة الاستوائية ، وثانيها النظام النهرى فى الهضبة الحبشية ، وثالثها النظام النهرى فى مصر والنوبة .

ونتيجة لحدوث سلسلة مستمرة من التغيرات الجيولوجية فى تلك المنطقة متمثلة فى الانكسارات التى أدت إلى ارتفاعات وانخفاضات وتشققات هائلة ، وإلى تكوين البحر الأحمر ومرتفعاته ، وإلى تكوين عدة بحيرات عذبة فى وسط القارة ، كما أدت أيضا إلى حدوث اتصال مباشر بين النظم النهرية الثلاثة ، وتكوين نهر عظيم واحد يمتد من وسط افريقيا حتى أقصى شمالها الشرقى ..

● نيل غريب .. اسمه النيل الليبى .. !

وقبل حدوث هذا الاتصال بين النظم النهرية الثلاثة ، كان هناك نظام نهرى غريب يقع فى منطقة مصر والنوبة .. كان هناك مايسمى « النيل الليبى » وهو نهر قديم جداً ولايمت إلى نهر النيل الحالى بأدنى صلة .

كان هذا « النيل الليبى » ينبع من الجنوب الشرقى والغربى لمناطق النوبة الصحراوية التى كانت فى عصره من المناطق غزيرة الأمطار والنباتات وتصلح تماماً للسكنى البشرية . وكان هذا النهر يسير فى مجرى متعرج حتى يصل إلى دلتاه التى كانت تقع شمال منطقة الفيوم الحالية .. حيث عثر على آثار من ترسيب هذا النهر القديم يصل سمكها إلى (١٥٠) مترا .. كما عثر على بقايا حيوانات ثديية ضخمة وأشجار ضخمة متحجرة .. غير أن البحوث الخاصة بتتبع المجرى القديم لهذا النهر وتحديده ، تتطلب المزيد من الوقت والجهد والتمويل .

وعلى أية حال فإن التغيرات التى حدثت فى القشرة الأرضية والتى أشرنا إليها سابقاً ، قد ساهمت بالإضافة إلى التغيرات التى حدثت فى الظروف المناخية ، فى زوال النيل الليبى ونشأة ونمو نظام نهرى آخر ليجرى فى النوبة ومصر يختلف تماماً عن النظام النهرى القديم .

ولذلك يقال إن النيل المصرى الذى يبدأ من جنوب النوبة حتى شمال الدلتا يعتبر من أحدث أجزاء نهر النيل تكويناً من الناحية الجيولوجية .. بالرغم من أن ضفافه كانت موطن أقدم حضارات الإنسان وأكثرها تقدماً وتنظيما وتمدينا ..

● هل مصر حقا .. هبة النيل .. ؟!

لا يكاد يخلو كتاب يبحث فى شئون النيل من ذكر هذه الجملة المشهورة: « مصر هبة النيل » .. وهكذا فعل الكتاب الذى نقوم بعرضه .. وقد ظل صدى هذه الجملة يتردد منذ أن قالها « هيرودوت » حين زار مصر فى ثلاثينات القرن الخامس قبل الميلاد وحتى اليوم .. ولكن ما هو مدى الحقيقة فى هذه الجملة .. ؟!

لا شك أن النيل كان ومازال له أكبر الأثر فى حياة المصريين .. بل ولولاه لما وجدت مصر بتاريخها وحضارتها ولا وجد المصريون الذين عمروا هذا الوادى لآلاف طويلة من السنين ..

ولكن النيل وحده لايعدو أن يكون نهراً مثل غيره من الأنهار الكبرى، التى نشأت على ضفافها الحضارات القديمة الأخرى .. فما هو السر الذى ميز حضارة وادى النيل المصرى بصفة خاصة، وأعطاها هذا القدر المعروف من العراقة والتقدم والتفوق على الحضارات الأخرى التى عاصرتها ؟!

هناك مجموعة أخرى من العناصر التى اشتركت فى صنع الحضارة التى نشأت على ضفاف النيل المصرى القديم .. عناصر بيئية ومناخية ومكانية [موقع مصر الجغرافى بين قارتين] . بالإضافة إلى عنصر سكانى هام يتمثل فى طبيعة الشعب الذى صنع هذه الحضارة .

هذه العناصر ــ وأهمها النيل بطبيعة الحال ــ هى التى أعطت للحضارة المصرية طبيعة الاستقرار، وهى التى مهدت لها التقدم والتفوق والازدهار.. فبعد أن تجمع أوائل المصريين ليعيشوا على ضفاف النهر وعلى أراضى الدلتا .. بدأوا يزرعون الأرض وبدأوا فى الوقت نفسه يكيفون حياتهم طبقا لطبيعة النهر وطبيعة الظروف البيئية والمناخية .

وحين كان يفيض النهر على ضفتيه، كان يغرق الأرض ويزيل البيوت .. لذلك فقد كان هؤلاء الأوائل من المصريين يواجهون خطراً عاماً مشتركاً، لم يكن بد من أن يتضافروا معاً فى اتقائه .. وقد أملت الظروف عليهم أن ينشئوا بيوتهم وقراهم على روابىَ عالية وأكوام طينية وحجرية يصنعونها بأنفسهم فى عمل جماعى متضافر.. وبهذا حلت الوحدة القروية أو المدنية محل الوحدة القبلية التى كانت تميز الجماعات الإنسانية المتنقلة غير المستقرة فى أرض بعينها .. وهكذا كان الإحساس بالوحدة والاتحاد والتكامل

الاجتماعى هو الطابع الذى ميز وادى النيل المصرى ، رغم انقسام مصر نفسها ــ بحكم الطبيعة ــ إلى وجه قبلى ووجه بحرى ..

هذا الإحساس المميز بالوحدة هو الذى أوجب على المصريين توحيد الوجهين وإنشاء الدولة .. ومن المعلومات المشهورة أن الملك مينا أول ملوك الأسرة الأولى وابن الوجه القبلى ، هو الذى وحد الوجهين فى مملكة واحدة وذلك نحو عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد .. ولكن البحوث التاريخية الحديثة ، أثبتت أن عملية الوحدة التى فرضها الوجه القبلى كانت مسبوقة بعملية توحيد فرضها الوجه البحرى فى زمن يرجع إلى ما قبل عصر مينا بنحو ألف عام ، أو على وجه التحديد سنة ٤٢٤٠ قبل الميلاد .. وذلك حين قام ملوك مقاطعة الصقر « حورس » من عاصمتهم « دمنهور » الحالية ، ووحدوا القطرين واتخذوا عاصمتهم فى منطقة أون « عين شمس وهليوبوليس » .

وعلى أية حال فإن « الدولة » التى قامت على ضفاف النيل المصرى قد قامت أولاً وأخيراً بفضل النيل وفيضانه .. ولكنها ما كانت تقوم لولا أن أنشأها السكان المتميزون الذين كانوا يعيشون على ضفاف النيل ودلتاه .. والذين كانوا أصحاب الفضل الأكبر فى الحضارة الإنسانية ...

وبعد هذا المسح السريع لطبيعة النهر وتكوينه وتاريخه ، أصبحنا مستعدين لرحلة الصعود فى النهر من مصبه حتى منابعه ، فى سياحة علمية تسجيلية لا تخلو من طرافة ولنبدأ الآن سياحتنا البديعة فى النيل المصرى كما سجلها « بارتون ورثنجتون » فى كتابه عن « نهر النيل » ..

• اسمها باليونانية : دلتا .. !

التعريف العلمى للدلتا أنها بقعة طينية تتكون عند مصب النهر عندما يقوم النهر بترسيب كميات كبيرة من الطمى والغرين لا تستطيع تيارات المد ــ أو غيرها من العوامل ــ إزالتها . وقد أطلق الإغريق اسم الدلتا على دلتا نهر النيل حين رأوها تشبه فى شكلها الحرف الرابع من أبجديتهم ، وهو حرف « الدال » الذى يكتب على شكل مثلث ..

والسبب فى اتخاذ دلتا الأنهار هذا الشكل ، يرجع إلى أن عملية الترسيب الأولى فى مجرى النهر الأدنى ، تؤدى إلى تفرع المجرى الرئيسى وانسيابه فى عدة فروع تأخذ شكل

المروحة أو المثلث .. وفى جميع الأحوال تتميز دلتا الأنهار بالخصوبة وبالتالى تزدحم بالسكان .. كدلتا نهر النيل وأنهار هوانجهو والجانج والمسيسيبى والبراهما باترا .

ومنذ سنوات قليلة مضت ، كانت سواحل البحر المتوسط القريبة من فرعى دلتا النيل تتميز بعكارة المياه ، حيث تتحول زرقة مياه البحر غالباً إلى لون يميل إلى البنى .. وكان السبب فى ذلك مايقذفه النيل من الطمى والغرين فى جوف البحر .. وبعد بناء السد العالى جنوب أسوان ، احتجز الطمى أمام السد واختفى بالتالى اللون البنى الذى كان يميز مياه النيل المصرى وقت الفيضان .

وبالقرب من مخرجى فرعى الدلتا عند رشيد ودمياط ، يقع أهم مينائين فى مصر ، بورسعيد شرقا ، والاسكندرية من ناحية الغرب .. ومن الاسكندرية سنبدأ سياحتنا فى وادى النيل ..

• .. كانت منارة العالم !

تقع مدينة الاسكندرية على شريط ضيق من الأرض بين مياه البحر المتوسط ومياه بحيرة مريوط ، وهى بحيرة ضحلة من الماء المالح .. واسم المدينة يفوح منه عطر التاريخ .. فقد بناها الاسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد . وظلت المدينة منذئذ ولقرون طويلة ، أهم مركز ثقافى وتعليمى فى العالم القديم كله . وكانت بالتالى على درجة من الرقى والحضارة والجمال المعمارى بشكل لم تسبقها إليه أية مدينة أخرى .

وقبل مولد المسيح بعقود قليلة ، كانت الاسكندرية مرتعاً لغراميات « كليوباترا » مع يوليوس قيصر ومارك أنطونيو واحداً بعد الآخر .. إلى أن كانت نهايتها التراجيدية منتحرة بلدغة الحية .. وابتدأ عندئذ عصر الحكم الرومانى فى مصر .

ثم قام العرب بفتح مصر فى عام ٦٤١ ميلادية ، ومنذ هذا التاريخ تقلصت أهمية الاسكندرية كمدينة مصرية مزدهرة ، بعد أن بدأت فى الظهور مدن داخلية أخرى قرب النيل ، وقبيل مفرق الدلتا ، كانت أكثر أهمية لنظام الحكم الجديد [الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة] .

وقد تعرضت الاسكندرية لسلسلة فظيعة من المآسى والنكبات ، فقد سقطت منارتها التى كانت إحدى عجائب الدنيا السبع ، وقيل أن الكتب والمخطوطات التى كانت

تتضمن ذخائر العلوم والمعرفة الإنسانية ، كانت تستعمل وقوداً لتسخين المياه فى الحمامات الشعبية ..

ومع ذلك فقد بقيت حتى العصر الحديث مجموعات أثرية نفيسة من مختلف العصور الماضية ، يتم العثور عليها فى الحفريات بين حين وآخر .. ولعلّ مِسَلّتَىْ كليوباترا خير شاهد على تلك الحضارة الماضية .. وقد نقلت المسلتان وأعيدت إقامتها فى مكانين بعيدين تماماً عن وادى النيل .. حيث أقيمت الأولى على ضفاف التيمس بلندن ، وأقيمت الثانية بمدينة نيو يورك .

ومنذ الخمسينات بدأت عملية استصلاح واستزراع الأراضى الصحراوية المتاخمة للحدود الغربية لدلتا النيل جنوب الاسكندرية حتى مشارف القاهرة من جهة « مديرية التحرير » . وهكذا امتدت الشرايين من النيل لتروى أراضى لم يكن من الممكن زراعتها لولا وفرة المياه التى يأتى بها هذا النهر العظيم ..

● اختراق الدلتا .. مكانا وزمانا ..

والسفر بالسكك الحديدية من الاسكندرية إلى القاهرة عبر خط يأخذ فى عمومه اتجاهاً جنوبياً شرقياً ، مخترقا دلتا النيل بين أهم مناطقها .

وتعتبر الدلتا من أكبر المناطق كثافة سكانية فى مصر بل وفى افريقيا كلها .. وبقليل من الملاحظة نجد أن المصريين قد استغلوا كل مساحة متاحة من الأرض فى الأعمال الزراعية .. وأن مياه الرى متوافرة بشكل منتظم جدا طوال السنة .. ولذلك نجد على امتداد البصر وفى مختلف أوقات السنة ، الحقول وقد حفلت بالمحاصيل الزراعية ، وعلى وجه الخصوص الذرة والقمح والأرز والقطن والبرسيم ..

ومن الغريب أنه بالرغم من هذه المساحات الشاسعة من الحقول والأراضى الزراعية الجيدة ، فإن مصر تستورد ملايين الأطنان من القمح من دول وقارات أخرى .. وكانت مصر فى التاريخ القديم تنتج من القمح والحبوب مايكفى حاجة جميع الناس حتى أفقر الفقراء .. ثم يتم تخزين فائض المحاصيل فى آلاف الصوامع والمخازن والمستودعات .. وكان الرصيد المخزون فى بعض الأحيان يكفى الحاجات الاستهلاكية لعدة سنوات مقبلة .. وكان الشاعر المصرى القديم يقول متغزلاً فى النيل حين كان يروى حقول القمح :

« لو أن ماتعجنه يداك كان ذهبا .. أوقوالب من الفضة .. لما



لو أن ماتعجنه يداك كان ذهباً .. أو قوالب من الفضة .. لما أكله الناس .. لأنهم لا يأكلون الذهب ولا الفضة ، وانما يأكلون القمح .. وهو أفضل من الأحجار الكريمة .. !!

أكـلـه الـناس .. لأنهم لا يأكلون الذهب ولا الفضة وإنما يأكلون القمح .. وهو أفضل من الأحجار الكريمة .. !! »

و بـقـلـيـل مـن الملاحظة أيضا نجد أن دلتا النيل ، وإن كانت تتكون أساساً من فرعى رشـيـد ودمـيـاط ، إلا أن هناك المئات من القنوات المائية العذبة التى تحمل مياه النيل إلى كل البطاح ..

وتـعتبر هذه المسارات المائية جزءاً لايتجزأ من أعرق نظم الرى التى انشأها الإنسان ذلـك الـنـظـام الذى يقوم أصلاً على السيطرة على مياه النيل والاستفادة بها إلى أقصى حد مـسـتـطاع ، حيث حفرت الترع والر ياحات والقنوات الفرعية ، وأنشئت القناطر والسدود والجسور.. ومازالت حتى الآن تلك الوسائل البدائية التى ابتدعها الفلاح المصرى القديم ، مـسـتـعـمـلـة فى إحـكـام الـسـيـطـرة على المياه وتوجيهها إلى الانتاج الزراعى حسب القدر المحسوب .. ولعل آلاف السواقى والشواديف التى مازالت تستعمل فى رفع مياه النيل من مـسـتـوى أدنـى إلى مـسـتـوى أعلى ، خير شـاهد على تغلب الفلاح المصرى القديم على تلك المشكلة قبل اختراع الطلمبات الموتور ية بآلاف السنين .

ومـن الـمـشـاكـل الـتـى كانت لدلتا النيل حتى زمن قر يب ، مشكلة انخفاض مستوى الأرض عـن مـسـتـوى الـنـيل ، الأمر الذى كان يمثل خطراً يهدد بإغراق أغلب المناطق إذا فـاض الـنـهـر فـيـضـانا عالياً ، ولم تكن على النهر كل تلك التحصينات والجسور والإنشاءات التى ظـل الـمـصـر يون يـقـيـمونها عبر تاريخهم الطو يل .. ولكن هذه المشكلة قد انتهت الآن تماماً بعد إنشاء السد العالى الذى أصبح يتحكم فى فيضان النهر مهما كان عالياً ..

ومن الحقائق الجيولوجية المعروفة عن تار يخ دلتا النيل ، أنها كانت فى الأصل خليجاً بحـر يـاً قـام الـنـهـر بـردمـه بما يرسبه فيه من بلايين الأطنان من الطمى والغر ين فى كل عام وعلى مـدى مـلايين الـسـنين .. وأن الـدلتا كانت تتكون فى بعض الأزمان من تسعة فروع تـقـلـصت فيا بعد إلى سبعة ثم إلى خمسة فثلا ثة .. ثم لم يبق منها فى هذه الأيام إلا فرعان اثنان هما رشيد ودمياط .

ومـن الحقائق المعروفة أيضاً أن رأس الدلتا ، أى حين يتفرع النيل من مجراه الواحد إلى الـفـروع الـتـى تـتـكـون منها الدلتا ، كان فى موقع يقابل مدينة القاهرة منذ نحو خمسة آلاف سـنـة .. ثم تحـرك هذا الرأس شمالاً وأصبح الآن على بعد نحو (٢٣) كيلومترا عند القناطر الخير ية ..

ولعل من الطريف أن نذكر أن متوسط عرض المجرى الرئيسى للنيل المصرى يبلغ نحو (٧٥٠) مترا .. وإن كان يضيق أو يتسع فى بعض مناطق المجرى من أسوان حتى القاهرة .. وحين يتفرع المجرى داخلاً إلى الدلتا بذراعى رشيد ودمياط ، فإن المجرى يحتفظ بمتوسط عرضه ، ولكنه يقسم هذا المتوسط إلى قسمين .. فمتوسط عرض فرع رشيد يبلغ نحو (٥٠٠) مترا ، ومتوسط عرض فرع دمياط يبلغ نحو (٢٧٠) مترا .. !

● عاصمة النيل ..

يقول المؤلف : حين تقترب رحلة القطار من نهايتها ، و يكاد ينتهى الخط عند مداخل القاهرة ، فإن هذه المداخل إلى تلك المدينة الكبيرة تعطى تأثيراً مؤلماً لمشكلة الفقر وتزايد السكان .. والمؤلف لايقول ذلك ــ وهو محق فى قوله ــ من باب المعايرة أو الشماتة ، وإنما يقوله وهو يقدر أن المدينة العريقة التى يتحدث عنها لا تعتبر عاصمة لمصر فحسب ، بل هى أيضا « عاصمة النيل » باعتبارها أكبر مدينة فى حوض النهر وأكثر مناطقه تحضراً وتمدينا ، بل و باعتبارها أيضا عاصمة لافريقيا وأكبر مدينة فيها .

وقد أدهشت المؤلف بحق حركة المرور الساخنة التى تمتد وتشتد فى جميع شوارع المدينة ، ومئات وآلاف الأتوبيسات واللوارى وأنصافها والتاكسيات والسيارات الخاصة ، وهى تشق طريقها فى فوضى و براعة بين عشرات من خطوط الترام ومئات من العربات الكارو والحناطير والموتوسيكلات والتريسيكلات .. وفى وسط هذا الحشد الهائل من المركبات ، يحتشد فى الشوارع ــ جيئة وذهابا ــ مئات الآلاف من الناس الذين يبدو أغلبهم بلا عمل رغم حسن الملابس والهندام !

و يسجل المؤلف ماتحفل به المدينة من المدارس والجامعات والمصانع الكبيرة والصغيرة ودور السينما والنوادى والمحلات التجارية .. كما يقوم بجولة سريعة فى مناطق القاهرة الإسلامية أو القاهرة القديمة ذات الأحياء والشوارع والحارات والدروب التى تحكى مراحل التاريخ الإسلامى فى مصر فى هذه المنطقة ، منذ إنشاء مدينة الفسطاط فى بداية الفتح العربى حتى الآن .. وسجل على وجه الخصوص النشاط التجارى والصناعى والبراعة الحرفية فى أحياء الموسكى والغورية والصاغة والنحاسين .

والقاهرة مدينة عريقة يرجع تاريخها إلى أكثر من ألف عام .. أقيمت قرب شاطىء النيل وقبيل مفرقه عند الدلتا بعدة كيلومترات .. و بالتدريج حلت هذه المدينة الجديدة

محل مدينة الاسكندرية وأصبحت عاصمة للديار المصرية ، بعد أن أدت الاسكندرية هذا الدور لمدة أكثر من ١٣٠٠ سنة قبل بناء القاهرة نفسها .. و يكاد تاريخ بناء القاهرة يتعاصر مع تاريخ غزو النورمانديين لانجلترا فى أواخر القرن العاشر و بداية القرن الحادى عشر الميلاديين ..

ومن فوق جبل المقطم يمكن مشاهدة أكبر مساحة من المدينة ، حيث تظهر بوضوح مآذن الجوامع وقبابها والبيوت والعمارات الشاهقة الممتدة حتى خط الأفق الغربى حيث تظهر أهرامات الجيزة .. و يظهر النيل مخترقا تلك المدينة فى مجارى مزدوجة تشق طريقها بين مجموعة بديعة من الجزر النهرية أهمها « الجزيرة » و« جزيرة الروضة » ..

ولم يشر المؤلف إلى الإهمال الشديد الذى تعانى منه شواطىء النيل فى منطقة القاهرة الكبرى .. وهى شواطىء تتميز بجمال خاص لامثيل له لو أخذت قدراً من العناية وصحة التخطيط .. إنما أشار المؤلف إلى الانطباع العام الذى تركته فى نفسه عاصمة النيل .. حيث لخص ذلك كله فى جملة قال فيها أنها مدينة ضخمة مشوشة التخطيط والمواصلات تزدحم شوارعها بناس كثيرين يبدون كما لو كانوا بلا عمل على الإطلاق .

و يشير المؤلف إلى ثورة يوليو ١٩٥٢ التى رفعت مستوى الملايين من الطبقات الفقيرة والفلاحين المصريين و حيث أصبح هؤلاء الآن أقل فقراً مما كانوا عليه قبل الثورة .. ولكن مشكلة الفقر الحقيقية تتجسم فى المدن المصرية ، وهى مشكلة سكانية واقتصادية يحتاج حلها إلى زمن طويل وجهود ضخمة واعتمادات طائلة .

● حين كان الهرم .. يطل على النيل .. !

بدأ عصر بناة الأهرام منذ أكثر من ستة وأربعين قرنا من الزمان .. وهو عصر يقدم أدلة قاطعة على بلوغ سكان النيل المصرى أعلى مراتب الحضارة والتنظيم .. وأنهم قد أمسكوا فعلاً بالنواحى الأساسية لعلوم الهندسة والحساب وفنون المعمار.

ومن المعروف أن النيل قد غير مجراه عدة مرات بفعل عاملى النحر والترسيب .. وأن المجرى الرئيسى للنهر زمن بناة الأهرام كان أكثر قرباً نحو حافة الصحراء الغربية .. وكانت رأس الدلتا أيضا تقع فى مكان أقرب مما هى عليه الآن .. وكانت مياه النيل ــ خصوصاً وقت الفيضان ــ تصل إلى حافة هضبة منف التى أقيمت فوقها الأهرام .

وغنـى عن الذكر هنا وصف هذه الأهرام بالتفصيل .. ولكن المؤلف يشير إلى الدلالة التـاريخية التى تؤكد التفوق العلمى والحضارى لإنسان النيل الذى عاش فى واديه الأدنى منذ آلاف السنين .. و يشير المؤلف إلى بعض المعلومات والإحصائيات الطريفة عن الهرم الأكبر فيـقول إن وزن الأحجار التى استخدمت فى بناء هذا الهرم يبلغ نحو(٦) مليون طن جاءت معظمها من الضفة الأخرى للنهر كما جاءت الأحجار الجرانيتية من محاجر أسوان فى أقصى جنوب النيل المصرى .. وأن المصريين القدماء قد استخدموا السفن والزحافات والدرافيل فى تحريك هذه الكميات الهائلة من كتل الأحجار.. وإذا احتجنا للقيام بعملية نقل مماثلة فى هذه الأيام ، فلابد لنا من استخدام (٦) آلاف قطار يقوم كل منها بنقل ألف طن .. !

وقد قام علماء الحملة الفرنسية الذين قدموا مع نابليون حين غزا مصر بعمليات حسابية مقارنة ، كان من نتائجها الطريفة ، أن الأحجار التى استخدمت فى بناء الأهرام الثلاثة تكفى وحدها لعمل سور حجرى ارتفاعه عشرة أمتار ويحيط بفرنسا كلها .. !

● الزراعة .. دون الاعتماد على المطر!

هنـاك خط حديدى يربط القاهرة بأقصى الصعيد فى مصر العليا .. وهو خط طويل يمتد أكثر من ألف كيلومتر، ولذلك فإن قطاراته مزودة بعربات للنوم .. وهناك أيضا خط طيران داخلى حتى الأقصر وأسوان وأبى سمبل فى أقصى الجنوب ..

ولكننا سنرحل مصعدين فى النهر على متن باخرة نيلية ، وهى رحلة لايمكن أن تنسى على مدى العمر كله .. ففضلاً عن المتعة التى توفرها هذه الرحلة سنلمس بأنفسنا المنشآت التى أقامها المصريون للسيطرة على النهر وترويضه وللسيطرة أيضا على مياهه وتوزيعها على الحقول النائية طبقا لنظام من أقدم وأضبط نظم الرى التى عرفها الإنسان .. كما سنرى القناطر العديدة التى تعترض مجرى النهر لإعادة توزيع مياهه .. ومايتفرع عن هذه القناطر من ترع عظيمة تمتد عبر مئات الكيلومترات ، لتشترك مع المجرى الرئيسى للنهر فى رى ملايين الأفدنة حيث تزرع الخضراوات والفواكه والبقول .. هذا فضلاً عن المتعة الثقافية التى يسعى إليها آلاف السياح لزيارة الآثار الرائعة المذهلة التى تركها قدماء المصريين الذين عاشوا على ضفاف وادى النيل فى مصر العليا ..

ولكن ما هو الانطباع الذى يعطيه النيل لأحد علماء الهيدرولوجيا .. أى العلوم والدراسات التى تبحث شئون المياه وطبيعة وتكوين الأنهار والمجارى المائية ؟

أول استنتاج يستظهره هذا العالم أن نهر النيل فى واديه المصرى ، نهر قد تم ترويضه واستئناسه ، ووضع تماماً تحت المراقبة والسيطرة ، بواسطة ناس يعرفونه جيداً ويحفظون أحواله عن ظهر قلب .. وأن هذه المعرفة الممتازة بالنهر وأحواله تمتد جذورها فى جوف التاريخ بآلاف عديدة من السنين ..

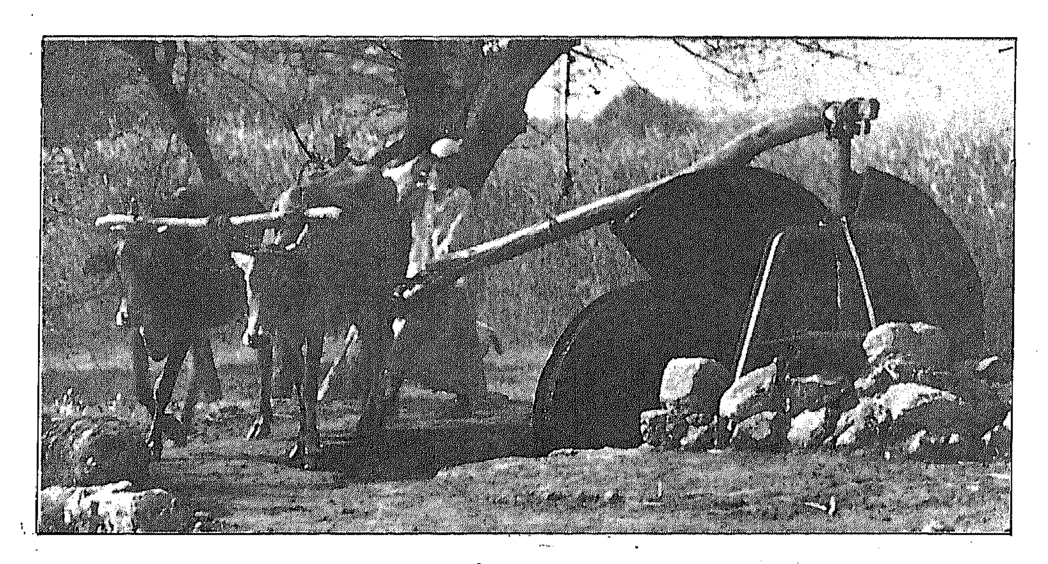
وبهذه المعرفة ، يتميز النيل المصرى عن غيره من أنهار العالم الكبرى ، بأنه نهر معروف وواضح تماماً ، وأن المعلومات المتوافرة عنه ــ سواء فى التاريخ القديم أو التاريخ الحديث ــ لا تتوافر بهذا القدر عن أى نهر آخر فى قارات العالم ..

ومنذ أكثر من خمسة آلاف سنة أقام المصريون المقاييس النيلية لقياس منسوب النهر سواء فى موسم الفيضان أو فى خلال بقية فصول السنة .. وكانت هذه القياسات تسجل وتدون لإجراء الدراسات المقارنة بين المناسيب وبعضها .. لمعرفة أحوال النهر وتقنين القواعد .. ومازالت آثار بعض هذه المقاييس النيلية القديمة باقية حتى الآن ..

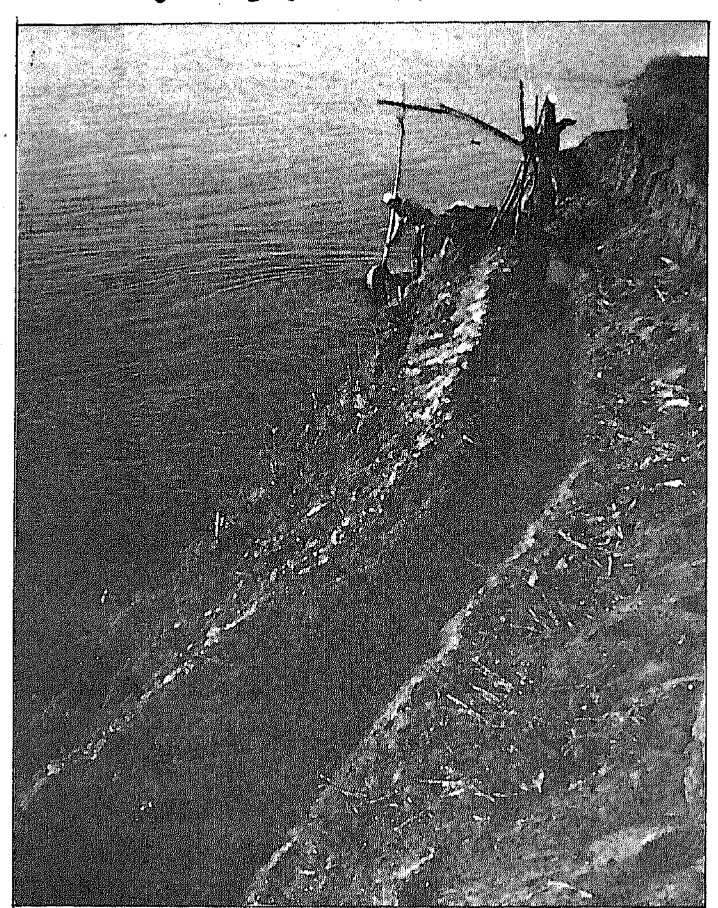
وقد استخدم المصريون القدماء « الذراع » كوحدة لقياس عمق المجرى أو ارتفاع المياه .. وطول هذا الذراع عبارة عن المسافة بين كوع الرجل العادى وطرف أصبعه الوسطى .. وكان أهم « مقياس نيلى » فى ذلك الزمن هو المقياس المقام فى جزيرة إلفنتاين فى أقصى جنوب الصعيد .. وكانت التسجيلات اليومية لهذا المقياس تبلّغ يومياً وأولاً بأول إلى كل النواحى والأقاليم المصرية فى طول البلاد وعرضها حتى أقصى مناطق الدلتا .. وذلك حتى يستعد المصريون جميعاً لاستقبال الفيضان الجديد ، وهم على علم مسبق بأنه فيضان عال أو متوسط أو منخفض .. وعلى هذا الأساس يدبرون أنفسهم وحياتهم .

ومن خلال هذا التدبير وانتظام مراقبة النهر وأحواله ، استطاع المصريون أن يقرنوا عملية فيضان النهر فى كل عام بالدراسات الفلكية التى برعوا فيها .. واخترعوا للبشرية فكرة التقويم السنوى وتقسيم السنة إلى (٣٦٥) يوماً وربع يوم ، وهو التقويم الذى مازالت تقاس به حياة الإنسان فى عالم اليوم ..

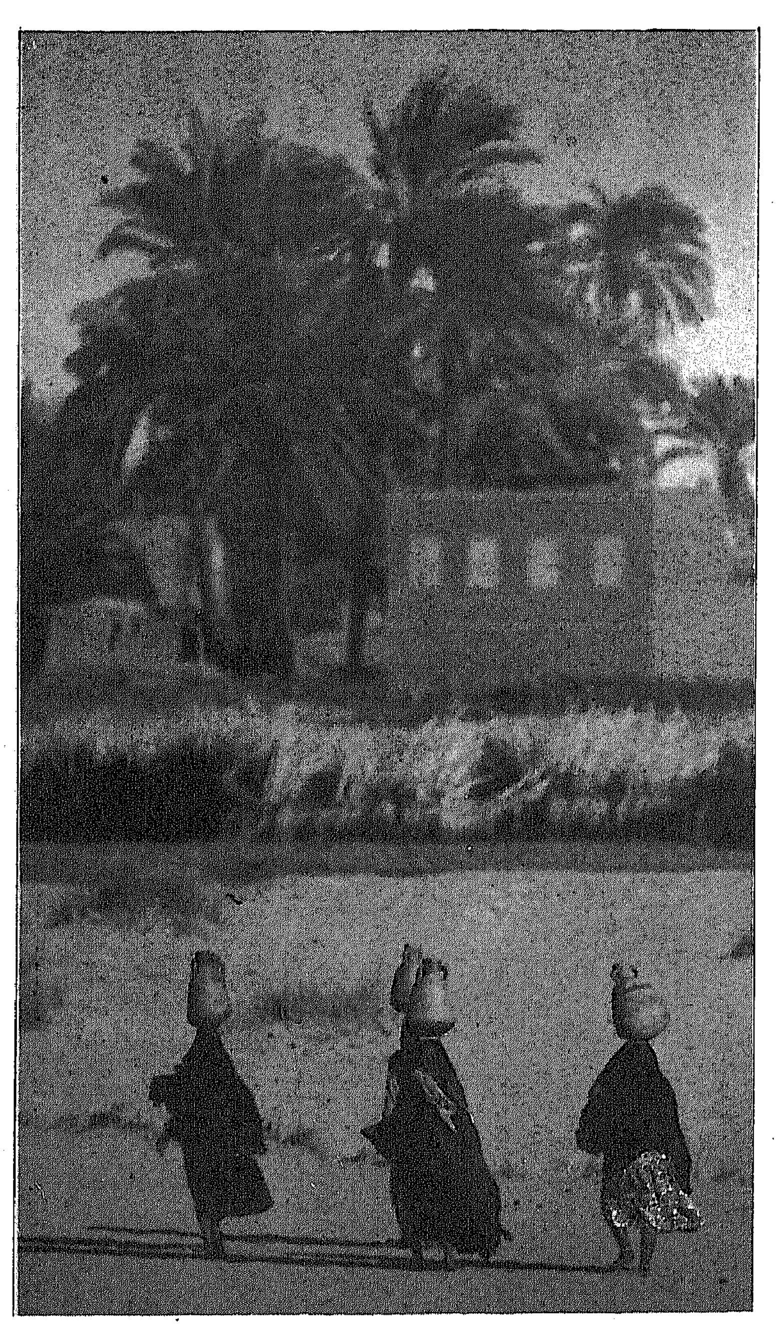
وبالنسبة لقياسات النيل فى فصول الفيضان ، كانت القاعدة أنه إذا وصل منسوب المياه إلى (١٢) ذراعاً ولم يتجاوزه ، فإن معنى ذلك القحط وقلة المحاصيل وحدوث المجاعة



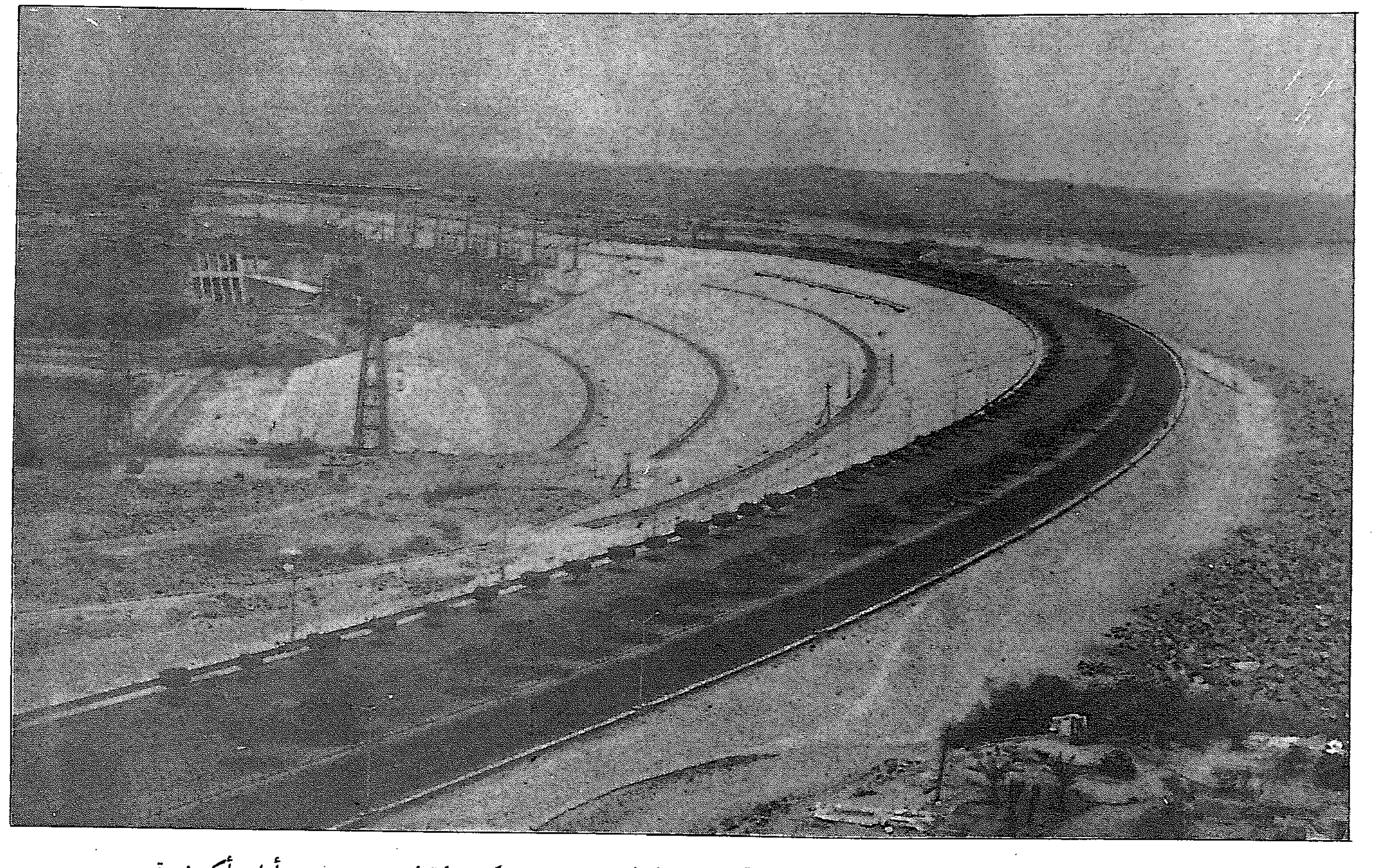
الساقية والشادوف .. من أقدم الوسائل التى استخدمها المصريون فى السيطرة على مياه النيل ..



فيضان النيل : علم المصريين القدماء الحساب والهندسة .. [صوره لأقدم المعادلات الرياضية الصعبة، مكتوبة على بردية يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة الخامسة عشرة ، وهى منقولة عن أصل يرجع إلى عصور أقدم] .



حاملات البلاليص باحدى قرى جنوب الصعيد .. من أقدم وسائل نقل ماء النيل إلى البيوت .. وكادت هذه الصورة تختفى الآن بعد إدخال مياه الشرب النقية إلى معظم القرى المصرية ..



السد العالى .. انتهى بناؤه سنة ١٩٧١ .. ساهم فى زيادة انتاج الطاقة الكهربائية فى مصر.. ويحجز أمامه أكبر بحيرة من المياه العذبة من صنع الانسان..

إذا لم يكن هناك مخزون فائض وكاف من محاصيل سابقة .. وإذا وصل المنسوب إلى (١٤) ذراعاً فسيتوافر الطعام للجميع .. أما إذا وصل إلى (١٦) ذراعاً فسيعم الخير وتمتلىء المخازن والمستودعات بالحبوب كذخيرة للمستقبل .. ولكن إذا تخطت المياه هذا المنسوب ، فهذا فيضان خطر تجرى من أجل اتقائه جميع الاحتياطات فى جميع أنحاء القطر المصرى بوجهيه القبلى والبحرى ..

• الرى بالحياض .. وعلم قياس الأرض ..

وكان المصريون القدماء يتبعون نظام الرى بالحياض .. حيث تغمر مياه الفيضان جميع الحقول والأراضى الزراعية ، وتتم عملية تخصيب الأرض بترسيب الطمى والغرين ، ثم تنحسر المياه عن الحقول بعد ذلك لتبدأ عملية الزراعة على الفور.

ونظراً لأن الحقول تكون قد اختلطت بغيرها نتيجة لعملية الغمر التى كانت تزيل الحدود بين مساحات الأرض وبعضها ، فإن الأمر كان يتطلب إعادة عملية قياس الأرض ووضع الحدود بين المساحات .. ولهذا اخترع المصريون القدماء علم « الجيومترى » .. أى علم قياس الأرض ..

أليس معنى هذا أن النيل المصرى هو الذى أتاح الفرصة لظهور حضارة أعطت لإنسان اليوم أسس قياس المسافات وقياس الزمن .. كما أن نبات البردى الذى كان ينمو على ضفافه ، كان الورق الذى دونت عليه الكتابات والدراسات التى تركوها بعد أن اكتشفوا فكرة اللغة وفكرة الكتابة نفسها ..

وقد ظلت طريقة « الرى بالحياض » سائدة فى الزراعة المصرية طوال آلاف السنين إلى أن اختفت تماماً باكتمال بناء السد العالى سنة ١٩٧١ حيث حلت محلها طريقة « الرى الدائم » . ويمكن الآن إتاحة مياه الرى طوال فترات السنة ، وليس فى خلال موسم الفيضان وحده .. وبهذا أمكن استزراع الأرض بأكثر من محصول فى خلال السنة الواحدة ..

• تخزين المياه .. لم يعد مشكلة ..

لم يكن من المستطاع إحلال طريقة الرى الدائم بدلاً من طريقة الرى بالحياض

إلا بعد تنفيذ مجموعة متكاملة من المنشآت الهندسية الكبرى التى أقيمت على مجرى النيل للتحكم فى المياه وللسيطرة على النهر نفسه طوال السنة ..

ولكن المشكلة فى طريقة الرى الدائم هى ضرورة إنشاء شبكة عميقة بالغة التعقيد لصرف أملاح التربة بعد القيام بعملية الرى .. وثمة طريقتان لإجراء عملية الصرف ، هما : الصرف المكشوف والصرف المغطى الذى أخذت شبكته فى الانتشار السريع لخدمة الزراعة فى حقول الوجهين المصريين القبلى والبحرى ..

وحتى نتفهم عملية تنظيم الرى فى وادى النيل المصرى وفى النيل السودانى أيضا .. فإن علينا أن نتصور الحقائق العلمية التالية :

إن النيل المصرى يحصل على مياهه من مصادر رئيسية ثلاثة هى — على الترتيب من الشمال إلى الجنوب — نهر عطبرة والنيل الأزرق والنيل الأبيض .. والنهران الأول والثانى ينبعان من هضبة الحبشة ، أما النهر الثالث فتمتد منابعه إلى جوف منطقة البحيرات الافريقية العظمى عند خط الاستواء .

و يعتبر النيل الأزرق أهم هذه المصادر جميعا حيث يبلغ ذروة فيضانه فى خلال شهرى أغسطس وسبتمبر من كل عام ، وحيث يصل منسوب مياهه إلى عشرة أضعاف ما كان عليه فى خلال شهرى ابريل ومايو ..

أما نهر عطبرة فيبلغ ذروة فيضانه أيضا فى نفس الفترة التى يفيض فيها النيل الأزرق ، إذ يقوم النهران معاً بتصريف كميات الأمطار الكثيفة الهائلة التى تسقط على هضبة وجبال الحبشة فى هذا الموسم .. ولكن الظاهرة المميزة بالنسبة لنهر عطبرة ، هى أن مجراه يكاد أن يجف تماماً من نوفبر حتى يوليو من العام التالى ..

أما النيل الأبيض فتختلف طبيعته تماماً عن طبيعة هذين النهرين .. فهو يتدفق بمنسوب يكاد أن يكون ثابتا طوال العام ، حيث أن النهر يحصل على مياهه من عشرات الروافد والأنهار الصغيرة بمنطقة البحيرات والمياه المستديمة بافريقيا الاستوائية ، وعلى وجه الخصوص من بحيرة فيكتوريا ..

وهكذا نرى أن مشكلة نهر النيل فى واديه عبر السودان ومصر تتلخص فى ضرورة تخزين المياه التى تتدفق بالأنهار الثلاثة وقت فيضان نهرى عطبرة والنيل الأزرق ، وذلك للاستفادة بها بعد انحسار الفيضان وحتى الفيضان التالى ..

ولم يكن هناك بد من إنشاء مجموعة من السدود الكبرى على مجارى الأنهار الثلاثة لوقف تدفق المياه وقت الفيضان ثم تصريفها بانتظام على مدى السنة .. تماما كما لوكانت مثل الصنابير العملاقة تغلق وتفتح وقت اللزوم ..

ويتم التحكم والسيطرة على مياه النيل فى كل من مصر والسودان على أساس متكامل بطبيعته وبحكم الضرورة .. وعلى ذلك فقد تم إنشاء مجموعة متكاملة من السدود الضخمة لتخزين المياه .. اثنان منها على النيل الأزرق ، واثنان آخران على النيل الأبيض ، وواحد على نهر عطبرة .. ثم اكتملت المجموعة بإنشاء « سيّد » السدود جنوب أسوان ، الذى يقوم بتخزين مياه الأنهار الثلاثة فى أكبر بحيرة من المياه العذبة صنعها الإنسان .. وبهذا تمت السيطرة على مياه النيل لتتاح للرى على مدى أيام السنة ..

وبالإضافة إلى هذه الوظيفة الأساسية للسدود والخزانات التى أنشئت على نهر النيل ، فإن لها وظيفة أخرى على أكبر نحو من الأهمية ، وهى توليد الطاقة الكهربائية على أوسع نطاق ..

● الانفجار السكانى .. مشكلة المشاكل ..

وإذا كان الرى الدائم يؤدى حتما إلى وفرة وزيادة وتنوع المحاصيل الزراعية ، كما أن استغلال الطاقة الكهربائية فى التصنيع يؤدى إلى زيادة الإنتاج .. فقد كان من المتوقع بالتالى زيادة معدلات التنمية فى كل من مصر والسودان .. إلا أن هناك مشكلة جوهرية تجعل الوصول إلى تلك النتيجة أمراً بالغ الصعوبة .. وهى مشكلة الزيادة المُطّرَدَة فى السكان .

وتوصف المشكلة السكانية فى مصر بحق بأنها « انفجار سكانى » بالغ الخطورة والتأثير فى معدلات التنمية الإنتاجية .. ولنا أن نتصور أن علماء الحملة الفرنسية كانوا قد قدروا تعداد الشعب المصرى فى سنة ١٨٠٠م بنحو (٢,٥) مليون .. ثم ارتفع هذا التقدير إلى (٥) مليون فى سنة ١٨٥٠م .. ثم تم بعد ذلك عمل أول إحصاء سكانى على الأسس العلمية الحديثة فى سنة ١٨٩٧م حيث تبين أن عدد السكان قد قفز إلى (٩,٧٥) مليون .. ثم وصل العدد بعد ذلك إلى (١٩) مليون سنة ١٩٥٠ ثم إلى (٣٠) مليون سنة ١٩٦٦ ثم إلى (٣٦) مليون سنة ١٩٧٦ .. إلى أن وصل الآن إلى نحو (٥٣) مليون .. !!

ومعنى هذا أن الشعب المصرى يتضاعف عدده كل نصف قرن ، وهو معدل مروع ومخيف ، وإن كانت قد زادت حدته أكثر من ذلك فى السنوات الأخيرة .. !! .. هذه هى بحق المشكلة الأساسية التى تواجه معدل التنمية الإنتاجية فى مصر ..

وقبل أن نترك النيل المصرى لنواصل رحلتنا نحو الجنوب .. نشير إلى الآثار الرائعة الضخمة التى تركها قدماء المصريين على ضفاف النيل ذخراً للإنسانية ، وشاهداً على ما حققوه من نبوغ فى العلم والحضارة .. وقد كان من المتصور يوماً أن هذه الآثار البديعة ستختفى تحت مياه بحيرة السد العالى .. إلا أن العالم كله متمثلاً فى منظمة اليونسكو قد سارع لإنقاذ جميع المعالم الأثرية التى كانت منتشرة جنوب أسوان وأهمها معابد فيلة وكلابشه وأبوسمبل .. وهو أضخم وأفخم المعابد التاريخية على الإطلاق ..

ونوشك الآن على الخروج من حدود مصر الجنوبية متجهين صوب السودان .. لنرى اللقاء العظيم بين النيلين الأزرق والأبيض ..

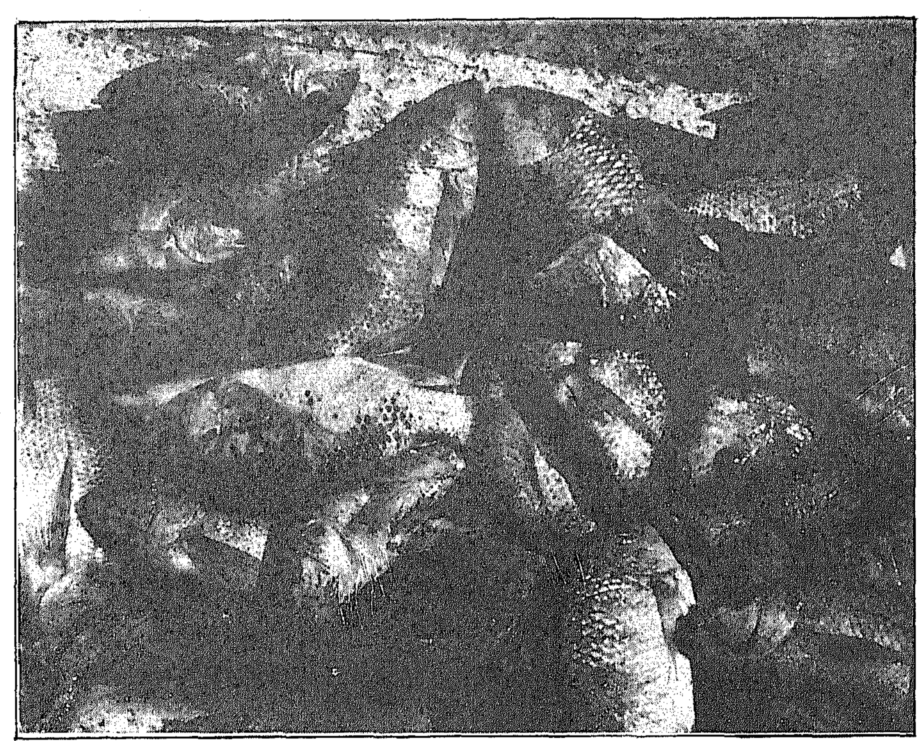
● مخزن البروتين .. غير المستغل ..

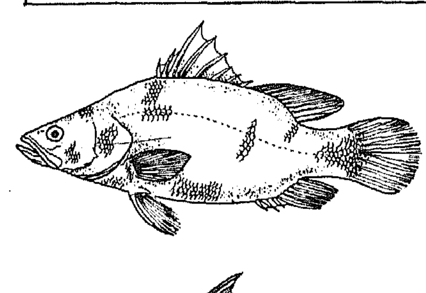
ومن أسوان سنصعد فوق ظهر إحدى البواخر النيلية لنجتاز بحيرة السد ، التى أصبحت الآن أكبر بحيرة لتخزين المياه العذبة من صنع الإنسان ، حيث تمتد جنوباً بغرب نحو (٥٠٠) كيلومترا ..

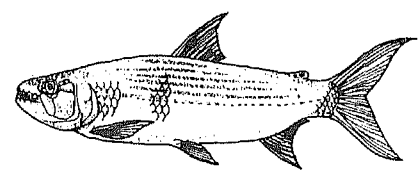
وفضلا عن مساحات الأراضى الصالحة للزراعة التى يمكن أن يتيحها وجود البحيرة فى الأراضى الصحراوية المحيطة بها .. فإن البحيرة نفسها تعتبر ــ بالمقاييس الاقتصادية ــ أكبر مخزن للبروتين الغذائى الذى يمكن أن يعتمد عليه شعب مصر وشعب السودان ..

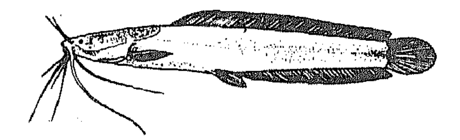
وقد بدأت بالفعل عملية استغلال البحيرة لصيد الأسماك وتصديرها إلى المدن المصرية فى الوجهين القبلى والبحرى .. إلا أن الاستغلال الأمثل والممكن لأسماك البحيرة لم يحدث حتى الآن .. وربما تكون هناك مشروعات لإنشاء أسطول صيد كبير ، وإنشاء ثلاجات التخزين والتوزيع ، وتدعيم مرافق النقل الصالحة لنقل البضائع المجمدة .. ولاشك أن مثل هذا المشروع الكبير لو اكتمل لأمكن حل جزء كبير من مشاكل نقص البروتين ــ اللحوم والطيور والأسماك ــ لملايين من السكان فى مصر والسودان ..

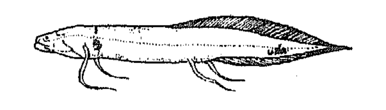
والحقيقة أن نهر النيل بأكمله يعتبر مصدراً غذائيا للشعوب التى تعتمد عليه وتعيش على ضفافه ، بما يتضمنه من مئات الأنواع من الأسماك الكبيرة والمتوسطة والصغيرة



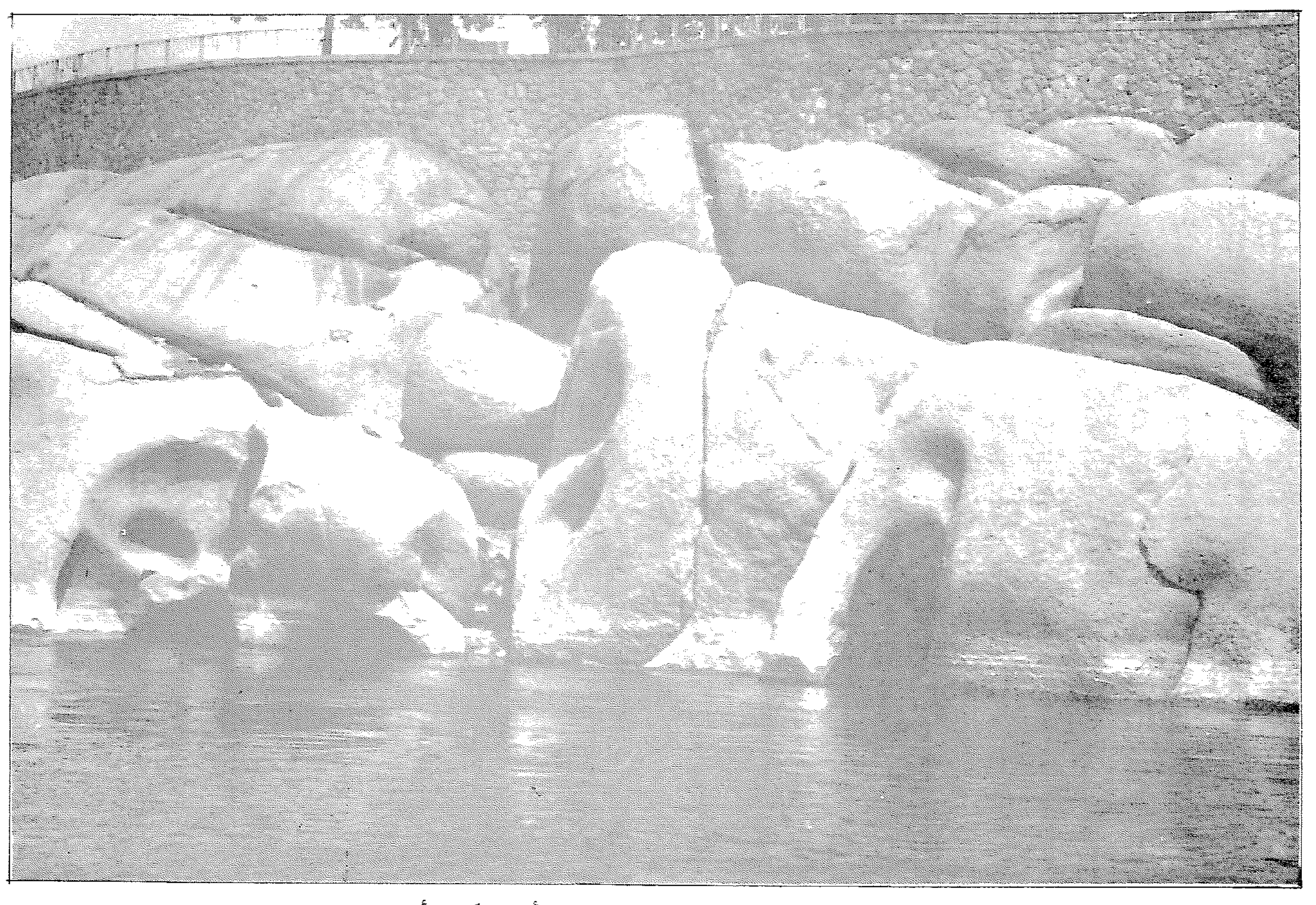








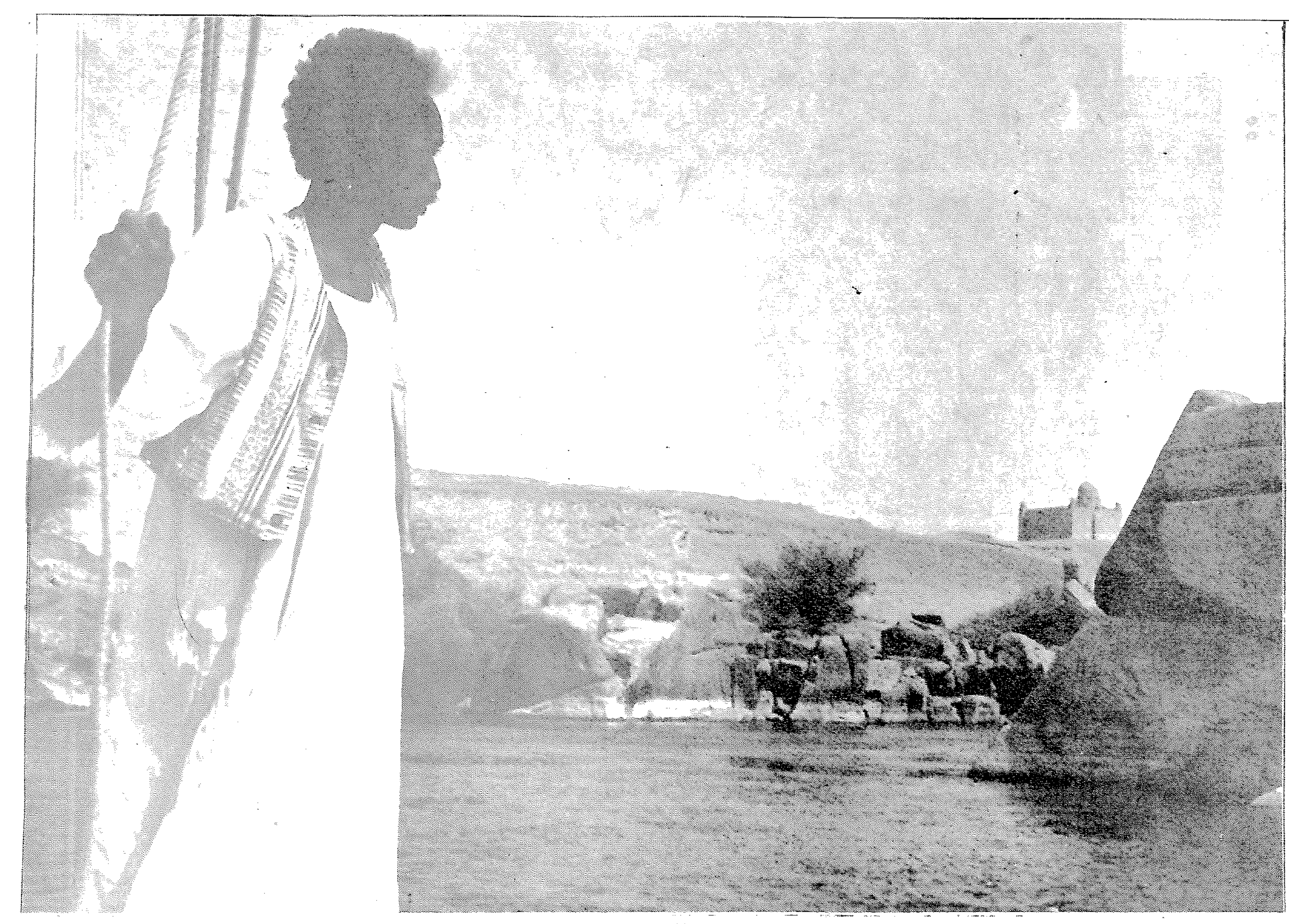
هناك عشرات الأنواع من الأسماك النيلية أشهرها [من أعلى إلى أسفل وحسب متوسط الطول] : سمك الفرخ ١٠٠ سم ـ سمك النمر ٥٠ سم ـ سمك القط ٥٠ سم ـ سمك رئوى ١٠٠ سم .



جزيرة إلفنتين باسوان .. حيث الصخور الجرانيتية تأخذ شكل الأفيال .



حديقة النباتات بأسوان .. من أجمل حدائق النباتات فى العالم .



ملاح نوبي قرب أسوان

والصالحة كلها للاستهلاك الآدمى .. وأهم هذه الأسماك البلطى والمكرونة وسمك الفرخ الذى يصل طوله نحو متر، وسمك القط [السَّلُّور ــ بفتح وتشديد حرفَىْ السين واللام] الذى يصل طوله نحو نصف متر، وأنواع أخرى من أسماك الثعابين والأسماك الرئوية التى يمكن أن تتنفس الهواء وتعيش مدفونة فى الطين دون حركة لفترة طويلة ..

● النوبيون .. فى مصر والسودان ..

هذه المسطحات المائية الواسعة التى تترامى إليها أطراف البحيرة ، كانت مأهولة من قبل بالقبائل النوبية .. وهم عناصر حامية قديمة اختلطت بالعرب من قديم الزمان ، وكانت تعيش على ضفاف النيل ومناطقه الجبلية والصحراوية ، فى منطقة واسعة من الأرض المصرية السودانية .. وكانت هذه المنطقة تنقسم إلى « النوبة السفلى » التى تمتد من أسوان حتى وادى حلفا ، و« النوبة العليا » بداخل الأراضى السودانية ..

وقد تمت عملية تهجير هائلة لجميع تلك القبائل قبل أن تبدأ عملية حجز المياه أمام السد لتكوين البحيرة .. ومن أجل ذلك خصصت مساحة كبيرة من الأراضى الزراعية بمنطقة « كوم امبو» الواقعة قرب أسوان لتوطين النوبيين الذين كانوا يعيشون فى النوبة المصرية ، كما خصصت مساحات مماثلة على ضفاف « نهر عطبرة » لتوطين النوبيين الذين كانوا يعيشون فى النوبة العليا بالأراضى السودانية ..

ومن الغريب أن جميع هذه القبائل النوبية قد احتفظت بلغتها الأصلية التى تسمى « الرّطان » إلى جانب استخدامها للغة العربية ..

ونهر عطبرة هذا يعتبر من أهم روافد نهر النيل .. و ينبع من شمال غرب الهضبة الحبشية ، ثم يمتد مجراه عبر مسافة قدرها (١١٢٥) كيلومترا بشمال شرق السودان إلى أن يتصل بالنيل جنوبى مدينة عطبرة و يصب مياهه فيه .. و يعتبر نهر عطبرة من أكثر الأنهار الحبشية طمياً ، وذلك بسبب كميات المياه الهائلة التى يجرى بها فى موسم فيضانه ..

و ينحنى النيل فى المسافة بين الخرطوم وأسوان عدة انحناءات تجعله يأخذ شكل حرف «S» فى اللغة الانجليزية .. ويهبط النيل فى المسافة بين هاتين المدينتين نحو (٢٨٣) متراً فى سلسلة متعاقبة من المندفعات والجنادل التى يطلق عليها خطأ اسم الشلالات .. وعددها ستة جنادل ..

• عاصمة النيلين ..

علينا إذن أن نركب أحد قطارات السكك الحديدية لنواصل الطريق صاعدين نحو الخرطوم حيث يلتقى النيلان الأبيض والأزرق ..

والخرطوم مدينة حديثة أنشأها المصريون فى سنة ١٨٢٢م على الضفة اليسرى للنيل الأزرق عند ملتقاه بالنيل الأبيض ..

ورغم حداثة عهد المدينة ، إلا أنها شهدت أحداثا تاريخية كبيرة .. كما كانت تعتبر محطة القيام بالرحلات الاستكشافية المتكررة التى تمت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر لاستكشاف منابع النيل الاستوائية ... وقد خربت المدينة تماماً أثناء الثورة المهدية ، حيث قام أنصار المهدى بالهجوم المباغت على جيش الاحتلال البريطانى وقتلوا الجنرال « جوردون » على سلالم قصره فى سنة ١٨٩٥ .

وقد أعيد تخطيط و بناء مدينة الخرطوم من جديد فى سنة ١٨٩٩ حيث قامت قوات الاحتلال البريطانى بقيادة « اللورد كتشنر» بالقضاء على الثورة المهدية ، وكان « ونستون تشرشل » مشتركا فى تلك المعركة كجندى صغير.. وقيل إن كتشنر قد رسم للمدينة تخطيطاً كروكيا على ظهر ظرف خطاب كان قد وصله .. وأنه أعطى للمدينة شكل العلم البريطانى بصلبانه المتقاطعة .. وهو المنظر الذى يمكن مشاهدته ليلاً من الطائرات التى تستعد للهبوط بمطار الخرطوم ، حيث تتلألأ مصابيح الشوارع المضاءة فى خطوط تشكل خطوط العلم ..

• مع النيل الأزرق حتى تانا ..

ومن الخرطوم علينا أن نتجه يساراً لنتتبع مجرى النيل الأزرق [حوالى ١٥٢٠ كيلومترا] من ملتقاه بالنيل الأبيض حتى منابعه من بحيرة « تانا » بمرتفعات الحبشة ..

وقد أطلق على هذا النهر الهادر اسم النيل الأزرق بسبب صفاء المياه الرائقة فى خلال فترة انخفاض النهر من شهر مارس حتى شهر يونيو من كل عام .. أما فى بقية أيام السنة ــ خصوصاً عندما يبلغ النهر ذروة فيضانه فى شهرى أغسطس وسبتمبر ــ فإن مياهه تتحول إلى اللون البنى المائل للاحرار، وذلك بفضل ملايين الأطنان من الطمى والتربة الجبلية التى ينحتها النهر خلال اندفاعه الهادر من المرتفعات الحبشية ..

وعلى امتداد نحو (١٥٠) كيلومترا صعوداً مع النيل الأزرق نصل إلى واد مدنى .. والأراضى الواقعة فى المسافة بين الخرطوم وواد مدنى والممتدة يساراً حتى يحدها النيل الأبيض تسمى «أرض الجزيرة» وهى من أخصب الأراضى الزراعية بالسودان .. و يزرع أغلبها بالقطن الذى يعتبر من المحاصيل الاقتصادية الرئيسية التى يصدرها السودان إلى مختلف دول العالم ..

ثم نصل بعد ذلك إلى «سنار» حيث شيد سد هائل للتحكم فى مياه النيل الأزرق وتوزيعها على الترع والقنوات التى تروى أراضى الجزيرة ..

وبعد نحو (٢٥٠) كيلومتراً أخرى نصل إلى سد «الروصيرص» .. وهو الخزان الثانى والأخير على النيل الأزرق، والذى يساعد كثيراً على التحكم فى فيضانات النهر، خصوصاً حينما تأتى عالية غزيرة .. وتتكون أمامه بحيرة واسعة ومستطيلة تمتد حتى حدود الحبشة ..

ومن هنا يصبح الصعود مع النيل الأزرق مشقة بالغة الصعوبة .. فالنهر يشق مجراه نحتاً فى صخور الجبال والمرتفعات .. ولذلك فالمجرى عبارة عن منحدرات نهرية سريعة ضيقة تحيط بها من الجانبين ضفاف عالية وأراض جبلية مغطاة بأعشاب كثيفة .. وهنا تكثر الحيوانات النيلية والأفريقية الشهيرة كأفراس النهر والتماسيح والأفيال والأسود والنمور والفهود ..

يمتاز النيل الأزرق فى هذه المنطقة بكثرة التعرج والمنحنيات التى تساعده على تجميع المزيد من مياه الهضبة الحبشية عن طريق الروافد والأنهار والنهيرات الصغيرة التى تمتد هنا وهناك متخللة سفوح الجبال ووديانها .. وأهم روافد النيل الأزرق نهر الدندر ونهر الرهد ..

وأخيراً نصل إلى المنبع الرئيسى للنيل الأزرق .. بحيرة «تانا» أو «تسانا» .. وهى أكبر بحيرات الهضبة الحبشية وترتفع عن سطح البحر بنحو ألفى متر، وتحيط بها سلاسل جبلية تعلو إلى ضعف هذا الارتفاع .. وتتجمع بها سيول الأمطار الغزيرة جداً التى تتساقط على المنطقة صيفا ..

وتصب فى بحيرة تانا مجموعة كبيرة من الأنهار والنهيرات القصيرة والتى تتميز بغزارة المياه .. وأهمها أنهار: ماجتسش .. ودامبرا .. ورب .. وجومارا ..

وتبلغ مساحة البحيرة نحو ٣٦٤٠ كيلومتراً .. كما تتميز بجزرها العديدة ..

أما النيل الأزرق فيخرج من جنوبها ، ولكنه يحمل اسماً محلياً هو « نهر أباى » .. وتحتفل الطبيعة بخروج النيل الأزرق من بحيرة تانا احتفالاً صاخباً .. فتسقط مياه النهر من ارتفاع شاهق عند حافة البحيرة وشلالات « تسيسات » .. وتسيسات معناها « النار الهادرة » باللغة المحلية .. وهو اسم مناسب تماماً لواحد من أعنف الشلالات فى العالم .. ومن هنا يبدأ النيل الأزرق رحلته الطويلة عبر مرتفعات الحبشة وسهول السودان لتصل مياهه إلى أقصى مناطق شمال الدلتا حتى البحر المتوسط ..

● مع النيل الأبيض حتى منطقة السدود ..

علينا أن نعود مرة أخرى إلى الخرطوم لنبدأ رحلتنا صاعدين جنوباً مع « النيل الأبيض » .. ووسيلة رحيلنا ستكون إحدى البواخر النيلية الشهيرة المجهزة بالرفاصات الجانبية الكبيرة والمغطاة بأكملها بشبكة مانعة لدخول الناموس والحشرات الطائرة القارصة الأخرى ..

وعلى بعد نحو (٥٠) كيلومتراً بعد مغادرة الخرطوم سنصل إلى سد « جبل الأولياء » .. وهو سد منخفض لأن الأرض أمامه منبسطة وقليلة الانحدار .. وتمتد المساحة التخزينية لهذا السد نحو (٥٠٠) كيلومترا حتى يلتقى النيل الأبيض بنهر « السوباط » .. وهذا النهر يعتبر من روافد نهر النيل حيث يمده بحوالى ١٤,٥ ٪ من حجم تصرف مياه النيل عند الخرطوم .. ويمتد السوباط نحو (٧٥٠) كيلومترا حتى يصل إلى منابعه فى المناطق المجاورة لبحيرة « رودلف » فى شمال كينيا .

وفى عصور ماقبل التاريخ ، كان نهر السوباط ينبع من بحيرة رودلف نفسها ، إلا أن التغيرات الجيولوجية والمناخية التى حدثت فى مناطق وسط وشرق أفريقيا ، قد فصلت الآن تماماً بين نهر السوباط وبحيرة رودلف التى أصبحت بلا مخرج .. ولذلك فقد أخذت هذه البحيرة فى التقلص ، كما أن مياهها تتميز بارتفاع نسبة أملاح الصودا لدرجة يصعب معها تقبلها كمياه صالحة للشرب ..

وبعد التقاء نهر السوباط بالنيل الأبيض تبدأ منطقة السدود .. وهى أكبر عقبة فى مجرى النيل ، حيث تترامى مساحات شاسعة جداً من المستنقعات والمسطحات المائية التى تتبدد فيها كميات هائلة من المياه القادمة من منابع النيل الاستوائية ..

وتقع منطقة السدود بحوض بحر الجبل وبحر الغزال .. وأرضها شديدة الاستواء ، الأمر الذى يساعد المياه على الفيضان خارج مجارى الروافد والأنهار والنهيرات الكثيرة التى تمد منطقة السدود بالمياه .. وظلت هذه المنطقة سداً منيعاً ضد تقدم أى مستكشف للمنابع الاستوائية للنيل منذ أيام قدماء المصريين حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ..

وهذه المستنقعات والمسطحات المائية ليست مكشوفة تماماً ، وإنما أغلبها مغطاة بمساحات هائلة من الجزر النباتية العائمة التى تطفو فوق سطح المياه بكثافة لانظير لها فى أى مكان آخر فى العالم .. لدرجة أن الحيوانات الضخمة والكبيرة تستطيع أن تمشى أو تعيش فوقها .. وتتكون هذه النباتات العائمة فى الغالب من البردى والبوص ونبات يسمى أم الصوف ..

وبرغم أن منطقة السدود تعادل فى مساحتها مساحة انجلترا، فإنها تتميز بقلة السكان حيث تعيش فى نواحى متفرقة قبائل صغيرة من الشعوب النيلية التى تعتمد فى حياتها على صيد الأسماك والرعى ..

أما السكان الحقيقيون لهذه المنطقة فهم مجموعة هائلة من أنواع الحيوانات والزواحف والطيور .. وقد تكون هذه الحيوانات والزواحف مختفية داخل هذه الكثافات العشبية .. أما الطيور فهى أكثر مايظهر من مظاهر الحياة فى تلك المنطقة ، حيث تعيش الملايين من الطيور المختلفة ، وأهمها اللقلاق ومالك الحزين والبلشون الأبيض (ابن الماء) والغاق وهو طائر ضخم نهم له جراب جلدى تحت منقاره يحفظ فيه مايصيده من أسماك .. كما أن هناك العديد من أنواع البجع والتم والأوز العراقى ..

وكانت منطقة السدود مسدودة تماماً أمام أى شكل من أشكال الملاحة النهرية .. إلى أن تم اختراقها بتمهيد ممرات للمراكب ، وذلك بشق هذه الممرات أو بإحراق خط من الأعشاب يسمح بالمرور.

وفى منطقة السدود تتبدد نسبة كبيرة جداً من مياه نهر النيل القادمة من المنابع الاستوائية .. فهى تمتص المياه كالإسفنج كما تقوم بتبخير المياه عن طريق تنفس النباتات والأعشاب التى تغطيها .. لذلك فإن شق قناة « جونجلى » يعتبر من أهم المشروعات الهندسية الكبرى للتحكم فى مياه النيل وإنقاذ المياه بإبعادها عن منطقة السدود .. وهذا يؤدى إلى توفير المزيد من مياه الرى لكل من السودان ومصر..

ونظراً لأن السدود تقع بأكملها فى المنطقة المدارية بافريقيا ، فإن الأراضى المحيطة بها تتميز بكثرة الأعشاب و يعيش فيها مئات الأنواع من الحيوانات وأهمها قطعان الأفيال والجاموس والخرتيت والكركدن وحيد القرن ، وأنواع كثيرة من الظباء والغزلان والزراف والقرود والبابون .. كما تنتشر بها أيضا بعض الوحوش كالأسود والنمور والفهود الصيادة ..

● بحر الغزال .. بحر الزراف .. بحر الجبل ..

تحصل منطقة السدود على مياهها من مجموعة كبيرة من الروافد والأنهار والنهيرات القادمة إليها من كل اتجاه على نحو التقريب .

من الغرب يجرى إليها « بحر الغزال » .. وهو عبارة عن مجموعة نهرية تنحدر من خط تقسيم المياه بين نهرى الكونجو والنيل .. وتجرى فى حوض تبلغ مساحته نحو (٥٢٦٠٠) كيلومترا مربعاً .. و يطلق اسم بحر الغزال على مجرى النهر من مشروع الرق حتى يصب فى بحيرة « نو» . و يتكون بحر الغزال من عدة روافد نهرية صغيرة أهمها : الرهل والمريدى والجود والتونج واللول وبحر العرب ..

وفى حوض بحر الغزال يعيش شعب متميز من الشعوب النيلية ، يتكون فى عمومه من قبائل الدنكا ، وهم عناصر [زنجية ــ حامية] تنتشر فى حوض بحر الغزال وحتى المناطق الشرقية من ضفاف النيل الأبيض ، و يعيشون على رعى البقر ، و يتجولون بالقطعان فى خلال فصل الجفاف فى السهول المنخفضة .. وفى فصل الأمطار يتجمعون فى الأراضى المرتفعة حيث يزرعون الذرة الرفيعة والسمسم والفول السودانى ، ويجمعون محصولاً كبيراً من عسل النحل والأخشاب ..

أما من جهة الشرق .. فيجرى « بحر الزراف » قادماً من الجنوب ، وموازيا تقريباً لمجرى « بحر الجبل » الذى يقع على يساره ..

وبحر الزراف يعتبر من روافد النيل ، و يلتقى بالمجرى الرئيسى لنهر النيل شرق بحيرة « نو» .. و يبلغ طوله نحو (٢٩٠) كيلومترا ..

أما « بحر الجبل » فهو جزء من المجرى الرئيسى لنهر النيل ، وهو الامتداد الجنوبى لمجرى النيل الأبيض ، و يطلق اسم بحر الجبل على مجرى النهر فى طول المسافة منذ التقائه « بنهر السوباط » حتى « نيمولى » بأقصى الحدود الجنوبية للسودان .. ثم يستمر المجرى

الرئيسى بعد ذلك باسم « نيل ألبرت » الذى يخرج من بحيرة ألبرت ، ثم باسم « نيل فيكتوريا » الذى يخرج من بحيرة فيكتوريا ..

وبحر الجبل نهر يجمع بين صفة البطء فى الجريان إلى جانب صفة الجريان العنيف فى بعض مناطقه ، حيث تكثر الجنادل والشلالات .. ولا يقتصر مجراه على مجرى واحد ، وإنما تتصل به مجموعة كبيرة من الروافد والنهيرات ، بعضها ماؤه دائم الجريان .. وبعضها لايجرى فيه الماء إلا فى موسم الأمطار ..

● منابع النيل .. كانت أسراراً مغلقة ..

من أين يأتى النيل بكل هذه المياه .. ؟!

ظل هذا السؤال يتردد لآلاف السنين دون إجابة صحيحة مؤكدة .. ووصل الأمر إلى نسج الأساطير وإطلاق الخرافات .. فبعض الأساطير كانت تقول إن هذه المياه الوفيرة التى يجرى بها النهر ، هى دموع إيزيس التى تذرفها حزناً على مصرع أوزيريس زوجها الحبيب .. كما أن بعض الخرافات التى ذكرها هيرودوت ــ نقلاً عن أحد الموظفين المصريين المخرفين ــ تقول إن النيل ينبع من عين بجزيرة فيله بأسوان ، ويشق له مجريين ، يتجه الأول شمالاً إلى الوجهين القبلى والبحرى ، ويتجه الثانى جنوباً إلى بلاد النوبة .. وهو رأى واضح الفساد ، لأن قدماء المصريين ــ ولهم فى ذلك إثباتات عديدة ــ يعرفون جيداً أن النيل فى بلاد النوبة يجرى من الجنوب إلى الشمال وليس العكس كما جاء بالخرافة التى ذكرها هيرودوت .

وقد سجل قدماء المصريين رحلاتهم صعوداً فى مجرى النيل حتى وصلوا إلى موقع التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق .. بل ووصلوا أيضا إلى مناطق السدود بعد التقاء النيل بنهر السوباط .. حيث حالت المستنقعات دون تقدمهم بعد ذلك نحو الجنوب ..

وبعد نحو (٦٦) سنة من ميلاد المسيح ، أرسل الامبراطور الرومانى « نيرون » اثنين من ضباطه ليتتبعا مجرى النيل جنوباً حتى منابعه .. ولكن هذه الرحلة انتهت أيضا عند منطقة السدود حيث يستحيل التقدم ..

ولكن المدهش هو العثور على خريطة قديمة للعالم يرجع تاريخها إلى عام (١٥٠) ميلادية .. رسم عليها نهر النيل من مصبه في البحر المتوسط حتى منابعه فى أقصى الجنوب عند منطقة جبال القمر .. وهى « خريطة العالم لبطلميوس » ..

وبطلميوس هذا ليس واحداً من البطالمة الذين توارثوا حكم مصر بعد وفاة الاسكندر الأكبر، وإنما هو « كلوديوس بطلميوس » العالم اليوناني المصرى الذى ولد ونشأ بالاسكندرية فى القرن الثانى الميلادى .. وهو عالم فى الفلك والجغرافيا والرياضة والطبيعة والتاريخ .

وبطبيعة الحال لم تكن خريطة بطلميوس صحيحة أو مطابقة للخرائط الحالية المعمول بها الآن .. ولكن وجه الغرابة فى أنها أوضحت أن النيل يوغل فى أقاصى الجنوب حتى يصل إلى منابعه من « جبال القمر » التى تغطيها ثلوج لا تذوب أبداً .. وأن هذه الجبال مرسومة فى منطقة قريبة جداً من « جبال رونزورى » الواقعة بين بحيرة ألبرت وبحيرة إدوارد .. كذلك أوضحت الخريطة أن النيل أيضا يتغذى بعدد كبير من الأنهار والروافد التى تصب فيه مياه البحيرات التى تنبع منها .. وهو أمر ـــ من الناحية النظرية ـــ شديد القرب للحقيقة ..

ومن المؤكد أن هذه الخريطة لايمكن أن تكون اجتهاداً تخيلياً من بطلميوس ، بل لابد أنها ترجع إلى أصل أو أصول قديمة .. ورثها العصر البطلمى فى مصر من العصر الفرعونى الذى سبقه ..

● الذين وصلوا إلى منابع النيل ..

ومر نحو ١٧ قرنا من الزمان بعد أن رسم بطلميوس خريطته ، ظلت فيها منابع النيل الحقيقية من الطلاسم المغلقة التى لايعرفها أحد ولم يَسْعَ إليها أحد .. حتى عام ١٧٧٠م حين اكتشف « جيمس بروس » منابع النيل الأزرق ..

وهو عالم آثار اسكتلندى تخصص فى فحص الآثار الرومانية الموجودة فى تونس وليبيا بشمال أفريقيا .. ثم جذبه سر النيل فسافر فى البحر الأحمر حتى « مصوع » ومنها اتجه إلى مدينة « غندار » التى كانت عاصمة للحبشة آنئذ .. ووصل إلى بحيرة تانا التى ينبع منها النيل الأزرق .. ثم انحدر هابطا مع مجرى النهر الطويل حتى وصل إلى ملتقاه بالنيل الأبيض وانطلاق النيلين بعد ذلك شمالاً فى نيل واحد ..

أما النيل الأبيض ، فقد ظلت سدوده ومستنقعاته تحدياً يحول بين المستكشفين ومنابعه حتى عام ١٨٥٧م ، حين قام « سير ريتشارد بيرتون » مع « كابتن جون سبيك » ـــ وهما



أقدم خريطة لنهر النيل .. رسمها بطلميوس الجغرافى سنة ١٥٠ م، ويظهر فيها النيل من مصباته حتى منابعه فى «جبال القمر» ..



من مستكشفى منابع النيل : چيمس جرانت
[جالساً] وبجواره چون سبيك



سير ريتشارد بيرتون من مستكشفى منابع النيل .. فى
هذا الزى تخفى وتسلل إلى مكة سنة ١٨٩٥م .

من المستكشفين الانجليز ـ بعمل رحلة تحاشيا فيها عبور منطقة السدود والمستنقعات ، فبدآها من شرق أفريقيا فى اتجاه الغرب للوصول إلى وسط وقلب أفريقيا ...

وكانت هذه الفكرة نتيجة لما ذكره بعض التجار العرب فى جزيرة زنجبار بشرق افريقيا ، والذين كانوا يتوغلون غرباً فى داخل القارة وفى قلبها الاستوائى بحثا عن العاج .. فقد ذكر بعض هؤلاء التجار أنهم شاهدوا النيل ينبع من بحيرات واسعة جداً ومن جبال عالية جداً تغطيها الثلوج طول العام .

ووصل هذان المستكشفان إلى « بحيرة تنجانيقا » .. فاعتقد ريتشارد بيرتون أنها منبع النيل .. ولكن سبيك لم يوافقه على ذلك ، فافترقا عن بعضهما ، وعاد بيرتون إلى لندن ليقول إنه اكتشف منابع النيل فى المنطقة الاستوائية .. أما سبيك فقد واصل الرحلة داخل افريقيا وحده .. واتجه نحو الشمال حتى وصل إلى الحدود الجنوبية لبحيرة واسعة جدا سماها « بحيرة فيكتوريا » على اسم ملكة انجلترا آنئذ .. وصمم سبيك على أن هذه البحيرة هى منبع النيل الأول .. ولكن من أين يخرج منها النيل ويولد ؟ ! .. كان لابد لمعرفة ذلك من القيام برحلة أخرى لابد من تدبيرها على نحو أفضل ..

وفى لندن استطاع سبيك أن يدبر رحلة لكشف منابع النيل من بحيرة فيكتوريا ، اشترك معه فيها المستكشف « جيمس جرانت » .. وبعد مصاعب ومخاطر شديدة استطاع هذان المستكشفان أن يدورا حول البحيرة إلى أن عثرا على مخرج النيل منها هابطا من شلال ، ومنحدراً بعد ذلك فى مجرى واسع سمياه نيل فيكتوريا ..

وكان لهذا الاكتشاف صدى فى المحافل العلمية فى لندن .. وقامت هذه المحافل بإعداد مناظرة بين « بيرتون » الذى يقول إن النيل ينبع من بحيرة تنجانيقا .. و« سبيك » الذى اكتشف أن النيل ينبع من بحيرة فيكتوريا .. ولكن سبيك لم يستطع حضور هذه المناظرة بسبب مقتله بالرصاص فى إحدى الحوادث .. وأثبت الزمن أن نظرية سبيك هى الصحيحة .. وأن نظرية بيرتون قد جانبها الصواب ..

• البحيرات الأفريقية العظمى ..

ها نحن أخيراً فى منطقة منابع النيل الاستوائية التى ظلت من المجاهل المغلقة لآلاف السنين .. ولكنها الآن أصبحت معلومة تماماً وعلى اتصال مستمر مع العالم الخارجى ..

لقد تغير الحال كثيراً عما كان موجوداً أيام استكشاف تلك المناطق جغرافيا .. لقد انقسمت تلك المناطق الآن إلى دول افريقية مستقلة هى : أوغندا وتنزانيا وكينيا .. وهى الدول التى تحيط ببحيرة فيكتوريا وحدها .. أما منطقة بحيرتى ألبرت وادوارد ونهر كاجيرا ، فتحيط بها زائير ورواندا وبوروندى ..

وشعوب البانتو التى تقطن هذه المناطق تطلق اسم « نيانزا » على كل بحيرة من هذه البحيرات .. فكلمة نيانزا معناها بحيرة .. ومن الطبيعى أن هذه البحيرات كانت مسماة بأسماء محلية قبل أن تطلق عليها أسماء فيكتوريا نيانزا وألبرت نيانزا وادوارد نيانزا إلى آخر أسماء بعض أفراد من العائلة المالكة البريطانية ..

وفى الفترة الأخيرة أطلق اسم الرئيس « موبوتو » على بحيرة ألبرت رغم أن نصف مساحتها فقط يقع فى حدود زائير ونصفها الآخر يقع داخل حدود أوغندا .. كما أطلق « عيدى أمين » اسمه على بحيرة ادوارد .. ولاندرى بماذا سميت بعد الإطاحة بحكمه ..

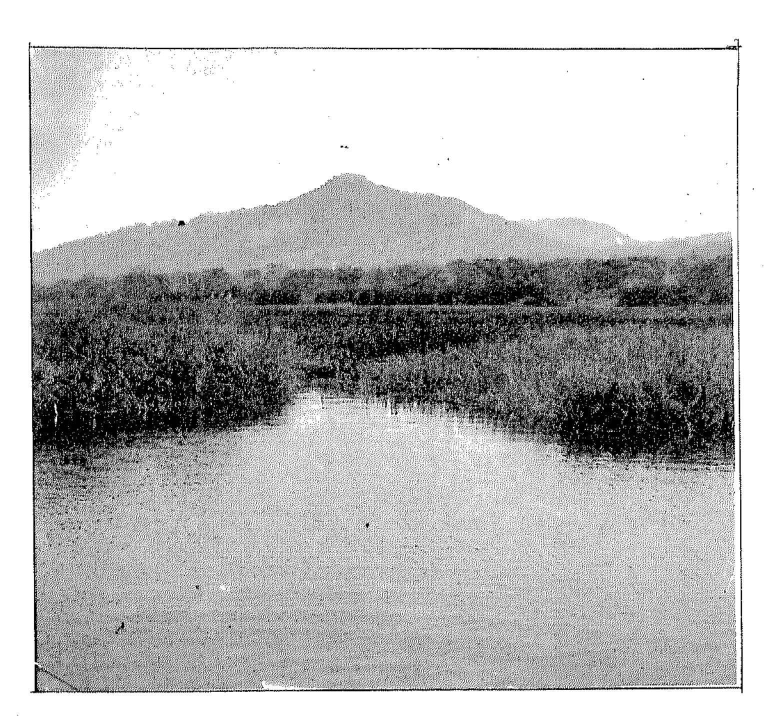
وعلى أية حال فإن هذه البحيرات أو « النيانزات » الثلاث بالإضافة إلى بحيرة رابعة هى « بحيرة كيوجا » هى الخزانات الطبيعية الهائلة والمستديمة ، التى تغذى النيل بالمياه المتدفقة من قلب افريقيا ..

وتبلغ مساحة فيكتوريا نيانزا حوالى (٧٠) ألف كيلومترا مربعاً — أى نحو مساحة ايرلاندا بأكملها — وتعتبر أكبر البحيرات العذبة فى العالم بعد بحيرة « سوبيريور » الأمريكية التى تزيد عنها قليلاً من ناحية المساحة . و يبلغ طول البحيرة حوالى (٤٠٠) كيلومترا وعرضها حوالى (٢٤٠) كيلومترا وترتفع فوق سطح البحر بنحو ١١٣٦ مترا . ويخرج منها نهر النيل من شاطئها الشمالى باسم نيل فيكتوريا عند مدينة « جينجا » بأوغندا ، حيث أنشىء خزان هائل عند شلالات « أوين » يستخدم فى توليد الطاقة الكهربائية التى تستهلكها أوغندا والتى تصدر الفائض منها إلى كينيا ..

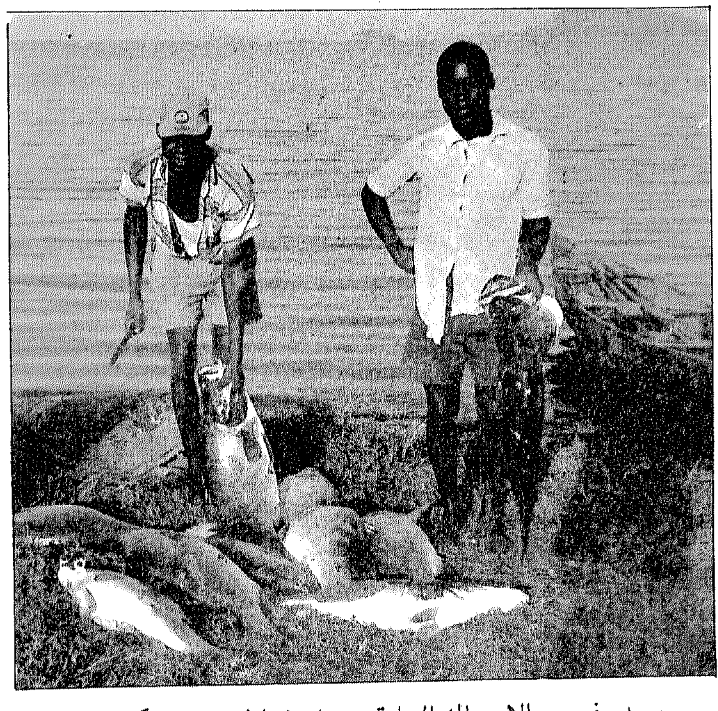
معنى ذلك أن هذا النهر العظيم الذى يعطى الخيرات لكل الشعوب التى تعيش على ضفافه يثبت أنه منذ لحظة ميلاده فعال للخير قادر على العطاء .. فعلى هذه الطاقة الكهربائية تعتمد أوغندا فى تصنيع منتجاتها الزراعية وأهمها القطن .. فقد أنشأت العديد من مصانع غزل ونسيج القطن الأوغندى .. ومن قبل كانت هذه الأقطان تصدر خاماً إلى انجلترا لتعود إلى أوغندا وغيرها فى شكل أقمشة وثياب ..



سيدة من قبائل البانتو، بسوق للفواكه والخضروات قرب بحيرة ڤيكتوريا



بحيرة كيوجا ..



صيد وفير من الاسماك النيلية .. على شواطىء بحيرة كيوجا ..

وتستمد بحيرة فيكتوريا مياهها من الأمطار المباشرة ومن العديد من النهيرات والأنهار الصغيرة .. ولكن « نهر كاجيرا » يعتبر من أكبر الأنهار التى تصب مياهها فى هذه البحيرة . و يبلغ طوله نحو ٦٤٣ كليومترا ، و ينبع من الجبال والمرتفعات الواقعة غرب رواندا و بوروندى عند خط عرض (٤) جنوب الاستواء .. وهوبذلك يعتبر أبعد نقطة يستمد منها النيل مياهه .. و يستمر نهر كاجيرا فى التدفق عبر أراضى تانزانيا حتى يصب أخيراً فى الشاطىء الغربى لبحيرة فيكتوريا ..

ويخرج نيل فيكتوريا من البحيرة بعد سقوطه من شلالات أوين .. ثم يتسع مجراه رويداً إلى أن يدخل منطقة واسعة من المستنقعات والمسطحات المائية تسمى « بحيرة كيوجا » التى تكثر فيها التماسيح وأفراس النهر، والتى تعتبر أيضا مخزناً هائلاً للثروة السمكية ..

و يواصل نيل فيكتوريا طريقه عبر بحيرة كيوجا ليخرج منها هادراً فى عديد من المنحدرات النهرية السريعة التى تنتهى « بشلالات مرشيزون » .. ومن هذه الشلالات يخرج النيل ليواصل طريقه نحوالشمال .. ساقطاً من ارتفاع حوالى (٤٦) مترا ومن خلال فتحة جبلية ضيقة جداً يستطيع أحد الرياضيين أن يقفزها عابراً من شاطىء لشاطىء ..

وتعتبر شلالات مرشيزون حاجزا طبيعيا يحول دون انتقال نوعيات الأسماك التى تعيش فى بحيرة فيكتوريا وبحيرة كيوجا إلى البحيرات الأخرى [ألبرت وادوارد] وإلى مجرى النيل نفسه .. وهناك نحوثمانين نوعاً من الأسماك الصغيرة والمتوسطة تعيش فى بحيرتى فيكتوريا وكيوجا ولا يوجد مثيل لها فى نهر النيل بل ولا فى أى مكان آخر من العالم ..

ومن هذه الشلالات يستمر مجرى نيل فيكتوريا إلى أن يدخل بحيرة ألبرت .. ثم يخرج منها باسم آخر هو « نيل ألبرت » .. و يظل حاملاً نفس الاسم إلى أن يدخل حدود السودان الجنوبية عند نيمولى فيطلق عليه اسم بحر الجبل ..

وبحيرة ألبرت .. أو « ألبرت نيانزا » تعتبر « المحولجى » الرئيسى لمياه منابع النيل الاستوائية .. ففيها تتجمع المياه الواردة إليها من بحيرتى فيكتوريا وكيوجا .. والمياه الواردة إليها أيضا من بحيرة ادوارد والتى تتدفق إليها عبر مجرى نهر « سمليكى » الذى يخرج من بحيرة ادوارد و يصب فى بحيرة ألبرت منحدراً نحو (١٠٠) متر هى الفرق فى الارتفاع بين

البحيرتين .. وتبلغ مساحة ألبرت نيانزا حوالى ٥٣٦٦ كيلومترا مربعاً وترتفع عن سطح البحر بنحو ٨١٦ مترا ومتوسط عمقها نحو ١٢ مترا ..

أما بحيرة ادوارد .. أو « إدوارد نيانزا » فهى صغيرة لا تتجاوز مساحتها ٢٢٠٠ كيلومترا مربعاً ، وترتفع عن سطح البحر بنحو ٩٢٦ مترا .. و ينحدر منها نهر السمليكى بطول نحو ٢٥٠ كيلومترا حتى يصب فى بحيرة ألبرت ..

● النيل .. والإنسان الأول ..

والآن ونحن نقف عند المنابع الاستوائية لنهر النيل .. لنتخيل تلك الرحلة الشاقة الطويلة التى يقطعها هذا النهر العظيم حتى يصل إلى شواطىء البحر المتوسط بشمال شرق افريقيا .. حيث يعيش المصريون أصحاب أقدم وأنضج حضارة عرفها العالم ..

وهناك حقيقة علمية مذهلة اكتشفت حديثا [سنة ١٩٧٦] قد تؤدى إلى انقلاب فى النظريات العلمية التى تناولت نشأة وظهور الإنسان على وجه الأرض ..

فقد اكتشف أحد علماء الأنثروبولوجي ــ علم دراسات الإنسان ــ وهو الدكتور لويس ليكى ومعه زوجته مارى وابنه ريتشارد ، وهما من علماء الانثروبولوجى أيضا .. تلك الحقيقة العلمية التى ستؤدى إلى إعادة النظر فى كثير من النظريات العلمية المستقرة .. فقد عثر هؤلاء العلماء على عظام بشرية متحجرة لإنسان ماقبل التاريخ .. وذلك فى مكان بجوار بحيرة رودلف بكينيا .. وهو مكان قريب جداً من منابع النيل الاستوائية ..

وبفحص هذه العظام بواسطة القياس الإشعاعى .. تبين أن عمر هذه العظام يرجع إلى نحو مليونين ونصف مليون سنة ! .. فهل معنى ذلك أن الإنسان الأول عاش وتطور فى هذه المنطقة .. ومنها خرج أبناؤه وأحفاده ليـنتشروا فى جميع أنحاء الأرض مكونين الأجناس البشرية المختلفة التى تعيش فى عالم اليوم .. ؟ !

هكذا تقول أحدث الأبحاث العلمية .. !

• تعقيب

وبعد هذا العرض المركز الذى أجملت فيه مختصراً لكل ماورد فى كتاب « الدكتور بارتون ورثنجتون » من معلومات عن نهر النيل .. أستأذن القارىء فى التعقيب بهذا البحث الطريف عن موضوع طريف يتعلق « بعروس النيل » .. فهل هى حقيقة كانت قائمة بالفعل .. أم خرافة جرت بها الأقوال وتسربت إلى كتب التاريخ والأساطير والحكايات الشعبية .. وهل كان المصريون حقا يلقون بناتهم فى النيل .. ؟ !

نقول بداءة أنه مامن نهر فى الدنيا قامت بينه وبين الناس الذين يعيشون عليه علاقة حميمة كنهر النيل !

هذه العلاقة الغريبة بين الناس والنهر، كانت ذات طابع حضارى رفيع .. هو الوفاء المتبادل .. وفاء من النهر إلى الناس .. ووفاء من الناس إلى النهر.

• النهر المعلم ..

منذ آلاف السنين .. حين سكن المصريون أرض شمال وادى النيل .. وهم يشتركون مع النهر فى صنع الحضارة .. وكان النهر هو معلمهم الأول ، وله عليهم كل الأفضال ..

النيل .. هو الذى علم المصريين معنى الاتحاد لمواجهة الخطر أولاغتنام الخير .. علمهم معنى « الوحدة » والتماسك والتآزر كشعب متميز من الناحية الحضارية .. كما علمهم الزراعة التى كانت ومازالت أهم اكتشاف فى حياة بنى الإنسان ..

ومن أجل الزراعة تعلم المصريون الكتابة والحساب والهندسة والفلك وعلم قياس الأرض ..

وفيضان النيل هو الذى علمهم أن السنة تتكون من ٣٦٥ يوماً وربع يوم .. وأنها مقسمة أيضا إلى فصول ثابتة تتكرر كل عام ..

وفيضان النيل فى كل عام هو المعنى الذى تجلت فيه فكرة « الوفاء » .. وفاء من النهر بوعده فى نشر الخير العميم فى ربوع الوادى .. وبأنه قادم بالمياه التى تروى ظمأ الأرض وظمأ الناس .. وبالطمى الذى يخصب الأرض ويمنحها المزيد من القوة والقدرة على العطاء ..

وكان على المصريين أن يظهروا بدورهم « وفاءهم » للنهر الذى جاء لهم بكل هذه الخيرات .. فكانوا يقيمون الاحتفالات مبتهجين .. و ينشدون مئات من الأغانى وقصائد الأشعار..

● أقدم عيد فى العالم..

وكانت هذه الاحتفالات من الأهمية والشمول بحيث كان يحضرها الملك بنفسه .. كما تحضرها أيضا الأسرة الملكية ورجال الدين ورجال الحكومة والمثقفون والكتبة والفلاحون والصناع وكل طبقات وطوائف الشعب الاخرى ..

وغالبا ما كانت تقام الاحتفالات الرئيسية الرسمية فى منطقة « جبل السلسلة » التى تقع بين الأقصر وأسوان .. كما كانت تقام احتفالات رسمية وشعبية أخرى فى كافة الأقاليم المصرية يشترك فيها الشعب مع مندوبى الملك الذين كان يرسلهم أويكلفهم بالحضور نيابة عنه ..

ونظراً لضخامة تلك الاحتفالات وتكرارها سنويا عبر آلاف طويلة من السنين .. فقد أصبحت عادة مصرية لم يكن من السهل التخلى عنها فى أى عصر من العصور التى تألبت وتوالت على تاريخ مصر وشعبها منذ فجر التاريخ وحتى الآن ..

ومعنى هذا أن الاحتفال بوفاء النيل يعتبر من أقدم الأعياد التى ظلت قائمة عبر آلاف السنين .. وليس هناك عيد آخر استمر قائما مثل هذه المدة الطويلة فى أى مكان فى العالم وبين أى شعب من شعوب الأرض ..

● خرافة .. عروس النيل !

هذا التميز لعيد « وفاء النيل » جعله مثل الأساطير التى تتوارثها الأجيال المتعاقبة جيلاً بعد جيل .. مع كل ماتتضمنه الأساطير ــ فى بعض الأحيان ــ من لامعقول وخرافات ..

وأهم الخرافات التى أشيعت عن علاقة المصريين بالنيل .. أنهم كانوا يلقون إليه كل عام بعروس بكر جميلة ، مزدانة بأفخر الحلى والثياب ، و يزفونها إليه بإلقائها حية فى اليم ، لتبتلعها مياه النهر، وليأخذها النيل بين أحضانه .. وكانت هذه المراسم تتم على دقات الطبول وإنشاد الأغانى وكل مظاهر الابتهاج والفرح ..

فما هى حقيقة هذه الخرافة .. وكيف ظهرت هذه الأكذوبة لأول مرة .. ؟ !

• المسئول .. ونص الخرافة ..

أبوالقاسم عبدالرحمن بن عبدالحكم ، الذى مات سنة ٨٧١ ميلادية ، أى منذ ١١١٧ سنة .. كان فقيها عظيما ومؤرخاً عربياً كبيراً .. كتب « أقدم » مؤلف وصل إلينا عن تاريخ مصر الإسلامية . وهو « فتوح مصر والمغرب » ..

قال ابن عبدالحكم :

[لما فتح عمروبن العاص مصر، أتى أهلها إلى عمرو حين دخل شهر بؤنه .. فقالوا له : أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لايجرى إلا بها . فقال لهم : وماذاك ؟ .. قالوا : إنه كلما جاءت الليلة الثانية عشرة من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر من أبويها ، فأرضينا أبويها ، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل مايكون ، ثم ألقيناها فى النيل ..

فقال لهم عمرو: هذا لايكون فى الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ماقبله .. فأقاموا شهور بؤنه وأبيب ومسرى والنيل لايجرى قليلاً ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء ..

فلما رأى عمرو ذلك ، كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بذلك ، فكتب إليه عمر أن قد أصبت ، إن الإسلام يهدم ماكان قبله ، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها فى النيل إذا أتاك كتابى . فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها :

« من عبدالله أمير المؤمنين إلى نيل مصر. أما بعد . فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك .. »

فألقى عمرو البطاقة فى النيل ، وكان أهل مصر قد تهيأوا للجلاء والخروج منها ، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل .. وأصبحوا وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً فى ليلة واحدة .. !] .

هذه هى الحكاية بالضبط .. وهذا هو أول نص مكتوب يذكر هذه الخرافة .. !

● أكذوبة عاشت ألف سنة .. !

ونقول إنها خرافة أو اكذوبة طبقا للأسباب والتحليلات التى سنذكرها فيا بعد ، رغم احترامنا لشخصية ابن عبدالحكم كمؤرخ للفتوحات الاسلامية .. أما تقديرنا له فيا يتعلق بهذه الخرافة ، فإنه إما أن يكون قد جانبه التوفيق فنقل أكذوبة على أنها حقيقة واقعة .. وإما أن يكون له غرض معين بإطلاق هذه الفرية على المصريين ..

ومن المؤسف أن جميع المؤرخين الذين جاءوا بعد ابن عبدالحكم وتناولوا بعض الموضوعات المتعلقة بالواقعة التى ذكرها ابن عبدالحكم قبلهم ، قد ذكروا هذه الفرية وكرروها على أنها معلومة تاريخية نقلاً عما كتبه ابن عبدالحكم ، سواء بإسنادها إليه مباشرة أو بذكرها دون إسناد كما لو كانت حقيقة واقعة .. !

ومن المؤرخين العرب الذين أرخوا لمصر الإسلامية ، ونقلوا عن ابن عبدالحكم : المقريزى والكندى وابن تغرى بردى والقضاعى وابن دقماق والسيوطى و ياقوت وابن إياس ..

وقد ظلت هذه الخرافة تروى على مدى أكثر من ألف سنة منذ أن قيلت حتى الآن ، لدرجة أن أحمد شوقى قد ذكرها فى قصيدته الشهيرة عن « النيل » كما لو كانت شيئا مسلماً به كان يحدث عبر آلاف السنين : « **فى كل عام درة تهدى إليك وحرة لا تُصْدَق** » إلى آخر ماجاء بالقصيدة تصديقا لتلك الخرافة ..

● دلائل الكذب والتحريف ..

هناك أكثر من دليل قاطع على كذب هذه الخرافة .. وقد تناولها وفندها الكثيرون من المؤرخين المصريين والأجانب الذين أثبتوا ببراهين دامغة ، أن هذه الحكاية لا تستند إلى أى أساس ، وأنها مجرد أكذوبة أوخرافة من الأكاذيب والخرافات التى أطلقها بعض المؤرخين القدماء عن الحضارة المصرية القديمة .. وفيا يلى بعض هذه الأدلة :

* قبل أن يكتب ابن عبدالحكم هذه الحكاية بنحو ١٣٠٠ سنة ، قام عديد من المؤرخين اليونانيين والرومان بزيارة مصر ، وكتبوا عن كل ما شاهدوه بأنفسهم ، وكل

ماحُكِيَ لهم عن تاريخ مصر والمصريين . وكان أشهر هؤلاء المؤرخين القدماء : هيكاتى دى ميلى .. وهيرودوت .. وسترابون .. وديودور الصقلى .. وكليمان الاسكندرى .. وبلوتارك ..

وقد سجل هؤلاء المؤرخون جميع مراحل التاريخ المصرى القديم ، وذكروا قصصاً كثيرة عن الفراعنة الذين كانوا يحكمون مصر ، وعن حياة وعادات وتقاليد المصريين التى كانوا يعتبرونها غريبة عن تقاليدهم وما اعتادوا عليه .. كما ذكروا أيضا الكثير من الأكاذيب والخرافات التى لا تصدق عن مصر والمصريين .

ومع ذلك لم يذكر أحد من هؤلاء المؤرخين أن المصريين كانوا يزفون للنيل فى كل عام عروسة حية .. ولو أن ذلك قد حدث ولو لمرة واحدة عبر آلاف السنين ، لكانت فرصة أمام هؤلاء المؤرخين ليكتبوا لقرائهم المزيد من عجائب وغرائب المصريين .. !

* كتب ابن عبد الحكم هذه الحكاية بعد فتح مصر على يد عمرو بن العاص بنحو ٢٣٠ سنة .. أى أنه كان غير معاصر للحكاية على فرض حدوثها إن كانت قد حدثت فعلاً .. وعلى هذا فإما أن تكون هذه الحكاية قد رويت له بمعرفة أحد المخرفين ، وإما ان تكون الحكاية برمتها من تأليفه هو ، بقصد تنفير المصريين من مظاهر حضارتهم وعقائدهم القديمة ، والدعوة إلى الإسلام الذى يهدم ما كان قبله ..

* والنص يكذب نفسه بنفسه .. فكيف تمر ثلاثة شهور هى بؤنه وأبيب ومسرى « والنيل لايجرى قليلاً ولا كثيراً » .. إن ذلك لو كان قد حدث لكانت هناك كارثة تزول فيها الحياة تماماً ، ولايبقى بعدها إنسان أو حيوان أو نبات .. ولحسن الحظ ، فإن مثل هذه الكوارث لم تحدث إطلاقا فى التاريخ الجيولوجى لمجرى النيل منذ أن وجد حتى الآن .. وكيف يرتفع النيل ١٦ ذراعاً فى ليلة واحدة ؟ ! .. إن هذا يتنافى مع أبسط مبادىء الهيدرولوجيا وعلم القوى المائية .. !

* كان فتح مصر سنة ٦٤١ ميلادية .. وكان المصريون آنئذ قد اعتنقوا المسيحية ، وهى دين سماوى ولا يمكن أن يقبل أو يقر حكاية إلقاء عروسة بكر حية لتموت غريقة فى النيل؟ .. فالأديان السماوية الثلاث لا تقر ولا تعرف تقديم ضحية « بشرية » كقربان لله ..

* لم يعرف عن المصريين القدماء فى تاريخهم المعروف والمدون ، أنهم كانوا يقدمون ضحية بشرية لأى إله أو معبود مهما علا شأنه .. وهناك عشرات اللوحات والبرديات التى

كانت تصف أحوال النيل ، سواء عند حدوث الفيضان المعتدل الذى يجلب معه الخير ، أوعند حدوث الفيضان العالى الذى يغرق الأرض و يبعث الرعب فى النفوس ، أوعن حدوث الفيضان المنخفض الذى يؤدى إلى كوارث ومجاعات ..

وهناك أيضا عشرات ومئات المدونات التى ذكرت القياسات التى سجلتها « المقاييس النيلية » ارتفاعاً أو انخفاضاً ، وسواء فى مواسم الفيضان أوفى خلال بقية أيام السنة .. بالإضافة إلى كثير من الأوصاف التفصيلية للاحتفالات النيلية التى كان يحضرها الملك ، ولم يرد فى أى من هذه الآثار جميعاً أى ذكر لعروس عذراء تقدم للنهر قربانا ...

* عثر حتى الآن على ثلاث لوحات تصف كل منها بالتفصيل جميع المراسم التى كانت تؤدى والأشعار والأغانى التى كانت تلقى فى الاحتفالات النيلية التى كانت تقام لدعوة النهر إلى الفيضان والإتيان بالخير؛ وكانت فى الغالب تأخذ طابعاً دينياً وشعبيا .. وأولى هذه اللوحات كانت لرمسيس الثانى ، وثانيتها كانت لمرنبتاح والثالثة كانت لرمسيس الثالث .. وكل هؤلاء الملوك يعتبرون من الملوك العظام [من الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين] الذين حكموا امبراطورية مصرية قوية تمتد فى آسيا حتى بلاد مابين النهرين وحدود تركيا ، وتمتد جنوباً وغرباً فى أراضى أفريقيا ..

ومن هذه اللوحات يتضح لنا أن الملك كان يحضر بنفسه هذا الاحتفال الرئيسى الذى كان يبدأ عادة بذبح عجل أبيض وأوز وبط ودجاج كقربان .. ثم تلقى فى النيل « رسالة » مكتوبة على ورقة من أوراق البردى ، تتضمن بعض الصلوات والمدائح فى النيل ، اعترافاً بفضله وابتهالاً له لمواصلة الفيضان فى كل عام بما فيه خير للبلاد .. فلو كان المصريون يقدمون للنيل عروسة حية ، فهل كان من الممكن عدم ذكر ذلك وإغفاله فى تلك اللوحات التى تركها هؤلاء الملوك العظام .. ؟ !

* عثر على العديد من الابتهالات والدعوات المكتوبة التى كانت ترفع للنيل أوتلقى فيه ، خصوصاً حين يأتى الفيضان منخفضاً ومهدداً بالمجاعة .. ولم يذكر فى أى من هذه الابتهالات أو الصلوات أن عروساً قد ألقيت فى النيل كسبيل للتوسل إليه ..

* إن النيل نفسه كان محل تقديس لدى قدماء المصريين ، ومنحوه صفة الألوهية وسموه « حابى » .. و يتخذ الإله حابى صورة رجل ذى جسم ممتلىء وتظهر فى ملامحه سمات من النبل والغنى .. ولكن الغريب أن له بطنا كبيرة كبطون الحبالى ، وثديان كبيران كأنهما ثديا امرأة تنبثق المياه من حلمتيهما مثل اللبن الذى تغذى به الأم أبناءها ..



حابى .. إله النيل عند قدماء المصريين .. امتلاء ثدييه يعنى العطاء ووفرة الخير ..

ومعنى هذا أن المصريين القدماء قد نزهوا الإله « حابى » الذى يمثل النيل فى عقيدتهم عن أن يكون ذكراً أو يكون أنثى .. وجعلوه يجمع الصفتين باعتباره رمزاً للخصوبة والقوة التى تمنح الحياة وتهب الماء والغذاء كما تفعل الأم نحو أبنائها الصغار .. فلو كان « حابى » بهذا الشكل فكيف يستقيم مجرد التخيل بأن المصريين كانوا يزفون إليه عروسة بكراً ليأخذها بين أحضانه .. ولو مرة كل عام .. ؟ !

● علاقة عاطفية .. وواقعية !

كان النيل إذن على مثل هذا القدر من التقديس .. وقد عثر على قصيدة فى مدح النيل ممثلا فى الإله « حابى » .. وقد ترجمها عن الهيروغليفية عالم الآثار « ماسبيرو » .. و يقول فيها الشاعر المصرى القديم :

« هو النيل الذى يفيض على البلدين (الوجه القبلى والبحرى) فتمتلىء مخازن الحبوب .. وتزدحم المستودعات .. وتتوافر حاجات الفقراء .. إنه يضع نفسه فى خدمة جميع الأمانى فيجيبها من غير أن ينقص منها شيئا .. هو منشىء السفن .. وهو فى غنى عن أن تنقش باسمه نصب الحجارة أو تنحت له تماثيل عليها التاجان .. وهو لا يراه الراؤون .. ولا يدفع له الناس ضريبة .. ولا يقدمون له الهدايا .. ولا يفتنونه بالكلمات ذات الأسرار الخفية .. ! » .

هذه الرؤية الشعرية التى تقوم على أنبل المشاعر والأحاسيس العاطفية بين إنسان ونهر ، هى فى الوقت نفسه رؤية عقلية وتقوم على أسس واقعية تضعها على قدم المساواة مع أجل الصور الشعرية فى الأدب الواقعى الحديث .. !

● من هى عروس النيل .. ؟ !

لاشك أن تعبير « عروس النيل » تعبير قديم .. وقد استعمل عبر آلاف طويلة من السنين .. ولكن لم يكن يقصد بهذا التعبير فى البداية ، أن هناك عروساً عذراء حية تزف إلى النيل بأن تلقى فى أحضانه كل عام .. وإنما كان يقصد بهذا التعبير معنى آخر من

المعانى المجازية .. وهو أن عروس النيل هى مصر نفسها .. هى الأرض المصرية فى وادى النيل ..

وربما كان هذا التعبير المجازى هو الذى أدى إلى توهم واختلاق أكذوبة العروس الحية التى تزف إلى النيل .. وهكذا تحول التعبير المجازى « عروس النيل » إلى اسم واقعى يطلق على عروس بكر قيل إنها كانت تقدم هدية ليتزوجها النيل فى كل موسم فيضان ..

وفى إحدى « الحواديت الشعبية » المصرية القديمة تشبيه غريب عن أرض مصر قبل أن يأتى الفيضان .. فهى أرض جافة شققتها حرارة الصيف ولهيب الشمس .. ممتلئة بآلاف وملايين الشقوق التى تبدو كالأرحام .. ثم يأتى النيل كذكر هائل يتخلل تلك الشقوق و يلقح الأرض ويخصبها .. وهكذا تصبح الأرض المصرية الطيبة صالحة « للحمل » عند بذر البذور و « للولادة » فى أيام الحصاد ..

عروس النيل إذن هى « مصر » أو « أرض مصر » التى يدخل عليها النيل فى موسم الفيضان كما يدخل الرجل على عروسه ليلة الزفاف .. !

● الحجة الشرعية .. من أيام الفراعنة !

يزعم الكثيرون من مؤرخى العرب ، أن التقليد الخاص بإلقاء « حجة شرعية » مكتوبة فى النيل ، قد ظهر منذ بداية فتح العرب لمصر على يد عمرو بن العاص .

و يقولون أيضا إن هذه الحجة كانت فى البداية عبارة عن « البطاقة » التى قيل إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد أرسلها إلى عمرو بن العاص ليلقيها فى النيل بدلاً من العروس البكر الحية .. وتتضمن هذه البطاقة رسالة مختصرة من عمر إلى النيل ونصها : « من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر . أما بعد . فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر . وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجر يك فنسأل الله الواحد القهار أن يجر يك » ..

غير أن هذا الزعم ظل رأياً ثابتاً إلى أن تمكن « شامبليون » فى سنة ١٨٢٢ م من فك رموز الكتابة الهيروجليفية التى كان يستعملها قدماء المصر يين ، وأصبح من السهل الآن قراءة كل النقوش التى تركتها تلك الحضارة العر يقة على جدران المعابد ومقابر الملوك وعلى المسلات والنصب التذكار ية وأوراق البردى ..

لقد تبين أن الفراعنة كانوا يلقون أيضا فى النيل رسائل مكتوبة على « بطاقات » من أوراق البردى ـــ وإن لم يطلقوا عليها اسم « حجة شرعية » ـــ تتضمن صيغا رسمية

أو أشعاراً أو ابتهالات دينية .. بل وكان بعض أفراد الشعب يلقون بدورهم رسائل شخصية إلى النيل تتضمن المدائح الشعرية للنهر والاعتراف بأفضاله .. كما قد تتضمن بعض الأماني الشخصية لصاحب الرسالة .. وكان إلقاء مثل هذه الرسائل يكثر عادة فى المواسم التى يأتى فيها الفيضان منخفضا .. فكانت كلها رجاءات ودعوات للنيل لكى يوفى بوعده ..

ولم يقل أحد من هؤلاء المصريين القدماء للنيل « إن كنت تجرى من قبلك فلا تجر » .. وإنما كانت هذه الرسائل « والبطاقات » تتضمن صيغاً شعرية غاية فى الرقة والعذوبة ..

« سلام عليك ياحابى .. يامن تخرج إلى هذه الأرض وتأتى لتحيى مصر .. يامن تخفى فى الظلمات مجيئك .. إنك اللجة تنتشر على الحقول .. فتعطى الحياة لجميع الظمآنين .. أنت سيد الأسماك متى جزت الشلال .. وبك لم تعد الطيور ترتمى على الحقول .. فأنت صانع القمح والشعير وكاسى المعابد حلل الأعياد ..

أنت إذا لم تحضر فى موعدك .. وقع ملايين من الناس فى البؤس .. وإذا قل ماؤك فى السماء ، هلك الناس واستولى الذعر على المواشى .. وصار كل من فى الأرض كبيراً أو صغيراً يعانى العذاب .. ! »

● اغتصاب العيد .. من المصريين .. !

وقد ظل الاحتفال بوفاء النيل عيدا شعبيا موسميا ، استمر فى مصر طوال العصور الإسلامية المختلفة التى مرت عليها .. وكان أبناء الشعب ينطلقون فى هذا العيد معبرين عن ابتهاجهم وأفراحهم بزيادة النيل ووفائه ..

وكانت أهم مراسم هذا الاحتفال بوفاء النيل هو « كسر السد » المقام عند بداية أو « فم » الخليج المصرى .. فتتدفق مياه النيل عبر الخليج ، وتدخل عشرات ومئات القوارب والمراكب والسفن الشراعية الصغيرة وفيها طوائف الشعب المختلفة فى حالة ابتهاج ومعهم الطبول والآلات الموسيقية .

ومن الغريب أن الحكام الغزاة الذين حكموا مصر منذ الغزو العثمانى سنة ١٥١٧م ، كانوا يحرصون على إقامة هذا الاحتفال فى موعده كل عام .. وكانوا يشاركون أهل البلد فى أفراحهم ومباهجهم بهذه المناسبة السعيدة .. بل وتحول الأمر فى النهاية إلى أن هؤلاء الحكام قد اغتصبوا هذا الاحتفال من الشعب نفسه .. فصاروا يحتفلون بوفاء النيل بطر يقتهم الخاصة بل وكانوا فى بعض الأحيان يمنعون المصر يين من الاشتراك معهم فى الاحتفال بهذا العيد .. ! ! و يقول « الجبرتى » فى ذلك : « كأن الموسم خاص بهم دون أولاد البلد .. ! » .

● نابليون يحتفل بوفاء النيل ..

و يقول الجبرتى : فى ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، أوْفَى النيل المبارك أذرعه .. وأمر صارى عسكر بالاستعداد وتز يين المركب « العقبة » وعدة مراكب أخرى وغلايين .. ونادوا على الناس بالخروج إلى النزهة فى النيل والمقياس والروضة ..

وخرج صارى عسكر بموكبه وز ينته فى صحبة عساكره ، ومعه طبوله وزموره إلى قصر قنطرة السد .. وكسروا الجسر وعملوا شنك مدافع .. أما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه فى المراكب على العادة سوى الشوام والأروام والأفرنج البلديين ونسائهم .. وقليل من « الناس البطالين » حضروا فى الصبح ..

أما الاحتفال بوفاء النيل فى العام التالى مباشرة « ١٧٩٩ » فقد تحول على أيدى جنود الحملة الفرنسية إلى مايشبه الاحتفال بأعياد « باخوس » أيام الإغر يق .. حيث تصنع « الخمر والنساء » كل مايخطر ومالايخطر على البال .. و يقول الجبرتى :

« ... وتأهبوا للخلاعة والقصف والتفرغ واللهو والطرب .. وذهبوا تلك الليلة إلى بولاق ومصر العتيقة والروضة .. وأكثروا المراكبَ ونزلوا فيها .. وصحبتهم نساؤهم وشرابهم .. وتجاهروا بكل قبيح من الضحك والسخر ية والكفر يات ومحاكاة المسلمين من أهل البلد ، و بعضهم تز يا بزى أمراء المماليك ، ولبس سلاحاً وتشبه بهم وحاكى ألفاظهم على سبيل الاستهزاء والسخر ية .. وأجرى الفرنساو ية المراكب المز ينة وعليها البيارق وفيها أنواع الطبول والمزامير .. و وقع فى تلك الليلة بالبحر وسواحله من الفواحش والتجاهر بالمعاصى والفسوق مالا يكيف ولا يوصف .. !

وسلك بعض غوغاء العامة وأسافل العالم ورعاعهم مسالك الخلاعة والرذالة والرقاعة بدون أن ينكر أحد من الحكام عليهم ذلك ، بل كان كل إنسان يفعل ماتشتهيه نفسه

وما يخطر بباله .. وإذا كان رب البيت بالدف ضارباً .. فشيمة أهل البيت كلهم الرقص .. !

وأكثر الفرنسيون فى تلك الليلة وصباحها من رمى المدافع والصوار يخ من المراكب والسواحل .. و باتوا يضر بون أنواع الطبول والمزامير .. » .

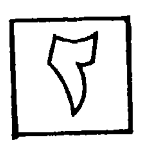
● سبب الأفراح والأحزان .. !

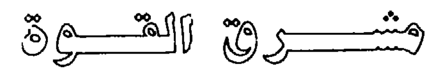
و بعد خروج الفرنسيين من مصر انطلق أبناء البلد يحاكون ماكان يصنعه الفرنسيون أثناء الاحتفال بوفاء النيل من مساخر .. و يؤرخ الجبرتى احتفالات وفاء النيل لعدة سنوات تالية وحتى سنة ١٨٢٠م ، وصف فيها أحوال الناس حين كان الفيضان يأتى منخفضا ، فترتج الأحوال ، وتنقطع آمال الناس و يشتد كربهم ، فترتفع أسعار الغلال وتختفى من الأسواق .. ولا يبقى للناس شغل ولا حكاية ولاسمر بالليل والنهار إلا مذاكرة القمح والفول والأكل .. وحين كانت تشتد المجاعة تشح النفوس و يكثر الصياح والعو يل ليلاً ونهاراً .. ولا تكاد تقع الأرجل إلا على خلائق مطروحين بالأزقة ..

أما حين كان النيل يز يد ز يادة مفرطة فى أحد المواسم ، فقد ترك لنا الجبرتى وصفا للمآسى والنكبات التى كانت تصاحب تلك الفيضانات العالية يقول فيه :

« زاد النيل ز يادة لم نسمع ولم نر مثلها .. حتى غرق الزروع الصيفية مثل الذرة والنيلة والسمسم والقصب والأرز وأكثر الجناثن .. بحيث صار البحر وسواحله لجة ماء ، وانهدم بسببه قرى كثيرة ، وغرق الكثير من الناس والحيوان .. حتى كان الماء ينبع بين الناس من وسط الدور .. واختلط بحر الجيزة ببحر مصر العتيقة ، حتى كانت المراكب تمشى فوق جز يرة الروضة .. وكثر عو يل الفلاحين وصراخهم على ماغرق لهم من المزارع وخصوصاً الذرة الذى هو معظم قوتهم وكثير من أهل البلاد ند بوا بالدفوف .. !! » .

أما حين كان يأتى الفيضان معتدلاً مبشراً بالخيرات ، فهنا كان يطلق الناس عنان مباهجهم بعد أن تعلموا من الفرنسيين الشىء الكثير .. « فيتجاهرون بالمعاصى والراح والوجوه الملاح ، وتبرج النساء وخاليع أولاد البلد .. ويخرجون عن الحد فى تلك الأيام ، فلا يجرؤ أصحاب الشرطة على التعرض للناس وأفاعيلهم .. فكانت مصر فى تلك الأيام مراتع غزلان ، ومواطن حور وولدان ، فكأنما أهلها خلصوا من الحساب ، ورفع عنهم التكليف والخطاب .. » !!





2. SUNRISE OF POWER

BY: JOYCE MILTON



• تقديم

فى مكتبات العالم آلاف من الكتب والموسوعات والمؤلفات الضخمة التى تتناول هذا الموضوع .. أعنى موضوع تحليل وتمجيد الحضارة المصرية القديمة ، واعتبارها من كافة الوجوه ، أعلى وأرقى حضارة ظهرت فى تاريخ الإنسان القديم .

ومنذ حوالى مائتى عام ، وهب الكثيرون من العلماء والمؤرخين الأجانب حياتهم العلمية كلها ، للبحث فى تاريخ تلك الحضارة العظيمة الرائدة ، بل ولقد ظهر علم تخصصى مستقل بعناصره وقواعده ، وهو علم « الإجيبتولوجى » أو « المصرولوجى » .. وهو مايطلق عليه أيضا « علم المصريات » ..

وهذا الكتاب واحد من أهم الكتب التى صدرت أخيراً [عام ١٩٨٠] والتى تناولت هذا الموضوع المحبب لدى قارئى الكتب ومحبى الاستطلاع فى جميع أنحاء وقارات العالم ، الأمر الذى يدعو الناشرين فى أغلب الأحيان إلى إصدار الكتاب الواحد بلغته الأصلية ، وغالبا ماتكون الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية ، ثم إصدار طبعات أخرى مترجمة إلى الاسبانية والبرتغالية والإيطالية واليابانية وغيرها من اللغات الأخرى .. وذلك لإتاحة كتب « المصريات » أمام القراء على أوسع نطاق عالمى ممكن . والناشرون فى ذلك متأكدون من ضمان الأرباح بسبب زيادة الطلب والإقبال الشديد على كتب المصريات فى جميع أنحاء وقارات العالم ..

ومن المؤسف أن مثل هذه الكتب العظيمة الواسعة الانتشار والمطبوعة على أفخر أنواع الورق المصقول وبأعلى مستويات الطباعة وتنسيق الألوان ، لا تتاح عادة لقارىء اللغة

العربية ، وهو أولى الناس بقراءتها . ولم تصدر حتى الآن طبعة عربية واحدة لأى كتاب من هذه الكتب التى تباع منها ملايين النسخ ، مترجمة إلى العديد من اللغات عدا اللغة العربية ، وتعرضها المكتبات فى جميع مدن العالم عدا مكتباتنا نحن إلا فيما ندر، و يقبل عليها ملايين القراء ومحبو الكتب فيما عدانا نحن أيضا إلا فيما ندر.. !

أليس من المدهش ألا يعرف المتعلمون المصريون عن تاريخ بلادهم إلا شذرات لا تغنى شيئا ، بل وقد يكون أغلبها مغلوطا ومخلوطا بالخرافة .. وفى نفس الوقت يدرك المتعلمون ومحبو الثقافة فى جميع أنحاء العالم أبعاد الحضارة المصرية القديمة ويمجدونها تمجيدا .. ؟!

وأليس الأغرب من ذلك ، أن بعض الدراسات المقارنة فى علوم التربية ، أكدت أن المعلومات التى يتلقاها فى المدرسة الطفل الفرنسى الذى يبلغ نحو تسع سنوات عن التاريخ المصرى القديم ، تفوق فى قدرها كل مايحصله خريج الجامعة فى مصر.. !!

● الإجيبتومانيا ..

معنى هذا المصطلح العلمى هو « الجنون بمصر» أو« الولع الشديد بمعرفة المعلومات المصرية » .. وقد انتشرت هذه الظاهرة بين شعوب العالم المتمدين منذ قديم الزمان .. ولا غرو فهذه الآثار الخالدة التى كانت تملأ ربوع وادى النيل المصرى طولاً وعرضا ، كانت مثار إعجاب جميع الغرباء الذين كانوا يفدون إلى مصر من وراء الحدود ، سواء أكانوا من الزائرين العابرين أومن الغزاة الفاتحين أومن المستعمرين المستوطنين .

كانوا جميعاً يقفون مبهورين أمام ضخامة وروعة هذه المبانى والمعابد والتماثيل .. ناهيك عن الأهرام وأبى الهول .. حتى ساد الاعتقاد بأن المصريين الذين صنعوا تلك الآثار، ناس غير طبيعيين يتمتعون بقدرة فائقة على الإتيان بالخوارق ، وانهم قد استعانوا بالسحر فى تنفيذ كل هذه الإنشاءات الماثلة .. !

و يرجع هذا الاعتقاد بصفة أساسية إلى عدم معرفة أسرار الكتابة الهيروجليفية التى كانت مدونة على تلك الآثار.. وحين قام هيرودوت بزيارته لمصر فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كان قد ندر استعمال الهيروجليفية كلغة مصرية إلا فيما بين بعض الكهنة المحافظين الذين كانوا يعيشون أيامئذ . . ولذلك فقد أصبحت هذه اللغة كالطلاسم تماماً

أمام كل من يفكر فى قراءتها أو استجلاء معانيها ، ومن هنا شاعت الأساطير والخرافات القديمة عن المصريين القدماء الذين صنعوا هذه الحضارة ..

ويمكن القول انه لو كان هيرودوت قادراً على قراءة الكتابة الهيروجليفية ، لغيّر تماماً جميع أقواله التى ذكرها عن تاريخ مصر ، والتى كادت أن تكون بأجمعها تكريساً للخرافات والمعلومات الموغلة فى الغرابة ، والتى تثير خيال كل من يسمعها ، وهو ما كان يستهوى المثقفين ومحبى الاستطلاع والمعرفة فى العالم القديم .

وكان بعض قياصرة الرومان يفخرون بأنهم قد استطاعوا أن ينقلوا إلى روما المسلات والتماثيل المصرية الضخمة ، التى كانت تعاد إقامتها فى أفخم ميادين روما وأكثرها جمالاً .. وحين كان يتحلق الرومان القدماء وزوار روما من الأجانب حول هذه الآثار العملاقة ، كانوا يتبادلون أحاديث الإعجاب بقدرة هؤلاء المصريين القدماء الذين كانوا يعيشون قبلهم بآلاف السنين . ولم يكن يخلو الأمر عادة من وجود الكثير من الدارسين وأهل العلم الرومان الذين كانوا يجادلون كثيراً فى محاولة فهم وتخمين معانى الحروف الهيروجليفية المدونة على تلك الآثار ..

وبمرور الزمن شاع الاعتقاد بأن الحروف الهيروجليفية المدونة على الآثار المصرية القديمة ، ماهى فى حقيقة الأمر إلا رموز لعلوم الطبيعة وماوراء الطبيعة .. ومن هنا انتشر استعمال حروف ورموز مماثلة تماماً للحروف الهيروجليفية بين علماء الكيمياء والسحرة وأعضاء الجماعات السرية ، بعد أن جعلوا لكل حرف من هذه الحروف دلالة بعيدة تماماً عن حقيقة معناه ، وعلى الفور شاعت الخرافات عن القدرة السحرية الفائقة التى كان يتمتع بها المصريون القدماء ، بل وصدرت « قواميس » وكتب زائفة كانت تتداول سراً ، وتتضمن أسرار السحر المستمدة من حروف ورموز الكتابة الهيروجليفية المصرية القديمة .

● شفاء لكل مرض .. !

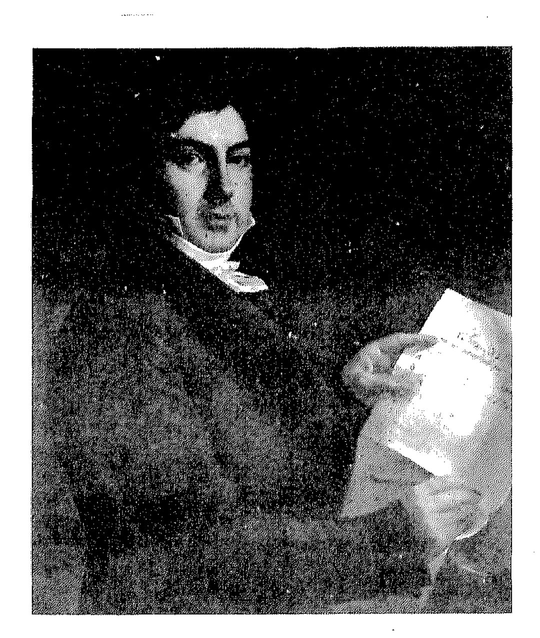
وشاع الاعتقاد عبر التاريخ وبين عديد من الشعوب الأوربية القديمة ، بأن قليلاً من طحين أو مسحوق مومياء مصرية قديمة ، كفيل بشفاء جميع الأمراض مهما كانت مستعصية .. ولهذا السبب فقد كان يفد إلى مصر كثير من الأفاقين الأوربيين ليشتركوا فى عمليات نهب القبور المصرية القديمة للحصول على المومياوات بلا مقابل تقريبا ، ثم كانوا



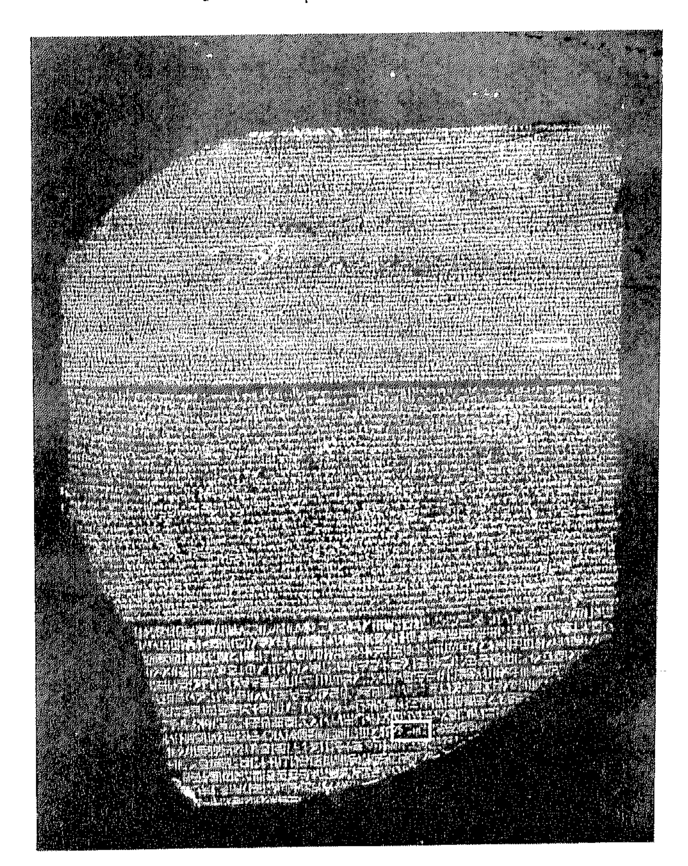
الحروف الهيروجليفية .. ظل الأوربيون لفترة طويلة يعتبرونها من علامات السحر وتكمن فيها أسراره ..



مسلة مصرية قديمة .. نقلوها إلى روما ونصبوا الصليب فوقها .. !



شامبليون .. فك طلاسم الهيروجليفية .. واشتهر فى الأوساط الأوربية باسم « المصرى » لشدة تعلقه وشغفه بالحضارة المصرية .



حجر رشيد .

يقومون بنقل تلك المومياوات لتباع للأطباء ومدعى القدرة على الشفاء فى مختلف الدول الأوربية ..

وقد استطاع أحد هؤلاء الأفاقين وهو رجل اسكتلندى اسمه « جون ساندرسون » وفد إلى مصر فى خلال القرن السادس عشر، أن ينقل من مقابر « منف » مومياوات مصرية يبلغ وزنها نحو ستمائة رطل ، وقام ببيعها فى الجزر البريطانية بالسعر الذى كان سائداً لهذه السلعة ، وهو ثمانى شلنات للرطل الواحد ..

● الحضارة المصرية تغزو أوربا ..

وحين جاء نابليون بونابرت إلى مصر غازياً ، كان ينظر إليها باعتبار موقعها وأهميتها كجزء من امبراطورية كان يحلم بها ، ومع ذلك فقد اصطحب معه فى حملته إلى مصر [١٧٥] عالما ، كانت مهمتهم دراسة مصر من أقصاها إلى أقصاها ومن جميع النواحى ، سواء ماتعلق بالمصريين القدماء أو بالمصريين الذين كانوا يعيشون فى زمنه .

وقام هؤلاء العلماء بنقل صور دقيقة جدا ومماثلة تماماً لجميع الآثار الظاهرة التى خلفتها الحضارة المصرية القديمة ، بل وقاموا برسم وتصوير النقوش الهيروجليفية المدونة على جدران تلك الآثار بدقة متناهية ودون أن يعرفوا الدلالات والمعانى الحقيقية لهذه النقوش الغريبة ..

ومن حسن الحظ أن أحد ضباط نابليون ، وهو الكابتن « بوشارد » كان مكلفا بحفر تحصينات عسكرية لحماية قلعة رشيد عند مصب النيل غرب الدلتا .. وفى أثناء الحفر عثر أحد رجاله على حجر من البازلت الأسود كتبت عليه ثلاثة نصوص بلغات مختلفة ومن بينها نص مكتوب بالهيروجليفية .

وبعد العثور على حجر رشيد بسنوات ، استطاع عالم المصريات الشاب الفرنسى « جان فرانسوا شامبليون » أن يفك الرموز الحقيقية للحروف الهيروجليفية ، وأن يعرف الدلالات الصوتية للحروف والكلمات وأن يعرف معانيها أيضا .. ببساطة أصبح التاريخ الحقيقى لمصر القديمة فى متناول القادرين على قراءة الهيروجليفية .

ومنذ ذلك الحين أصبحت جميع الكتب والمعلومات التى كانت تتناول « المصريات » كمصدر للسحر، من قبيل الخرافة . وظهر علم حقيقى جديد له قواعده وأركانه ، وهو

« علم المصريات » أو « علم الآثار المصرية » الذى يقوم بدراسة الآثار وتاريخ مصر على أسس علمية واقعية واضحة خالية من كل خرافة أو تشويه ..

وما هى إلا فترة وجيزة بعد هذا الاكتشاف المذهل ، حتى أصبح التاريخ المصرى القديم بمفاجآته ومعلوماته الجديدة ، هو الحديث اليومى لمعظم المثقفين فى أوربا والدول الغربية بصفة عامة ، بل وأصبح من الصعب أن تنسب صفة الثقافة إلى أحد فى أوربا ، إلا إذا كان يلوك فى حديثه ما حصّله من معلومات عن تاريخ مصر وعن الحضارة المصرية القديمة .. !

● لماذا خلدت آثارهم ..

إن حكام عالم اليوم من ملوك وأمراء ورؤساء ، مهما علت أقدارهم وارتفع شأنهم ، لا يحلمون ببلوغ العظمة التى بلغها الملوك والحكام العظام الذين حكموا مصر أيام مجدها فى التاريخ القديم ..

وحين بلغ الإحساس بالعظمة لدى ملوك مصر القدماء حد الاعتقاد بأنهم « آلهة » وأصبحوا يصرفون الأمور على هذا الأساس ، رسخت فى ذهن البشرية فكرة « الحكم بالحق الإلهى » والتى ظلت موجودة إلى عهد قريب ، بل ومازالت موجودة حتى الآن فى بعض الدول والجماعات ، وإن اتخذت أشكالاً مختلفة باختلاف المكان والزمان ، فمن قائل بأن الحاكم يستند إلى « الحق الإلهى » مباشرة ، إلى قائل بأن الحاكم هو « ظل الله على الأرض » إلى قائل متواضع يقول بأن الحاكم « ملهم » لاراد لكلماته ولاناقض لتصرفاته ..

ولم يكن من المستغرب أن يتقبل الشعب المصرى فكرة ألوهية الحاكم القديم ، فى وقت لم تكن فيه الرسالات السماوية قد وصلت إلى الناس ، بل وقبل نزول أول دين سماوى بآلاف السنين .. والفلسفة التى جعلت من اليسير قبول فكرة ألوهية الحاكم لدى المصرى القديم ، هى فكرة « الخلود » التى كانت تحكم الحضارة المصرية القديمة منذ ظهورها حتى اندثارها ..

كان المصرى القديم يؤمن بالخلود كعقيدة يومية تتجلى فى جميع مناحى الحياة .. كل شىء فى الوجود خالد وباق أبد الدهر .. وهذا بالضبط ما كان يدور فى خلد جميع العمال والفلاحين والحرفيين والبنائين والمهندسين المصريين الذين اشتركوا فى بناء الهرم .. فقد

آقاموا هذا الصرح ليكون خالداً أبد الدهر، ورامزاً إلى فكرة الخلود نفسها .. وقد اتضح الآن أنهم لم يكونوا مبالغين فى هذا الاعتقاد ..

وحين تمكن المصريون من توحيد الوجهين القبلى والبحرى، وأطلقوا على بلادهم اسم « مملكة الأرضين » ظلت هذه الفكرة سائدة بالفعل على مدى يزيد على خمسة آلاف سنة، بل وستظل سائدة مابقى وطن اسمه مصر .. وهذا أيضا تطبيق مباشر لفلسفة الخلود التى قامت على أساسها الحضارة المصرية .

وحتى حين اندثرت تلك الحضارة القديمة، وحلت محلها حضارات أخرى، فإن الآثار المبهرة التى خلفتها تلك الحضارة الزائلة دفينة فى الرمال وبطون الجبال وبين طبقات الطمى المتراكمة، مازالت تكتشف يوما بعد يوم، ومازالت حتى الآن ذات قدرة سحرية فائقة على إبهار الإنسان الذى يعيش فى عالم اليوم ..

وبعض علماء التاريخ يقولون إن اكتشاف مقبرة « توت عنخ آمون » مثلا سنة ١٩٢٢م يعتبر بكل المقاييس العلمية أعظم اكتشاف أثرى فى القرن العشرين بأكمله .. ومن المؤكد أن الرمال والجبال وطبقات الطمى مازالت تخفى الكثير من الآثار الفذة التى خلفتها تلك الحضارة العظيمة .. وهذا يؤكد مرة أخرى فكرة إيمان المصرى القديم بالخلود الشامل لكل شيء فى الوجود، حتى ولو كان من صنع يديه .. !

وحين فقدت مصر استقلالها فى القرن الرابع قبل الميلاد، كانت حضارتها القديمة قد شاخت ودب فيها الوهن، وجاء الإغريق ثم جاء من بعدهم الرومان، وكانوا جميعاً يقومون بسياحات داخلية فى طول مصر وعرضها، ليتمتعوا بمشاهدة الآثار الفرعونية القديمة التى خلفتها تلك الحضارة الفذة المبهرة، ولم تكن تلك الأفواج السياحية تخلو من بعض الأنانيين الذين كانوا يتجرأون فيكتبون أسماءهم ويسجلون زيارتهم لتلك الآثار وانبهارهم بها .. نفس الشيء الذى مازال يفعله بعض المشاغبين حين يقومون بزيارة تلك الآثار المصرية الآن فى غفلة من الحراس ..

والغريب ان الأفواج السياحية الإغريقية والرومانية التى كانت تزور الآثار المصرية فى ذلك الزمن القديم، كانت تنظر إلى تلك الآثار باعتبارها من مخلفات شعب عاش قبلهم منذ نحو ثلاثة آلاف سنة، ومن هنا كان سبب الانبهار .. نفس الانبهار الذى يصيب الأفواج السياحية فى عالم اليوم حين تزور الأكروبول فى أثينا أوالكلزيوم فى روما باعتبارهما من مخلفات شعوب عاشت منذ نحو ألفين فقط من السنين .. !

● أم الحضارات ..

تاريخ الإنسان المتحضر المكتوب ، يرجع إلى نحو عام ٣٢٠٠ ق . م ، أو منذ نحو خمسة آلاف سنة فقط على وجه التحديد .. وليست هذه الفترة رغم ضخامتها وامتدادها ، إلا شريحة زمنية صغيرة فى تاريخ الإنسان على الأرض ..

وبرغم ذلك فقد حفظت ذاكرة التاريخ أهم المدارك والمعارف والآثار التى تركها الإنسان خلال مراحل تطوره وتحضره عبر هذه الآلاف الخمس من السنين ..

والحضارة الإنسانية التى يعيش فيها إنسان ثمانينات القرن العشرين بعد الميلاد ، هى ببساطة نتاج وحصيلة جميع الحضارات الإنسانية القديمة التى عاشها الإنسان على وجه الأرض . ولاغرابة فالمعادلة بسيطة ، فجميع هذه الحضارات الإنسانية كانت تبنى على أنقاض حضارات سابقة عليها ظهرت وأندثرت ، كما أن الإنسان كان ومازال يستفيد مباشرة من جميع الأفكار والقواعد والقوانين التى خلفها له إنسان آخر سابق عليه فى الزمان وقد ينأى عنه فى المكان ... وهكذا تتقدم الإنسانية يوماً بيوم وفى كل زمان ومكان ..

ومن المعلومات العامة المتاحة للإنسان الذى يعيش فى عالم اليوم ، معرفة أسماء عشرات الحضارات والامبراطوريات والممالك والدول التى حفل بها تاريخ الشعوب القديمة .. لقد ظهرت الحضارات واندثرت ، وقامت الدول ثم دالت وزالت .. وستظل نظرية الظهور والزوال هى القدر الذى يواجه الإنسان و يتحكم فيه ، حتى ولو كان ذلك ممثلا فى فكرة الحياة والموت ، والحياة بعد الموت ..

ولقد ظهرت نظرية حديثة يقول بها بعض المؤرخين ، وهى أن الإنسان أو الجنس البشرى بصفة عامة مصاب بنوع من الجنون العام يسمى « تدمير الذات » .. وغالباً ماتكون الحروب مجالاً خصبا لإقامة شعائر هذا الجنون .. فكم من مجتمعات إنسانية تعرضت للغزو والإبادة ، وما أكثر مايحفل به التاريخ من ذكريات محزنة عن المذابح الجماعية البشعة وأعمال الحرق والسلب والنهب .

وتنطبق نظرية تدمير الذات أيضا على جريمة حرق مكتبة الاسكندرية التى كانت تحفل بمئات وآلاف المؤلفات العلمية التى نتجت من فكر الإنسان عبر آلاف السنين ، وتنطبق أيضا على جريمة تدمير مكتبة بغداد وإلقاء كتبها وكنوزها الثقافية فى النهر حتى تلونت بأحبارها المياه وكونت جسراً بين شاطئ النهر ليعبر عليه الغزاة ..

وحتى زمن قريب كانت تخلع أحجار الأهرام لتستعمل فى بناء البيوت والبوابات والحصون والقلاع ، بل وكانت لفائف البردى التى سجلت عليها أسرار وعلوم الحضارة المصرية ، تستعمل وقودا للأفران .. أليس هذا بدوره نوعاً من جنون تدمير الذات .. ؟!

وعلى أية حال ، فمن بين جميع هذه الحضارات الإنسانية التى ظهرت واندثرت عبر آلاف السنين من التاريخ المكتوب أو المعروف ، تبوأت الحضارة المصرية مكان الصدارة واعتبرت بكل المقاييس العلمية حضارة رائدة ، أنارت الطريق أمام الإنسان الحى ليبلغ أقصى درجات الرقى ، وليس من قبيل المبالغة أن بعض المؤرخين الغربيين يطلقون على الحضارة المصرية القديمة اسما شهيراً هو « أم الحضارات » ..

تلك كانت عجالة لابد منها لنخترق الحجب ، ولنرى كيف حقق المصريون القدماء تلك المعجزات الهائلة .. كيف تعلموا الحساب والهندسة ، وكيف تتبعوا مدارات النجوم ليضعوا أول تقويم سنوى فى تاريخ الإنسان .. وكيف شيدوا الأهرامات وكتبوا المراجع فى علوم الطب والتشريح .. ثم كيف قاموا بأول ثورة اجتماعية فى تاريخ السياسة ونظم الحكم ..

● متى تم توحيد الوجهين .. ؟

فى بداية الأمر ، وبالتحديد فى عام ١٧٩٣م ، أى قبيل مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر ، أعلنَ عالِمُ المصريات الفرنسى « ديبوى » بعد أن قام بدراسة بعض « البروج » الفرعونية القديمة أن المصريين القدماء ماكانوا يستطيعون عملَ تلك البروجِ إلا إذا كانوا قد واصلوا الدراسات الفلكية لمدة [١٥] ألف سنة على أقل تقدير ..

وبعد فك الرموز الهيروجليفية ، قام شمبليون الذى أطلق عليه لقب « المصرى » بقراءة وترجمة معظم النصوص الهيروجليفية المدونة على الآثار المصرية المنتشرة فى متاحِف فَرنسا وإيطاليا ، ثم قام بزيارة مصر لرؤية هذه الآثار فى مهدها . وأعلن شمبليون أن الملِك مينا الذى قام بتوحيد الوجهين القبلى والبحرى وأنشأ الدولة المصرية قد تم له تحقيق ذلك فى عام ٥٨٦٧ قبل الميلاد .. !

وقد وقع شمبليون فى الخطأ الحسابى نتيجة لعدم معرفته بطريقة المصريين القدماء فى حساب أيام وسنوات حكم الملوك الذين تولوا عرش البلاد ، وقام علماء المصريات بتصحيح هذا التاريخ بإرجاعه إلى سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، وهو التاريخ الصحيح ، رغم

أن بعض العلماء يقولون بأن المصريين قد نجحوا فى عدة محاولات لتوحيد الوجهين قبل مينا بألفين من السنين على أقل تقدير..

وعلى أية حال، فقد جلس مينا على عرش مملكة « الأرضين » .. ولبس على رأسه التاجين، وأعلن نفسه أول ملك فى الأسرة الأولى من الأسر الفرعونية الواحدة والثلاثين التى ظلت تحكم مصر منذ ذلك التاريخ القديم حتى القرن الرابع قبل الميلاد حين غزاها الاسكندر الأكبر..

• وأشرقت شمس الحضارة

ورغم ندرة الآثار التى خَلّفَتها الأسرتان الأولى والثانية، إلا أن علماء التاريخ المصرىَ استطاعوا الوصول إلى معرفة الأسس الحضارية التى أرستها هاتان الأسرتان فى الديار المصرية..

فى هذا العصر ظهرت أولُ مُدَونَات فى العالم عن علم الطب وعلم التجبير « علاج العظام » . بل و يذكرُ المؤرخون المصريونَ القدماء أن الملك « زرْ» وهو أحدُ ملوكِ الأسرةِ الأولى ألّف بنفسهِ كتاباً فى علم التشريح .. وفى هذا العصر أيضا تم تدوينُ وتسجيلُ النصوص الدينية المقدسة فى كتب مستقلة، وظهرت الإرهاصاتُ الأولى لعلمِ الهندسةِ والعلوم الرياضية..

وفى هذا العصر كذلك تم تنظيم الحكومة المركزية وتوطدت السلطة الإدارية فى طول البلاد وعرضها، كما تم تحصين حدود البلاد وتقويتها، وضمت بعض بلاد النوبة، كما أحكمت السيطرة على شبه جزيرة سينا باعتبارها أرضاً مصرية..

و يذكر التاريخ أنه فى عهد الأسرة الأولى أجريت أول عملية إحصاء للسكان فى تاريخ العالم.. بل ووضعت القواعد لإجراء عملية الإحصاء كل عامين..!

• الملوك العظام .. بناة الأهرام

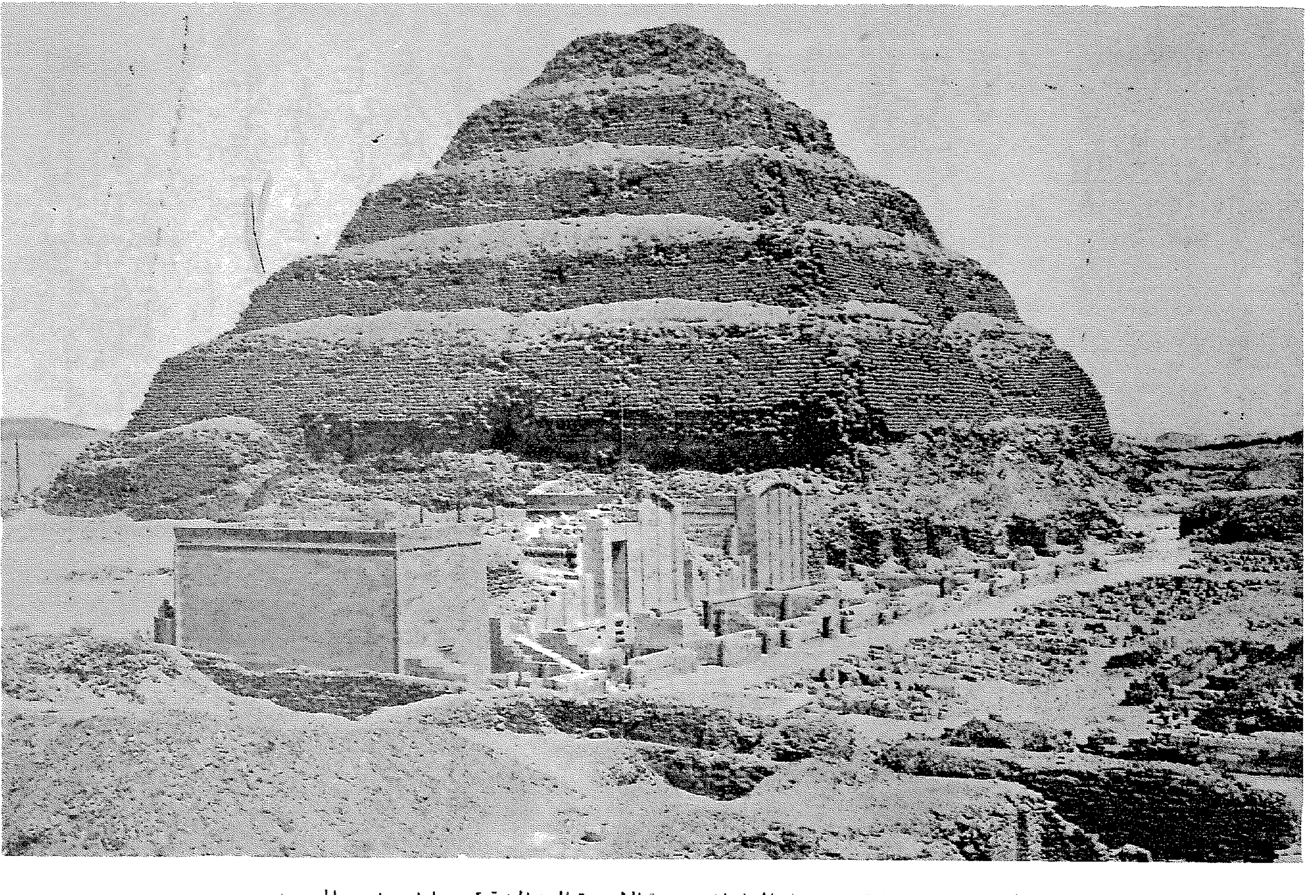
بعد عصر الأسرتين الأولى والثانية، تولى حكم مصر ملوك الأسرة الثالثة الذين أنشأوا مايسمى فى التاريخ المصرى باسم « الدولة القديمة » .. وهى الدولة المصرية التى بدأت





الـوجـهـان [الأمـامـى والخلفى] للوحة الملك نارمر « مينا » موحد الأرضين

الـوجـه الـبـحـرى والـوجـه الـقـبـلى . حوالى عام ٣٢٠٠ ق . م



الهرم المدرج بسقارة .. بناه الملك زوسر [الاسرة الثالثة] بمعاونه وزيره المهندس العبقرى إمحوتب .. و يعتبر أول أضخم بناء حجرى فى تار يخ الانسان على الأرض ..

عام ٢٧٨٠ ق . م واستمرت تاريخيا نحو [٥٠٠] سنة ، تحت حكم ملوك وملكات الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة .

وهذه الحقبة التاريخية ، مازالت تعتبر أرقى مرحلة وصل إليها الجنس البشرى الذى كان يعمر الأرض فى ذلك الزمن السحيق ، كما تعتبر أيضا أول مرة يصل فيها الإنسان القديم إلى هذا المستوى الحضارى العظيم ..

فى عصر الأسرة الثالثة ، قام الملكُ زوسر ، يُعَاونُهُ فى ذلك وزيره العظيم إمْحوتبْ ، بإنشاء أول بناء حجرى ضخم فى تاريخ الإنسان على الأرض .. الهرمُ المدرج بسقارة ..

وإمحوتب هو ذلك المهندس الطبيب الأديب الفيلسوف الحكيم .. وأول واحد من أبناء الشعب الذين لا ينحدرون من سلالة الأسر الملكية ، يدونُ اسمه و يشادُ بفضله على جدران المعابد والمقابر المصرية .. وكان يتمتع بعقلية هندسية جبارة وله قدرة فائقة على تشخيص الأمراض ووصف الدواء .. وفضلا عن ذلك كله فإنه كان يتمتع بحب الناس العاديين الذين ظلوا يمجدونه حتى أوصلوه إلى مرتبة الإله ..

ومهما قيل عن الأغراض من بناء الأهرام ، فإن فكرة بناء الأهرامات فى حد ذاتها تؤكد المستوى الرفيع الذى وصلت إليه الحضارة المصرية القديمة ، حين عرفت فى هذا الوقت المبكر ، أسرار النظريات الهندسية والعلاقات الرياضية بين المربع والدائرة والمثلث والاسطوانة والقمع والمستطيل وغير ذلك من الأشكال الهندسية ، وارتباط ذلك كله بعلم الحساب وعلم الفلك وحساب السنين لضبط التقويم ..

وقد بلغت الدولة القديمة أوج مجدها فى عصر ملوك الأسرة الرابعة الذين مازالت أسماؤهم تتردد بين الناس منذ حكموا وحتى الآن .. أى على مدى يقرب من [٤٧٠٠] سنة .. ومن ذا الذى يعيش فى أى مكان فى عالم اليوم دون أن يعرف شيئا عن الأهرام والملوك العظام خوفو وخفرع ومنقرع .. ؟ !

• تأكيد الذات المصرية ..

هذه النهضة الهندسية المعجزة التى تحققت أيام الدولة القديمة ، صاحبتها نهضات أخرى تمثلت فى رسوخ قواعد الحكم وسيطرة الدولة ، وإرسال الحملات العسكرية لتأمين الحدود المصرية وخلق الجو المناسب لمداومة الإنتاج المصرى فى ميادين الزراعة والصناعة ..

وفى عهد الدولة القديمة أيضا أرسلت أول البعوث الاستكشافية الجغرافية فى تاريخ الإنسان ، حيث توغل المصريون كثيراً فى قلب المناطق المدارية فى أفريقيا ، وعادوا بوصف دقيق لأحوال تلك البلاد ومنتجاتها .. والقصة التى دونها « حرخوف » وهو أحد كبار الموظفين الذين أوفدوا فى أول رحلة استكشاف جغرافى لمجاهل افريقيا ،تعتبر أول نص فى أدب الرحلات فى العالم ،لما فيها من طرافةوقدرةفائقةعلى الوصف .

كما أن الفنون الجميلة من نحت ونقش وتصوير ، قد وصلت فى عهد الدولة القديمة إلى أعلى درجة من الدقة والتنظيم ، ووضعت لها القواعد الصارمة ، وجعلت للفنون المصرية طابعها الخاص الذى تميزت به عبر آلاف السنين .

وكانت جامعة عين شمس ، أو « جامعة أون » كما كانت تسمى أيام الدولة القديمة أكبر مركز علمى فى العالم القديم ، تدرس فيه أسرار وعلوم الدين والفلسفة والعلوم المدنية الأخرى .

• ممنوع السخرة ...

هذا النظام الصارم الذى تحكم فى كل شىء فى خلال عصر الدولة القديمة ، والذى تمثل فى سيطرة الحاكم على كل شىء فى البلاد ، جعل بعض المؤرخين يصفون حكم ملوك الدولة القديمة بأنه كان حكما دكتاتوريا سافراً يقوم على مبدأ إخضاع الفرد للدولة ، والسيطرة التامة على جميع مظاهر حياة الشعب وطاقاته الإنتاجية ..

ولكن هناك مؤرخون يفسرون فلسفة الحكم فى عصر الدولة القديمة بأنه كان قائما على مبدأ « اشتراكى » ذى طابع خاص ، تسيطرُ فيه الدولة [أوالشعب ككل] على جميع وسائل الإنتاج والنشاطات الاقتصادية ، وتوجهها فى صالح الجماعة ككل طبقاً لقواعد صارمة ..

وأيا كانت تحليلات المؤرخين ، فإنه من المؤكد أن المصريين الذين كانوا يعيشون فى عصر الدولة القديمة ، كانوا خاضعين لنوع من الحكم يقوم على « التكافل الاجتماعى العام » والإيمان الشديد بحق كل إنسان فى المأكل والمأوى والأمن ، مادام يؤدى واجبه كفرد فى جماعة مترابطة محكمة التنظيم ..

وقد وقع هيرودوت فى خطأ الاعتقاد بأن الأهرامات قد بنيت بالسخرة التى كانت تفرض على مئات الآلاف من العبيد والفلاحين الذين كانوا يعملون مجانا ، وحكى

هيرودوت حكايات غريبة عن هذا الموضوع ، وكلها تتسم بالتخريف والمعلومات غير الصادقة ..

فقد أثبتت المُدَونات التاريخية التى تم العثورُ عليها ، أن الفلاحين والعمال والحرفيين الذين اشتركوا فى بناء الهرم ، كانت تصرف لهم الأجور المناسبة ، وتقدم إليهم وجبات الطعام فى أوقاتها المعتادة ، كما كانت تصرف لهم حصص عينية من الخبز والجعة والفواكة والخضروات والحبوب .

ولاشك أن تنفيذ عمليات الإمداد والتموين هذه ، لجيش هائل من المشتركين فى البناء ، يصل عدده إلى نحو مائة ألف عامل ، إنما يدل بصفة قاطعة على وجود هيئة متخصصة للقيام بهذا العمل طبقا لقواعد دقيقة فى حسن التنظم والادارة .

بل و يسجل تاريخ الدولة القديمة أن الملك « كاكاو » وهوأحد ملوك الأسرة الخامسة ، قد أصدر مرسوما ملكيا يتضمن تفصيلات مطولة لقواعد العلاقة بين الدولة وبين الذين يعملون من أجل الدولة من عمال وفلاحين وحرفيين .. ويمنع فيه « السخرة » ويحرمها تحريما ، بل ويجعلها جريمة يستحق مرتكبها العقاب ، وأوصى بأن ينال العامل الأجرالذى يستحقه على الفور ، وأن تسود العدالة عند حسن الجزاء وسوء العقاب .

• أول ثورة اجتماعية فى العالم ..

أعقبت سقوط الدولة القديمة فترة زمنية امتدت نحو [٢١٨] سنة على وجه التحديد ، فقد بدأت عام ٢٢٥٨ ق . م وانتهت عام ٢٠٤٠ ق . م حين قامت « الدولة الوسطى » .

وتعتبر هذه الفترة حالكة الغموض فى تاريخ مصر القديم الذى أصبح الآن واضحا عدا بعض الفترات الزمنية التى مازال يعتريها الظلام ، ومازالت تتضارب فيها الأقاويل .

ومازال علماء المصريات مختلفين فى تفسير الأسباب التى أدت إلى سقوط الدولة القديمة وسقوط البلاد بالتالى فى عصر سادت فيه الفوضى محل النظام ، كما حل فيه الخراب محل الرخاء .

هناك نظرية تقول إن الدولة القديمة لايمكن أن يكون قد انتهت هذه النهاية المفجعة إلاّ بسبب حدوث سلسلة من الكوارث الطبيعية التى أدت الى إنهيار نظم الرى الرئيسية فى البلاد ، وبالتالى إنهيار كل النظم الاقتصادية والاجتماعية والدينية ..

وهناك نظرية أخرى ترى أن الحضارات على وجه العموم لها « دورات » بمعنى ان الحضارة تنشأ ثم تزدهر ثم تنهار.. وهذا هو ما حدث بالفعل بعد بلوغ الدولة القديمة قمة عظمتها..

وكان آخر ملك تولى عرش مصر من ملوك الأسرة السادسة، هو الملك « بيبى الثانى » وقد جلس على العرش وعمره ست سنوات فقط، ولكنه استمر يحكم حتى مات فى النهاية وعمره مائة سنة. أى أن مدة حكمه قد بلغت ٩٤ عاماً، وهى أطول مدة يذكرها تاريخ العالم لحاكم استمر يحكم الناس هذه الفترة الطويلة..

وهناك الكثير من الشواهد التاريخية التى تدل على أن سلطان الملوك قد أخذ يتقلص، وتزداد بالتالى سلطات الوزراء وكبار الموظفين وحكام الأقاليم، فاختل على الفور النظام الصارم المحكم الذى كان سائداً أيام خوفو وغيره من ملوك الأسرة الرابعة.. وكان لابد أن يؤدى ذلك إلى انهيار نظام الطبقات وحدوث انقلاب اجتماعى يشمل كل الناس.

ولقد تجرأ أحد حكماء المصريين من أبناء الشعب، وخاطب فرعون مصر ليخبره بسوء الحالة:

« إن القيادة والفطنة والصدق معك، ولكنك لا تنتفع بها.. فالفوضى ضاربة أطنابها فى طول البلاد وعرضها.. ولكنك مع ذلك تتغذى بالأكاذيب التى تتلى عليك.. فالبلاد قش ملتهب والإنسانية منحلة.. ليتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك.. ».

ولعل السبب المباشر لضعف قوة الملوك يرجع إلى تلك « التفويضات » التى كان يمنحها فراعنة الأسرتين الخامسة والسادسة إلى حكام المدن والأقاليم فى كل من الوجهين القبلى والبحرى. الأمر الذى أدى إلى تمزق البلاد بين هؤلاء الحكام، فتفككت أركان الدولة، وأصبحت إقطاعيات وولايات مستقلة يحارب بعضها بعضاً فى سبيل السيطرة و بسط النفوذ بقصد إعادة توحيد البلاد تحت حكم مركزى كما كانت من قبل.

و بالفعل نجح بعض فراعنة الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة فى فرض سيطرتهم على أكبر عدد ممكن من الأقاليم المصرية، ولكن أحدهم لم ينجح فى اعادة توحيد الوجهين القبلى والبحرى تحت عرش مركزى واحد..

• الانقلاب الطبقى ..

وقد أدى سوء الأحوال السياسية فى البلاد إلى التسيب فى كل شىء وحدث خلل اقتصادى أدى بدوره إلى الخراب والفوضى ، وقامت الجماهيرُ العادية بأول ثورة اجتماعية فى العالم ..

وهكذا هجم الفقراء على قصور الفراعنة و بيوت النبلاء والأغنياء ، ونهبوا كل شىء من الممتلكات العقارية والمنقولات .. و بين عشية وضحاها حدث انقلاب فى طريقة « التسكين » فى هيكل النظام الطبقى ، أى أن النظام ظل موجوداً ، ولكن الذين كانوا أغنياء و ينعمون بالخير الوفير أصبحوا فقراء لايجدون الطعام ، هذا إذا نجوا من عمليات الذبح والتقتيل التى عمت البلاد كلها ضد الأغنياء والنبلاء وموظفى الدولة والقضاة وكل من يمثل السلطة .

ومن المؤكد أن النساء الفقيرات المصريات قد اشتركن فى عمليات السلب والنهب التى سادت فى كل مكان ، واستولين على ماكانت تقتنيه السيدات النبيلات من مجوهرات ومشغولات ذهبية وملابس وعطور وأدوات تواليت :

« ومن كانت لا تملك من قبل صندوقا صغيراً ، أصبح لديها الآن صوان كبير.. ومن كانت ترى وجهها فى الماء ، أصبحت الآن صاحبة مرآة .. ! »

أما السيدات النبيلات و بنات الأسر الكبيرة ، فقد أصبحن يتجولن فى الشوارع بلا مأوى ، و يرتدين خرقا بالية ممزقة لا تستر أجسادهن كما يجب ، و يقلن لأنفسهن : **« ليتنا نجد شيئًا نأكله .. ! »**

كذلك فقد سادت موجة عارمة من الإلحاد وعدم الإيمان بالدين أوبالآلهة على وجه العموم ، وظهرت اتجاهات وفلسفات مادية تدعوإلى اعتناق مبدأ « اللذة » أو « المتعة » باعتبارها الطريقة الوحيدة المضمونة لسعادة الإنسان . وقال عازف الهارب فى احدى أغانيه :

« لا تصدق كل مايقولونه لك فى المعابد .. من ذا الذى عاد من العالم الآخر ليخبرنا بما يجرى فيه .. متع نفسك واغتنم اللذائذ وابعد عن الشر.. ! »



رع حتب وزوجته نفرت [من النبلاء] .. من أجمل تماثيل الدولة القديمة .

وتسجل النصوص القديمة التى دونت فى تلك الفترة من تاريخ مصر، وصفاً دقيقاً للفوضى والاضطراب الشامل الذى ساد البلاد، وعمليات نهب محتويات المقابر وإلقاء الجثث على الأرض، وتدمير دور الحكومة ودور المحاكم، وتمزيق القوانين والمراسيم وإلقائها فى الشوارع لتدوسها الأقدام، والإحساس الفظيع بعدم الأمن، حيث أصبح الرجل لايذهب إلى عمله إلا وهو مسلح ليتقى شر اللصوص وقطاع الطرق، وأصبح الإنسان يفر من أخيه دون أن ينقذه من الذبح، وسيطرت على الحياة اليومية لكل المصريين سحابات كثيفة من الكآبة والحزن واليأس من إمكانية النجاة..

«وقضى على الضحك، ولم يعد يسمع سوى صوت الحزن والبكاء..!»

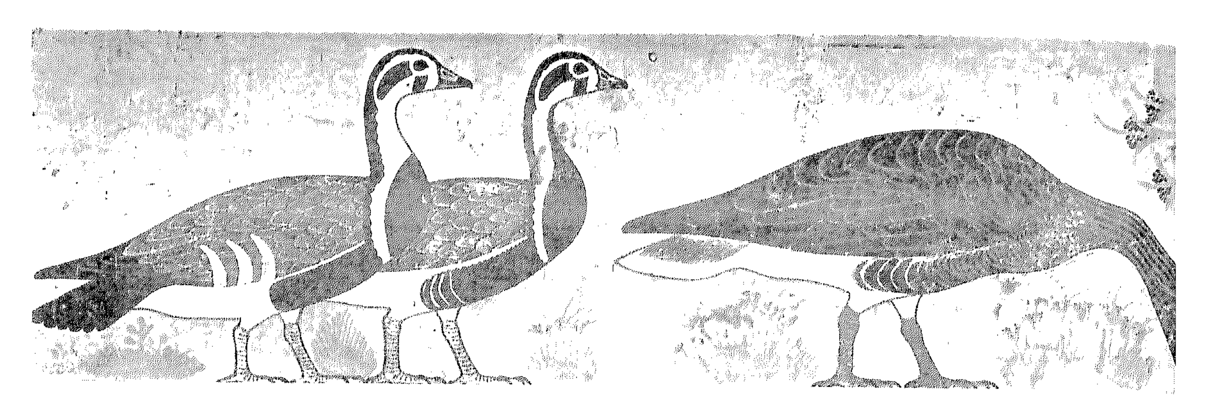
وزاد الطين بلة، أن تعرضت البلاد فى هذه الفترة المظلمة إلى عديد من الهجمات والغزوات من جانب قبائل الآسيويين وقبائل الليبيين والنوبيين..

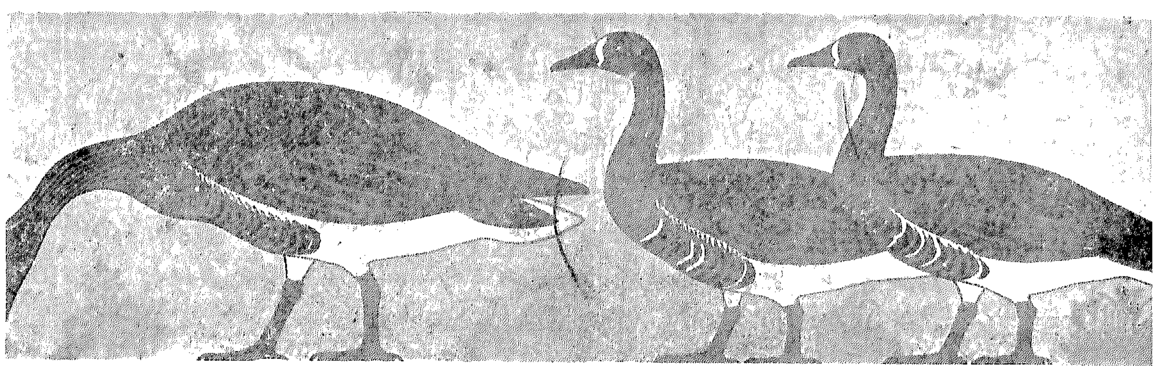
• العصر الذهبى للأدب..

وهناك إجماع بين علماء المصريات على أن هذه الفترة المظلمة من تاريخ مصر كانت مع ذلك من أزهى الفترات التى ازدهر فيها الأدب المصرى الكلاسيكى القديم..

ولا غرابة فى ذلك، حيث تدل النصوص التى وصلتنا من هذه الفترة، على أن الأدباء والمفكرين والحكماء الذين كانوا يعيشون فى فترة التحول من العظمة إلى السقوط، قد حدثت لهم صدمة عنيفة ملأت نفوسهم بالمرارة على هذا المجد التليد الذى انهار أمامهم فى غمضة عين، فانطلقوا يعبرون عن أحاسيسهم ومشاعرهم الخاصة فى الظروف وأحداث الواقعية التى أصبحوا يعايشونها مرغمين.. وجاءت نصوصهم مفعمة بالحزن على ماآلت إليه البلاد وأحوال الناس..

ومن النصوص الأدبية المطولة التى وصلتنا من تلك الفترة **«تعاليم الحكيم إيبور»** وهى تقدم وصفا تفصيليا دقيقا للأحداث الدامية المفجعة، والرعب والخوف والاضطراب الذى أصبح يملأ النفوس، بالإضافة إلى تفصيلات أخرى عن الانقلاب الطبقى الذى دمر كل شىء، وأختتم إيبور تعاليمه بما يراه من نصائح لإزالة الأسباب التى أدت إلى كل هذا الدمار والخراب، وإعادة الأمن والنظام والرخاء..





الأوز الجميل .. لوحة رائعة عثر عليها بمقبرة أميرة صغيرة من الدولة القديمة [منذ نحو ٤٥٠٠ سنة]



عازف الهارب يغنى : متع نفسك واغتنم اللذائذ وابعد عن الشر.. !

ومن جمال الأسلوب الأدبى الذى كتب به الحكيم إيبور تعاليمه ، فقد لاقت هذه التعاليم قبولاً شديداً لدى المصريين فى عصورهم اللاحقة ، حيث أصبحت دروساً مقررة يتمرن عليها التلاميذ فى المدارس ، لفترة استمرت أكثر من ألف سنة لاحقة على الوقت الذى كتبت فيه ..!!

ومن النصوص الأدبية الرفيعة التى وصلتنا أيضا من هذا العصر **«تعاليم الملك خيتى لابنه مرى كارع»** وهى على شكل نصائح ووصايا من ملك لملك ، عن الطرق المثلى فى المحافظة على النظام الملكى وعلى العرش ، وأفضل الطرق لحكم الرعية ، ومعاملة المحكومين بالعدل ..

ويعتبر نص **«حديث إنسان يائس مع روحه التعسة»** أول نص «مونودراما» فى تاريخ العالم . وهو عبارة عن «حوار» درامى بين إنسان طيب رقيق الروح أحس أنه يعيش وسط عالم مضطرب خال من الأخلاق الرفيعة ، وساد فيه الظلم والغدر والخيانة والغش وانعدم فيه الوفاء .. لذلك فقد صمم هذا الإنسان الملتاع على الانتحار، فوقف على حافة القبر، ولكن روحه أبت أن تموت ، فدار بينه وبين روحه حوار حار مثير عن فكرة الموت وفلسفة مابعد الحياة ..

أما **«شكاوى الفلاح الفصيح»** فبالرغم من أن الرأى الراجح الآن أنها كتبت كنص أدبى فى عصر الدولة الوسطى ، إلا أن أحداث هذه الشكاوى قد وقعت أثناء حكم الملك خيتى الذى كان يحكم اهناسيا وبعض الأقاليم المصرية الأخرى فى أواخر تلك الفترة المظلمة من التاريخ المصرى ..

وبكل المعايير النقدية ، تعتبر شكاوى الفلاح الفصيح ، إحدى القمم العالية التى ارتقى إليها الأدب الرفيع فى مصر القديمة .. فإلى جانب أسلوبها الرصين ، وجرأتها الشديدة فى مواجهة الظلم ، وقدرتها الفائقة على تحليل المنطق والعدل ، فأنها تتضمن أيضا أحداثا درامية وعناصر مسرحية كاملة .. !

ولكن كيف زالت هذه الغمة عن تاريخ مصر .. وكيف سطعت شمس حضارتها من جديد ، لتملأ البلاد بالنور ووفرة الرزق .. ؟ !

هل كان الممكن أن يستمر هذا الخراب الذى حاق بالبلاد نتيجة لتلك الثورة إلى مالانهاية .. وهل قدر لتلك المنازعات والحروب التى قامت بين الاقطاعيين وحكام الأقاليم المصرية أن تصبح هى الصورة النكدة التى تصبح عليها البلاد وتمسى ؟ !

• عودة النظام والرخاء ..

لقد استمرت الفوضى من عام ٢٢٥٨ ق . م حتى عام ٢٠٤٠ ق . م .. أى نحو ٢١٨ سنة كانت فيها الكفاية .. وفى أعماق الصعيد [منطقة الأقصر] نشأت إحدى الأسر القوية التى جعلت هدفها منذ البداية إعادة توحيد الوجهين وقيام الدولة المصرية من جديد .. وكان هذا الهدف فى حد ذاته بعيد المنال ، إذ كان لابد أولاً من القضاء على سلطات حكام الأقاليم المستقلة والقضاء على نظام الإقطاع الذى كان السبب المباشر فى تمزيق البلاد .

ومع ذلك فقد استطاع الملك « منتوحتب الثانى » ـــ وهو أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة ـــ أن يعيد توحيد الوجهين و يقيم حكومة مركزية جديدة تسيطر على جميع البلاد ، وتهيمن على كل المصريين .. تماماً كما كان الحال أيام الدولة القديمة ..

وهكذا ظهرت فى التاريخ المصرى فترة جديدة اصطلح المؤرخون على تسميتها منذ القدم باسم « الدولة الوسطى » ..

وقد استمرت هذه الدولة باستمرار حكم الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة .. أى من عام ٢٠٤٠ ق . م حتى عام ١٧٨٦ ق . م ، وهى فترة تبلغ ٢٥٤ سنة على وجه التحديد .. وظهرت فى التاريخ المصرى أسماء ملوك عظام مثل منتوحتب .. وأمنمحعت .. وسنوسرت [المشهور باسم سيزوستريس] ..

وقد دخل ملوك هاتين الأسرتين تاريخ مصر ومعهم أعمالهم العظيمة التى عادت بالخير على كل البلاد .. فقد كان الهم الأكبر لهؤلاء الملوك ، هو عودة الأمن والطمأنينة إلى نفوس الناس ، حتى يمكن فرض النظام والقانون ، وإعادة عجلة الإنتاج إلى الدوران فى كافة الميادين الزراعية والصناعية والتعدينية ..

و يقول معظم علماء المصريات ، أن مصر قد وصلت فى عهد الدولة الوسطى إلى عصر من الرخاء العام لم تصل إليه البلاد فى أية فترة من تاريخها السابق .. و يرجع هذا الرخاء العام بصفة أساسية إلى وفرة الإنتاج مع تطبيق سياسة أو مبدأ التكافل الاجتماعى ..

• خطط .. لزيادة الإنتاج ..

ومن الثابت تاريخيا أن ملوك الدولة الوسطى قد أعادوا تشغيل شبكة الرى فى طول

البلاد وعرضها ، وذلك بإعادة حفر وتطهر الترع والقنوات ، وإنشاء العديد والجديد من الترع الكبرى ومايتفرع منها من مئات القنوات الجديدة .

كذلك فقد قام بعض النبهاء من ملوك هذه الدولة بإدخال تحسينات هندسية جوهرية على نظام الرى الذى يعود بالنفع المباشر على البلاد كلها ، فأصلحوا عشرات الآلاف من الأفدنة فى إقليم منخفض الفيوم .. وأنشأوا هناك أول نظام يقيمه الإنسان لتخزين المياه على نطاق واسع ، لاستخدامها فى رى المحاصيل وزيادة الرقعة الزراعية على وجه العموم .

وإلى جانب هذه النهضة الزراعية حقق ملوك الدولة الوسطى نهضة أخرى فى ميادين الصناعة والتجارة والتعدين .. فقد عادت الصناعات المصرية التقليدية إلى الازدهار مرة أخرى مع إدخال الكثير من التحسينات سواء فى التصميم والذوق العام ، أوفى أدوات ووسائل الانتاج نفسها ..

كذلك فقد أرسلت البعثات لتنشيط الإنتاج التعدينى فى شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية لاستخراج الذهب والفيروز والمعادن الأخرى اللازمة للصناعات التى كانت موجودة أيامئذ ، خصوصاً المواد الأولية اللازمة لصناعة الزجاج والخزف وصناعة الصباغة وتجهيز الألوان .. كما أرسلت البعثات إلى لبنان للحصول على الأخشاب .. وإلى بلاد بونت لإحضار البخور والعطور والتوابل ..

● أدب النعيم .. وأدب الشقاء

هناك نظرية يقول بها بعض علماء المصريات ، مفادها أن السر فى ازدهار الأدب المصرى فى عصر الاضمحلال الأول وعصر الثورة الاجتماعية ، إنما يرجع بصفة أساسية إلى حالة البؤس التى عاناها الشعب فى خلال ذلك العصر لأن الإنسان أقدر على وصف بؤسه وشقائه ، وتقل قدرته على وصف نعيمه وهنائه .

غير أن هذه النظرية لا تصمد أمام الحقيقة المبهرة المتمثلة فى انتشار التعليم انتشاراً واسعاً فى عهد الدولة الوسطى وما أدى إليه ذلك من انتشار وازدهار الأدب القصصى والروائى والأدب المسرحى وأدب النصائح والحكمة والتعاليم والقصائد الشعرية الكلاسيكية ، والنصوص الدينية وقصائد الأغانى الشعبية ..

وأهم الآثار الأدبية التى ترجع إلى الدولة الوسطى « **قصة سنوحى** » وهى مزيج أدبى رفيع من الحوادث التاريخية الواقعية المصاغة فى إطار قصصى واوصاف أدبية لجغرافية

البلاد الآسيوية التى عاش فيها سنوحى أثناء فترة منفاه من مصر، مع الكثير من الحكم الفلسفية والأقوال المأثورة عن الحياة والناس ..

كذلك قصة « الملاح الغريق » وهى تفوق قصص مغامرات السندباد البحرى ، ولها مغزى أخلاقى نبيل يتمثل فى ضرورة أن يحافظ الإنسان على شجاعته ورباطة جأشه وثقته بنفسه عند مواجهة الشدائد حتى يتغلب عليها ..

● الهجوم خير وسيلة للدفاع

وقد تنبه ملوك الدولة الوسطى إلى أن خضرة وادى النيل المصرى فى الدلتا ومصر العليا ، وماتحفل به البلاد من خيرات ، هى السبب الأول الذى يجعل مصر مطمعاً لكل الشعوب التى تعيش فى المناطق القاحلة الجرداء المجاورة للحدود المصرية من الشرق ومن الغرب ومن الجنوب .. لذلك فقد كانت القاعدة لدى ملوك مصر العظام جميعاً ، هى الأخذ بالنظرية العسكرية التى تقول إن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع .. فكانوا يخرجون باستمرار على رأس الجيوش المصرية لتأديب قبائل المغيرين الآسيويين والليبيين والنوبيين .. أو على الأقل كانوا يرسلون الحملات العسكرية لأعمال التأديب والتذكير المستمر بقوة مصر وقدرتها على صد الطامعين فيها ..

وقد تجاوز ملوك الدولة الوسطى مرحلة التأديب ، وفضلوا ضم هذه الأقاليم إلى الأراضى المصرية ، وفرض السيطرة والقوانين واللغة والديانة وطريقة الحياة المصرية على هذه الأقاليم ..

وعلى هذا خرجت الحملات العسكرية المصرية بقيادة ملوك الدولة ، لتأمين حدود مصر الغربية وتأديب قبائل البدو المغيرين ، وتأمين الحدود الشرقية بمد النفوذ المصرى إلى مناطق سوريا ولبنان وفلسطين .. كما استولوا على بلاد النوبة حتى الجندل الثانى وضموها نهائيا إلى الأرض المصرية .

ولذلك يقول بعض المؤرخين أن ملوك الدولة الوسطى هم الذين وضعوا بذرة الامبراطورية المصرية التى ازدهرت وأثمرت تماماً فى عهد ملوك وأباطرة الدولة الحديثة الذين حكموا البلاد بعدهم بنحو (٥٠٠) سنة .. !

• قصر التيه .. !

وقد غدر الزمن بمعظم الآثار التى خلفها ملوك الدولة الوسطى ، ولكن التاريخ المصرى حافل بأوصاف العديد من المنشآت المعمارية الضخمة التى شيدها هؤلاء الملوك ، من قصور ومعابد وأهرام وتماثيل ومسلات ..

ومن أعظم تلك الآثار قاطبة ذلك القصر الذى بناه فى الفيوم « امنمحعت الثالث » ـ وهو أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة ـ ذلك القصر الأعجوبة الذى كان يسمى قصر اللابيرانت أو « قصر التيه » ..

وقد قام هيرودوت واسترابون وغيرهما من المؤرخين القدماء بزيارة هذا القصر العظيم الذى كان قد مر على بنائه ـ أيامهم ـ أكثر من [١٥٠٠] سنة ، وكان مازال محتفظا برونقه .. وقد قال المؤرخان فى وصف هذا القصر العظيم ما يؤكد أنه كان أضخم الأبنية على وجه الأرض ، بل وأعظم من الهرم نفسه .. وكان يتكون من [٣٥٠٠] حجرة ! .. تفصلها شبكة هندسية معقدة من الدهاليز والممرات والقاعات ذات الأعمدة الضخمة .

وكان القصر مكونا من مستويين .. مستوى علوى فوق سطح الأرض ، وهو الجزء الظاهر من القصر ، ومستوى سفلى آخر تحت سطح الأرض ، وفيه حجرات ودهاليز وقاعات غير مسموح بالدخول اليها ..

ولعل أكبر دليل على مدى ضخامة هذا القصر العظيم أنه قد استعمل كمحجر يسطو عليه أهالى المنطقة ليخلعوا منه الأحجار اللازمة لمبانيهم ومساكنهم على مدى أربعة آلاف سنة ، حتى كادت أطلال القصر أن تزول تماماً ، وقد قضى على البقية الباقية من هذه الأطلال فى بناء خط حديد الفيوم فى أواخر القرن التاسع عشر .. !

٢١٦ سنة هكسوس .. !

عندما أصبحت مصر غنية بالخيرات التى وفرتها الإصلاحات الاقتصادية التى تحققت فى الدولة الوسطى ، سال لعاب البدو الرعاة الذين كانوا يعيشون فى الصحارى والسهول الآسيوية بشرق البلاد .. ولهذا فقد ازدادت فى البداية أعداد الوافدين والمتسللين من هؤلاء الرعاة ، ثم جاءت بعدهم جحافل وقبائل متعددة ، فرضت وجودها بالقوة العسكرية ..

هؤلاء هم « الهكسوس » أو « الملوك الرعاة » أو « الرؤساء الأجانب » طبقا للترجمة الحرفية لكلمة هكسوس ..

استقر هؤلاء الهكسوس فى مصر بأعداد كبيرة ، واستطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم على الدلتا ثم على الوجه القبلى فيما بعد وعينوا رئيسهم ملكاً على عرش مصر .

وفى بداية احتلالهم الاستيطانى للأراضى المصرية ، مارس هؤلاء البرابرة الأجلاف الحاقدين على مصر وماتتمتع به من خيرات ، كل ألوان الذل والهوان ضد المصريين بطبقاتهم المختلفة وعاملوهم بقسوة ، وأعملوا فيهم القتل والتعذيب .. ثم أخذوا يدمرون ويخربون المعابد والتماثيل والمسلات وجميع الآثار الأخرى التى كانت تذكر المصريين بعظمة ملوكهم السابقين ..

غير أن إقامة الهكسوس وسط الشعب المصرى المتحضر ، قد خففت من طابع القسوة والبداوة الفظة التى مارسها الهكسوس فى أول الأمر ، واكتفوا بفرض الجزية على كل الأقاليم المصرية ..

و بدأ الهكسوس يقلدون المصريين فى عاداتهم وطرق حياتهم ، و يعتنقون الثقافة المصرية ، بل و يؤمنون أيضا بالديانة المصرية حيث جعلوا عبادة الإله المصرى « ست » وهو إله الشر ، هى الديانة الرسمية للدولة التى أقاموها فى الدلتا ، والتى اختاروا لها عاصمة فى الشرق تسمى « أڤاريس » أو « أواريس » .

و يرجع التفوق العسكرى للهكسوس إلى أنهم كانوا جميعاً مسلحين بأسلحة مصنوعة من الحديد والبرونز ، وأنهم كانوا يستعملون العجلات أو العربات الحربية التى تجرها الخيول ، وهذه النوعية من التسليح لم تكن معروفة بعد فى مصر .. هذا بالإضافة إلى الصلافة والشراسة التى طبع عليها الهكسوس من طول الحياة البدائية التى قضوها فى الصحراء ..

● سيدنا يوسف .. فى عهد الهكسوس

أرجح الآراء السائدة أن النبى يوسف عليه السلام حين جاء إلى مصر وأصبح أمينا على خزائنها ، كان ذلك فى عصر أحد ملوك الهكسوس الذين كانوا يحكمون مصر فى تلك الفترة .



• شهيد التحرير..

وهكذا خرج أحد ملوك هذه الأسرة، وهو الملك « سقنن رع » الملقب بالشجاع، على رأس جيش يمثل مسيرة حربية، انضم إليها الكثير من أبناء الشعب من الفلاحين والعمال والحرفيين، والتحم مع الهكسوس بادئا حرب تحرير مقدسة.

وسقط الملك الشجاع « سقنن رع » شهيداً فى أرض المعركة .. ولكن الحرب مع ذلك استمرت بقيادة ابنه الملك « كاموس » الذى حاصر الهكسوس فى عاصمتهم الحصينة « أفاريس » وجعلهم لايجسرون على مجرد الخروج منها ..

وكذلك فقد استطاع هذا الملك أن يقضى على مؤامرة دبرها ملك الهكسوس مع ملك كوش « النوبة » لكى يقوم النوبيون بغزو البلاد من ناحية الجنوب، لتشتيت الجيش المصرى بين حرب فى الجنوب وحرب فى الشمال ..

• أول بطل تحرير فى العالم..

غير أن القضاء نهائيا على حكم الهكسوس فى مصر قد تم على يد الملك « أحمس » الشقيق الأصغر للملك « كاموس » والذى تولى قيادة الجيش من بعده، والذى استحق بكفاءة أن يتصدر قائمة أبطال التحرير فى جميع أنحاء الأرض وعلى طول التاريخ المعروف للشعوب ..

كان تعداد جيش التحرير المصرى تحت قيادة أحمس، يبلغ نحو[٤٨٠] ألف محارب من الضباط والجنود الفرسان والمشاة .. وكان هذا الجيش الكبير يشع حماسا ووطنية، ويحارب بروح عالية، وتسيطر عليه فكرة واحدة هى تحرير البلاد من المستعمرين الأجانب وطردهم إلى خارج الحدود ..

وكان تسليح هذا الجيش يعتمد أساسا على أسلحة مصنوعة من « البرونز » وهو نفس المعدن المستخدم فى صنع أسلحة الهكسوس التى استطاعوا بها فرض سيطرتهم على مصر، كما كانت هناك فرق كاملة من الفرسان والرماة راكبى العجلات الحربية التى تجرها الخيول، وهى السلاح الحربى الذى اعتمد عليه الهكسوس وأتاح لهم الغلبة على المصريين فى المعارك القليلة التى دارت رحاها بين الجانبين ..

• مطاردة خارج الحدود ..

تمكن أحمس من طرد الهكسوس نهائيا ، وطهر جميع الأراضى المصرية من الاحتلال الأجنبى .. وطارد أعداءه الذين كانوا يفرون أمامه حتى شمال سوريا ..

وتمكن أحمس بعد تحقيق هذه الانتصارات المصرية فى الشمال من التوجه بالجيش المصرى إلى الجنوب ، ليعيد بلاد النوبة إلى سيطرة الحكم المصرى ، وذلك بعد أن أعلنت بعض المناطق النوبية انفصالها عن مصر أثناء انشغالها بحرب الهكسوس ..

وكذلك فقد تمكن أحمس من القضاء نهائيا على جميع الإقطاعيين وحكام الأقاليم الانتهازيين من المصريين الذين كانت تربطهم مصالح مشتركة مع المستعمرين الهكسوس ..

وهكذا وحد أحمس جميع الأراضى المصرية تحت حكم مركزى عاصمته « طيبة » .. كما وسع حدود البلاد من ناحيتى الشمال والجنوب .. واستحق بذلك أن يصبح مؤسساً لأسرة ملكية « امبراطورية » جديدة .. هى الأسرة الثامنة عشرة ، التى تعتبر أشهر الاسرات الملكية فى تاريخ العالم المعروف .. كما استطاع أن يكون على رأس فترة تاريخية جديدة أصبحت معروفة باسم « الدولة الحديثة » .. وهى قمة فريدة من قمم الحضارة المصرية ..

• أشهر أسرة ملكية فى العالم

وبعد طرد الهكسوس خارج البلاد وتأمين حدودها .. رأى القادة العسكريون المصريون أن الدفاع عن بلادهم الحافلة بالخيرات ، والتى تعتبر مطمعاً للقبائل والشعوب التى تعيش فى شرق وشمال وغرب وجنوب البلاد ، لابد أن تكون له استراتيجية تتمثل فى القضايا والمسلمات التالية :

بما أن مصر حافلة بالخيرات ، فلابد أن يطمع فيها الأجانب .. وإذا اتحدت البلاد وقوى جيشها وهب أبناؤها للذود عنها ، فلا يمكن للأجانب أن يفكروا فى غزو مصر أو الإغارة على حدودها ..

ولكن لكى يلزم هؤلاء الأجانب حدودهم و يكفوا أذاهم أويرفعوا أيديهم عن مصر ، فلابد من قيام الحملات العسكرية المصرية بتأديبهم بين حين واخر ، وتذكيرهم بقوة

مصر بصفة مستمرة .. واذا استدعى الأمر فلا بد من إخضاع الأقاليم التى يعيش فيها هؤلاء الأجانب ووضعها تحت سيطرة الحكم المصرى ..

كانت هذه هى الاستراتيجية التى وضعت فى عهد « أحمس » واستمرت بعده نحو [٥٠٠] سنة .. أو ٤٨٥ سنة على وجه التحديد .. أى طوال عصر الإمبراطورية المصرية التى أرست قواعدها تلك الأسرة الملكية العظيمة التى أسسها بطل التحرير « أحمس » سنة ١٥٨٠ ق . م .. الأسرة الثامنة عشرة ..

ومن أصعب الأمور عرض وتلخيص التغييرات الجذرية الهائلة فى الحضارة المصرية ، والتى تمت على أيدى ملوك وملكات هذه الأسرة . فقد شملت هذه التغييرات والتحولات الكبرى كل مناحى الحياة المصرية ، فى نظام الحكم والادارة والاقتصاد والحياة الاجتماعية لمختلف طبقات الشعب .. كما كانت هناك « انقلابات » حدثت فى مفاهيم الأدب والفن ومفاهيم الدين ..

ولما كان تاريخ جميع ملوك هذه الأسرة فى غاية الأهمية ، وكلهم معروفون بالاسم ولهم شهرة تكاد أن تغطى جميع أنحاء العالم المعاصر ، فقد رأينا أن نعرض أسماء ملوك وملكات هذه الأسرة ، مع بيان موجز غاية الإيجاز عن أهم الأعمال المدنية والعسكرية التى تمت أثناء فترة حكم كل ملك .. وقد بدأنا بمعرفة أحمس بطل التحرير ورب هذه الأسرة ، ولنتابع الآن سلسلة الملوك الآخرين حسب الترتيب التاريخى لعهودهم ..

* أمنحتب الأول : العادل

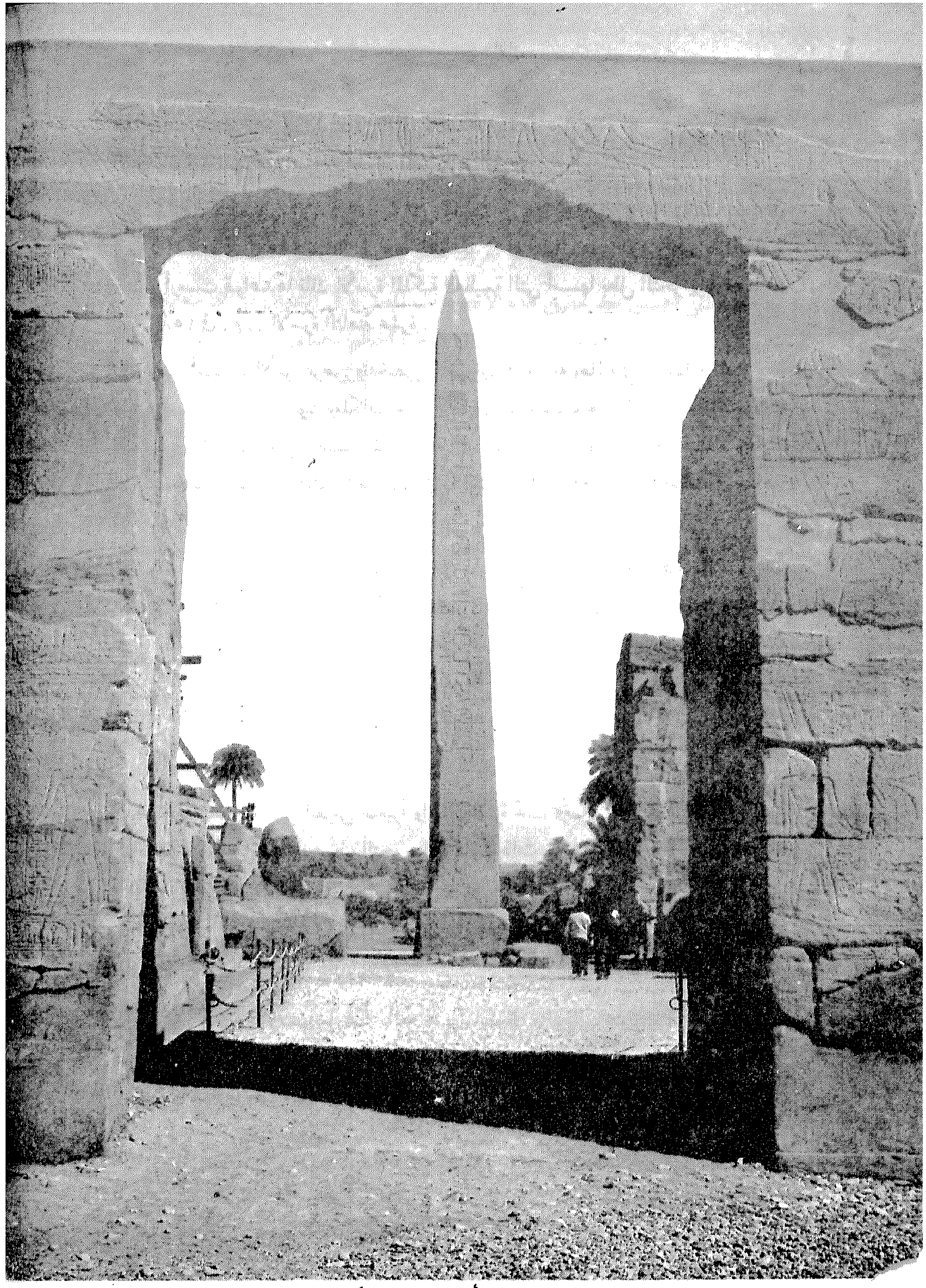
ابن أحمس . تولى العرش صغيراً واستمر لفترة تحت وصاية أمه الملكة نفرتارى التى ساندت زوجها أثناء حرب التحرير ، وكانت ذات شخصية قوية وعلى دراية عظيمة بأساليب الحكم والإدارة .

بدأ تأسيس الامبراطورية المصرية بفرض السلطة المصرية على أقاليم ماوراء الحدود [المناطق الآسيوية والليبية والنوبية] .

أصدر قانونا أو دستورا لحكم العلاقة بين العمال والدولة باعتبارها صاحبة العمل ، فوضع المعايير العادلة للأجور وحوافز مكافأة المجتهدين ، وضرورة حسن معاملة العمال ومنع السخرة واعتبارها جريمة ..

* تحوتمس الأول : المحارب

فرض الحكم المصرى جنوبا حتى الجندل الثالث ، وفتح الكثير من المناجم لاستخراج



مسلة تحوتمس الأول .. بمعابد الكرنك .

الذهب والحديد والنحاس والمعادن الأخرى ، وقام بعدة حملات عسكرية فى فلسطين وسوريا ولبنان ، ووصل فى زحفه إلى نهر الفرات .

فى عهده انتشر التعليم وارتقت طبقات كثيرة من الشعب ، وازداد عدد المثقفين ، وبدأ صراع خفى بين المنادين بفكرة « **الحرب** » لنشر الحضارة المصرية فى البلاد الأجنبية ، والمنادين بفكرة « **السلام** » القائم على التجارة وحسن الجوار كطريق لتحقيق نفس الهدف .. وهو تيار انتصر فى عهد الملكة حتشبسوت .

* تحوتمس الثانى : المتأنق

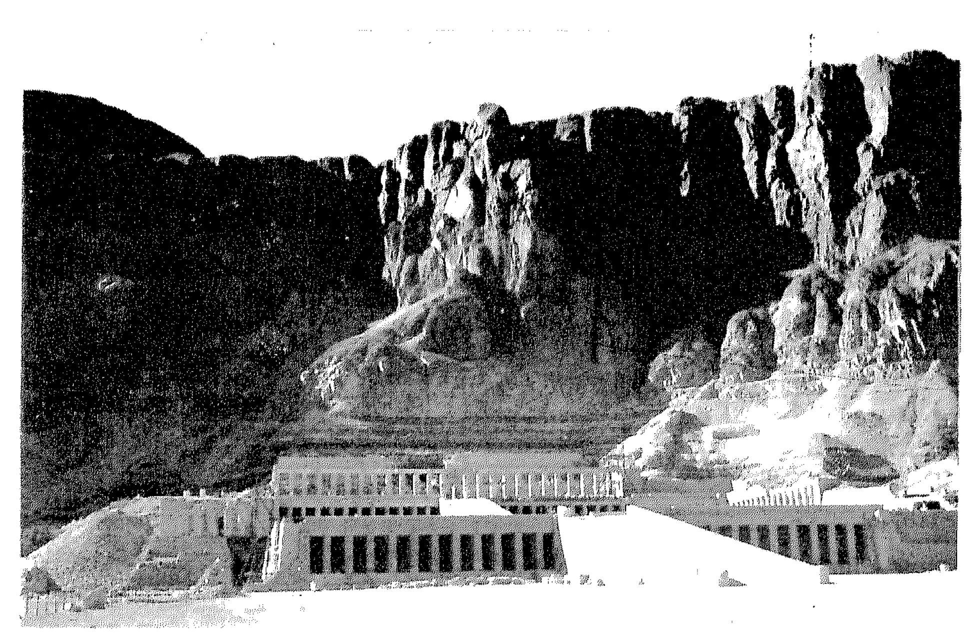
كان ضعيف الشخصية مهتما بذاته والتمتع بثرائه . وقد بالغ فى تأنقه لدرجة أنه كان يطلى أظافر قدميه بالألوان « بيديكير » . ولذلك فقد سيطرت عليه زوجته الملكة حتشبسوت ، وسيطرت بالتالى على توجيه دفة الحكم .

* حتشبسوت : سيدة النساء الشريفات .

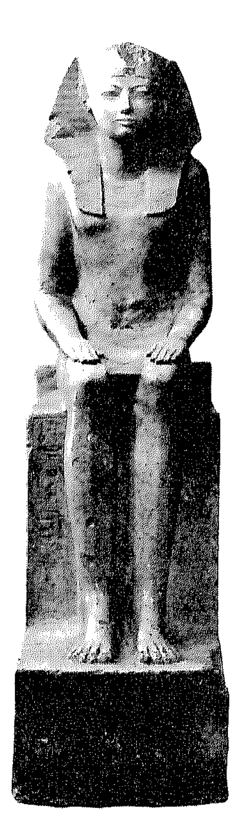
انتصر فى عهدها الذى استمر نحو عشرين عاماً التيار الذى يمثله حزب الكهنة والمثقفين ، فى المنافسة التى كانت بينه وبين حزب المؤسسة العسكرية المصرية . وعلى هذا فقد ساد السلام ربوع البلاد ، وخرجت القوافل والأساطيل البحرية التجارية المصرية ، تحمل المنتجات والمصنوعات المصرية إلى البلاد الأجنبية فى أقصى الشمال وأقصى الجنوب ، لتبادلها بمنتجات تلك البلاد .

وشيدت حتشبسوت واحداً من أعظم وأفخم الآثار المعمارية التى خلفتها الدولة الحديثة ، وهو معبد الدير البحرى على الشاطىء الغربى للنيل فى مواجهة طيبة « الأقصر » . وهو معبد فريد فى بابه ، وليس له مثيل فى معابد العالم القديم كله .. وقد وضع هندسته وتصميمه وأشرف على الأعمال التنفيذية لبنائه ، المهندس الشاب « سننموت » الذى أصبح المستشار الأول للملكة فى كل الأمور ، والذى يقول عنه بعض المؤرخين أنه كان على « علاقة ما » بالملكة نفسها ..

وعلى جدران هذا المعبد العظيم الذى مازال محل إعجاب كل من يشاهده ويرتاد أبهاءه حتى الآن ، دونت الملكة تقريراً تفصيليا مدعماً بالصور الوصفية لتلك الحملة البحرية التجارية الشهيرة التى أبحرت فيها الأساطيل المصرية إلى بلاد بونت [يقال إنها الصومال أو بلاد اليمن أوهما معاً] .



معبد الدير البحرى بالبر الغربى بالأقصر .. فريد فى نوعه وطرازه .. بنته الملكة حتشبسوت بمعاونة المهندس سننموت [الاسرة الثامنة عشرة] .



الملكة حتشبسوت .. من أبرز شخصيات الأسرة الثامنة عشرة .. تميز عهدها بالسلام وازدهار المبادلات التجارية الدولية .

وتميزت هذه الرحلة التجارية التى جهزتها الملكة حتشبسوت إلى تلك البلاد، بأنها كانت أكبر الحملات التجارية التى أوفدها ملوك مصر السابقون لاستيراد حاجيات البلاد من منتجات بونت.. كذلك فقد كانت الحملة مجهزة فيما يبدو بمجموعة من الفنانين الرسامين الذين قاموا بدور « الصحفيين » الذين كتبوا أدق « ريبورتاج » علمى مصور، فى وصف بلاد بونت، سواء من الناحية الطبيعية أو البيئية، أو من ناحية جغرافيتها البشرية والأجناس المختلفة التى تسكنها، وتقاليد وعادات الأهالى الذين يعيشون هناك.. هذا بالإضافة إلى دراسة علمية ممتعة لمختلف أنواع الأسماك والأحياء المائية فى البحر الأحمر..!

وقد تضمن هذا التقرير الوصفى التفصيلى عرضا لأنواع الواردات التى عادت بها السفن المصرية من بلاد بونت، مثل العاج والأبنوس وأنواع الأخشاب الثمينة الأخرى، وجلود الفهود، وسبائك الذهب والفضة، وأحمال من البخور والعطور والتوابل والقرفة والأعشاب الطبية، وشتلات أشجار البخور التى نقلت بجذورها.. وكذلك « التوتيا » المستعملة فى صناعة كحل العيون، فضلاً عن مجموعة كبيرة من الحيوانات الحية تشمل الزراف والكلاب والنسانيس..

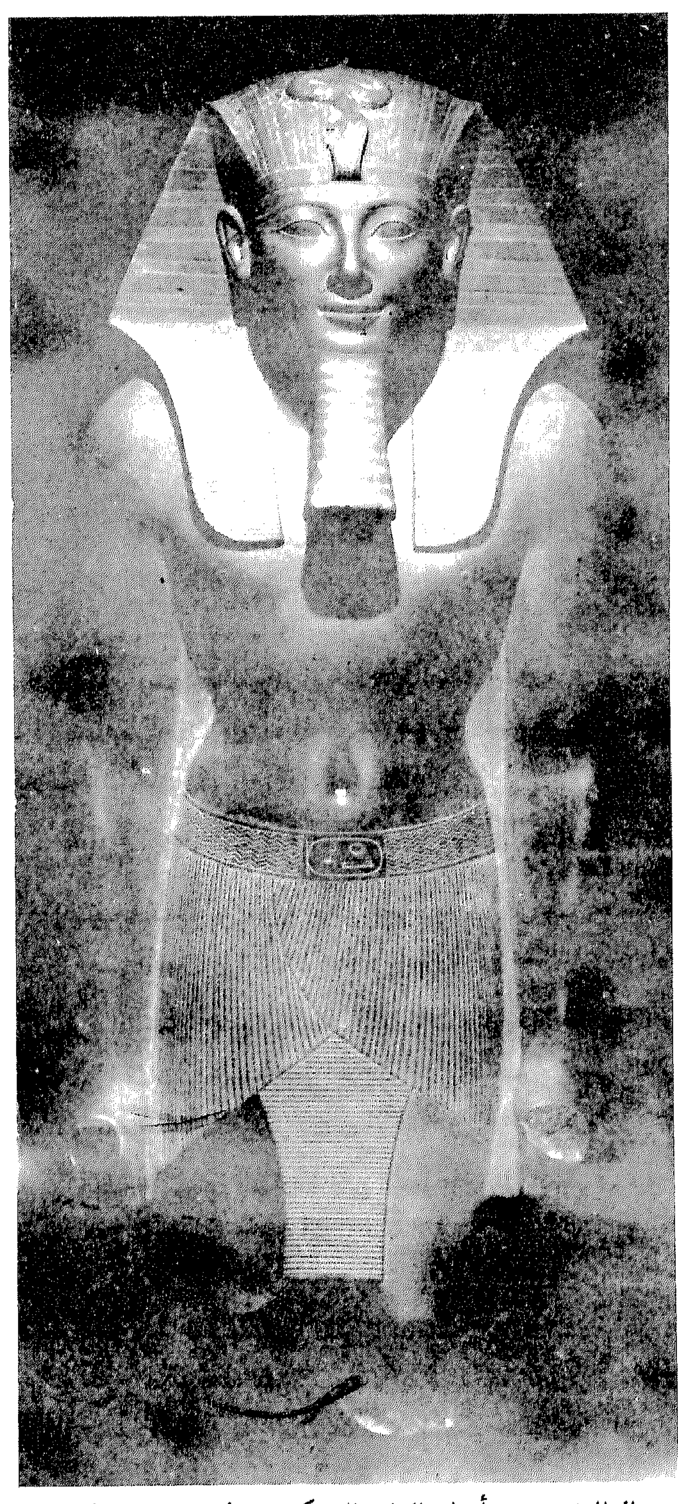
* تحوتمس الثالث: الامبراطور وأول فاتح عظيم فى تاريخ العالم

بعد [٧٥] يوما فقط من توليه عرش مصر، بدأ فى الزحف بسلسلة من الحملات العسكرية المجهزة أحسن تجهيز، بلغت ١٦ حملة واستمرت نحو عشرين سنة متواصلة..

ويحلو لبعض المؤرخين أن يعقدوا بعض المقارنات التاريخية الطريفة، لإثبات مدى التماثل والتطابق الحرفى بين الخطط الحربية التى وضعها تحوتمس الثالث، والخطط الحربية التى طبقها بعض دهاة العسكريين فى الامبراطورية البريطانية.

يقولون إن الخطة الحربية البارعة التى اتبعها هذا الملك العظيم فى عبور ممر « عرونا » بالمناطق السورية، هى نفسها الخطط التى اتبعها القائد الانجليز « اللنبى » وفاجأ بها جيش الأتراك فى سنة ١٩١٨م، أى بعد العهد الذى وضعت فيه تلك الخطة بنحو ٣٤٠٠ سنة...

أما الخطة الحربية العظيمة التى نقل بها تحوتمس الثالث سفنه الحربية نقلاً برياً، وهى مجزأة كقطع وأجزاء قابلة للتركيب السريع والتجهيز الفورى، وذلك حتى يتمكن من العبور بها فى نهر الفرات والوصول بحملاته العسكرية إلى بلاد النهرين « العراق » وضمها ضمن مناطق نفوذ الإمبراطورية المصرية، وهى تعتبر بكل المقاييس خطة حربية



تحوتمس الثالث .. من أعظم القادة العسكريين فى تاريخ العالم القديم ..

فذة ، وغير مسبوقة فى التاريخ العسكرى . وهى التى أوحت إلى الفيلد مارشال « مونتجومرى » بخطة نقل سفن العبور الحربية براً ، حتى وصل بها إلى الأماكن المحددة لعبور قواته نهر الراين ، أثناء الحرب العالمية الثانية .

ويقال أيضا إن خطة تحوتمس الثالث فى أخذ أبناء أمراء وحكام البلاد التى فتحها كرهائن ، وارسالهم معززين إلى مصر لتنشئتهم وتعليمهم بالمدارس المصرية ، وتربيتهم طبقا التقاليد والعادات والثقافة والأخلاق المصرية ، ليصبحوا مجهزين سياسياً لحكم بلادهم حين يؤول إليهم الأمر ، وفى أعناقهم هذا الدين الحضارى تجاه مصر .. هذه الخطة طبقتها أيضا الإمبراطورية البريطانية فى الهند ، حين أجبرت أبناء الأمراء والحكام الهنود على الالتحاق بالكليات الانجليزية التى كانت تعلمهم الثقافة البريطانية ، وتنشئهم على تمجيد بريطانيا العظمى ..

ويجمع المؤرخون العسكريون على أن تحوتمس الثالث هو أول قائد حربى فى التاريخ ، وضع خطة تقسيم الجيش إلى قلب وجناحين ، وكان لديه « مجلس أركان حرب » يتشاور معه فى وضع تلك الخطط الحربية الفذة .

وكان من نتيجة الجهود العسكرية لهذا الفرعون الطموح ، أن سادت مصر وحضارتها فى امبراطورية شاسعة الأرجاء ، تمتد جنوبا من مناطق الجندل الرابع فى بلاد النوبة ، وتمتد شمالا وشرقا حتى مناطق أشور وشمال سوريا ولبنان وبلاد النهرين « الميتانى » وبابل ومملكة خيتا ، كما استولى على جميع موانى سوريا ولبنان وجعلها قواعد لجيوشه .. وتدفقت الجزية والغنائم من جميع هذه البلاد المفتوحة إلى الخزانة المصرية ، فعم الثراء والرخاء جميع البلاد من أقصاها إلى أقصاها ..

ويجمع المؤرخون على أن تحوتمس الثالث كان يتمتع إلى جانب عبقريته العسكرية ، بشخصية قوية ، تتميز بالنبل الرفيع والرجولة والعدالة والتدين والصدق . وكانت سياسته الداخلية فى حكم البلاد تقوم أساساً على إقرار النظام العام ورفاهية الشعب .

ورغم عوادى الزمن فقد بقيت لهذا الامبراطور آثار ولوحات تذكارية مازالت قائمة فى معظم المناطق الآسيوية والافريقية التى أدخلها تحت نفوذ الامبراطورية المصرية ، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة جدا من الآثار المنتشرة فى معظم متاحف العالم ..

وكان الامبراطور مولعاً بنصب المسلات التذكارية الضخمة فى المدن المصرية فى الوجهين القبلى والبحرى ، ولكن شاء القدر أن تنقل بعض هذه المسلات لتنصب فى

عواصم ومدن أخرى بعيدة عن وادى النيل بآلاف الكيلومترات .. ومن الغريب أن المسلة المقامة على ضفاف نهر التيمس بلندن هى إحدى المسلات التى أنشأها تحوتمس الثالث ، ومع ذلك يسميها الانجليز مسلة كليوباترا .. !

وقد تفشى هذا الجهل أيضا لدى الأمريكان فأطلقوا اسم مسلة كليوباترا أيضا على إحدى مسلات تحوتمس الثالث التى تم نقلها ونصبها فى نيو يورك ..

* أمنحتب الثانى : الرياضى

ابن الامبراطور .. وواصل حروب أبيه لتدعيم الحكم المصرى فى آسيا وأفريقيا .. وتكاد فترة حكمه أن تعتبر خاتمة للحروب الطاحنة التى بدأها جده الأكبر أحمس ، مؤسس الأسرة .

* تحوتمس الرابع : الدبلوماسى

فى عهده أوقفت مصر سياسة الحملات العسكرية التأديبية ضد المناطق والشعوب الخاضعة لسلطانها ، واتبعت سياسة سلمية تقوم على عقد المحالفات الثنائية بين مصر وغيرها من الدول والاقاليم التابعة لها ، وتبوأت مصر بذلك مكان الصدارة فى التاريخ الدبلوماسى ، حيث اعتبرت أول دولة تقوم بتدوين وتسجيل المعاهدات الدولية التى تتضمن البنود القانونية والسياسية التى اتفق عليها الحليفان وتراضيا عليها .

* امنحتب الثالث : ملك الملذات

وصلت البلاد فى عهده إلى قمة الثراء والغنى ، وانصرف الجميع وهو على رأسهم إلى حب التمتع بمناعم الحياة ولذائذها .. وقد بلغ عدد السرارى والمحظيات فى حريمه عدة مئات ، كان يجلبهن « بالجملة » من مختلف المناطق الآسيوية والأفريقية التابعة للسيادة المصرية ، وكان يشترط فى اختيارهن شروطا خاصة بلون الشعر ولون البشرة والعينين ، ودقة التقاطيع وجمال القوام ، بالإضافة إلى شرط العذرية ، إذ كان يعلن عن طلبه فى صراحة أن تكون البنات المرسلات له « عذارى لم يمسسهن بشر » .

ومع ذلك فقد كان على علاقة حب وطيدة مع زوجته الرسمية بنت الشعب « الملكة تى » التى يعتبرها بعض المؤرخين أعظم نساء التاريخ المصرى ذكاء وقوة شخصية وعزيمة ، فجمعت كل زمام الأمور فى يدها ــ بعد انصراف زوجها إلى لذائذه ــ وأصبحت المتحكمة وصاحبة الكلمة العليا فى تسيير أمور الامبراطورية الواسعة ، سواء فى داخل البلاد أو فى خارجها ..



معبد الأقصر .



تمثالا ممنون .

وقد حدث تقدم هائل فى نظم التعليم ، حيث كانت الدراسة تنقسم إلى مرحلتين : مرحلة المدرسة أو « بيت الحياة » كما كانت تسمى فى ذلك العهد ، و « مرحلة عليا » يتعلم فيها النابهون مزيداً من العلوم والأسرار ، كما يتعلمون اللغات الأجنبية قراءة وكتابة . .

ولذلك فقد ازدهر الأدب وظهرت اتجاهات جديدة فى فنون العمارة والفنون التشكيلية والتطبيقية ، تمثلت فى الآثار العظيمة التى تركها أمنحتب الثالث وأهمها : معبد الأقصر بجماله وجلاله الفائق ، وتمثالا ممنون بضخامتها وشهرتها التى طبقت آفاق المعمورة فى الزمن القديم والزمن الحديث على حد سواء . . فقد ذكر التاريخ أن أباطرة الرومان القدماء ، كانوا يقفون مشدوهين أمام فخامة وضخامة وروعة هذين التمثالين الفريدين ، وينده‍شون عند سماع صوت كموسيقى الناى يخرج من بين شقوق التمثالين عند كل فجر . .

* أخناتون : أول الموحدين

أنت واحد . . ولا إله غيرك . . ولا شريك لك . . !

ربما كانت هذه أول صيحة إنسانية بوحدانية الله خالق كل شىء . . أطلقها هذا الفرعون الفيلسوف الذى كان يرى الله فى « القوى المجردة » التى خلقت كل موجود فى هذا الوجود ، والتى ترزق الفرخ وهو فى داخل البيضة ، وترزق الجنين فى بطن أمه ، وتبعث الحياة فى قلب البذرة فيخرج النبات من جوف الأرض . .

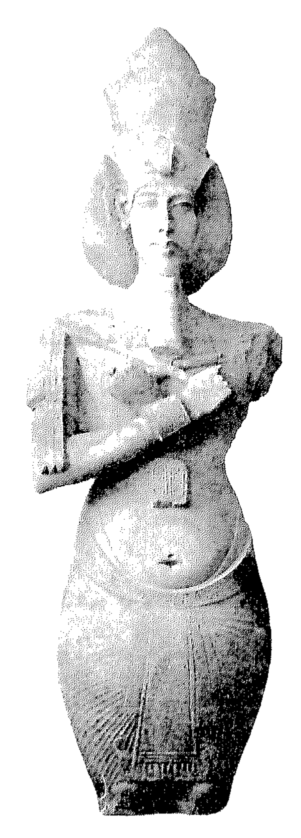
كان هذا الإله الواحد الذى وصل إليه هذا المتعبد الشاعر ، هو الإله « آتون » وكان يرمز إليه بقرص الشمس ، تمتد منه أياد بشرية تمنح الحياة لكل مافى الوجود من كائنات . .

وما أن تربع هذا الفرعون على عرش مصر ، حتى غير اسمه « امنحتب الرابع » وسمى نفسه « أخناتون » ومعناه أن الإله آتون راض . . ولم يضيع الكثير من الوقت ، فأعلن دينه الجديد على أوسع نطاق فى داخل البلاد وخارجها . وقال لجميع أركان الدولة ، أن الإله واحد لاشريك له ، ولابد من تحطيم وإبادة جميع الخرافات الدينية السابقة القائمة على فكرة تعدد الآلهة .

وأمر أخناتون بإزالة أسماء جميع الآلهة الآخرين من جميع المعابد الدينية المصرية فى طول البلاد وعرضها . . وقضى بذلك على السلطات الواسعة التى كان يتمتع بها الكهنة



نفرتيتى .. أجمل ملكات التاريخ !



اخناتون .. أول الموحدين .. !

ورجال الدين ، وعلى الأخص كهنة « آمون » الذين بلغت سلطاتهم فى الدولة ، حداً من الخطورة أصبح لا يمكن السكوت عليه ..

وأعلن اخناتون أن جميع المخلوقات يمكنها أن تعبد الإله الواحد دون أية وساطة من رجال الدين الذين يدعون أنهم حلقة الوصل بين الإنسان والإله ..

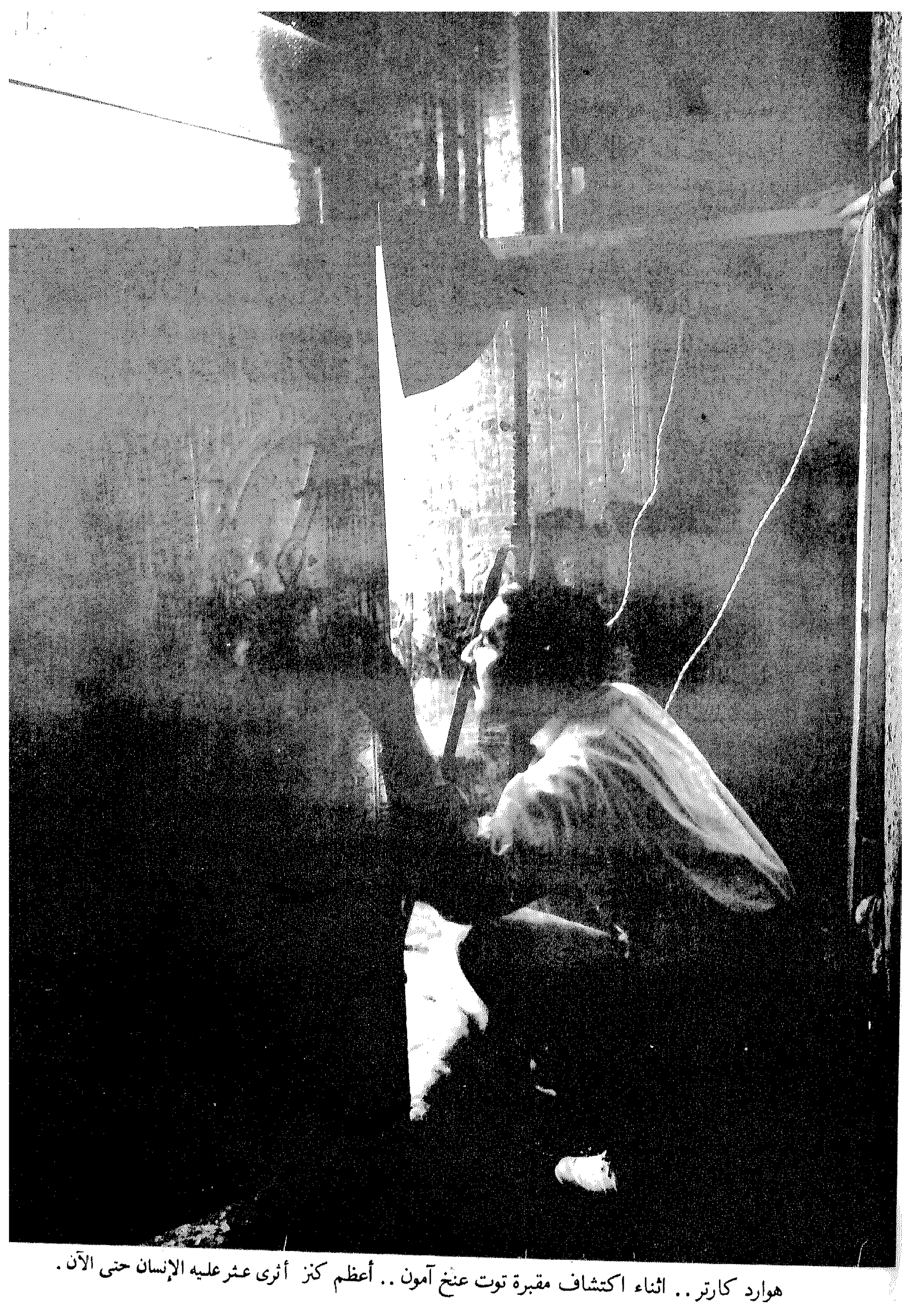
وقد عكف اخناتون على وضع أجمل النصوص للأناشيد والقصائد الشعرية الدينية لعبادة الإله الواحد خالق كل شىء . وقد عقد كثير من المؤرخين مقارنات تحليلية بين نصوص الأناشيد التى أبدعها اخناتون وبين نص « المزمور رقم ١٠٤ » من مزامير داوود المذكورة فى التوراة ، فوجدوا تشابهاً وتماثلاً وتطابقاً بين الكلمات والجمل والمعانى وترتيب الأبيات . ونظراً لأن اخناتون يسبق التوراة زمناً وتاريخاً ، لذلك فقد أعلن عالم المصريات الكبير « ج . هـ . برستيد » وهو من أكبر المتشيعين لاخناتون والمعجبين به ، أن اخناتون هو أول من وحد الله فى هذا العالم ..

ورغبة فى التجديد المستمر ، فقد هجر أخناتون « طيبة » عاصمة البلاد ، واختار موقعاً جديداً على الشاطىء الشرقى للنيل [بمحافظة المنيا] أقام فيه عاصمة جديدة للامبراطورية المصرية ، وأطلق عليها اسم « آخت آتون » ومعناها « أفق آتون » .. وتسمى حاليا تل العمارنة .

أرادها مدينة جديدة فى كل شىء ، تعبر عن جوهر الفلسفة الآتونية فى التغير والانتقال من القديم إلى الجديد .. وهكذا صممت المدينة وشوارعها المنتظمة ، وصممت القصور والفيللات وبيوت النبلاء وكبار الموظفين جنباً إلى جنب مع بيوت العمال وأبناء الشعب البسطاء ، فى طابع ديموقراطى يعبر عن فكرة المساواة بين جميع المخلوقات أمام الإله الواحد .. كما ألغيت أماكن « الحرملك » وهى الأماكن التى كانت مخصصة للحريم فى قصور الملوك والنبلاء ، مما يدل على تأكيد حق المساواة بين الجنسين ..

وقد حدثت تطورات هائلة فى فنون العمارة والنحت والتصوير ، فقد انكسر جمود القواعد الصارمة التى ظلت تحكم الفن المصرى القديم لآلاف السنين السابقة على عهد أخناتون ، وحلت محلها ابتكارات جديدة تعبر عن اتجاهات واقعية ، ورؤية فنية تمجد فكرة « الحياة فى الحقيقة » وهى جوهر الفلسفة الآتونية ..

وبالرغم من أن هذه العاصمة الجديدة « آخت آتون » قد دمرت تماماً وسويت بالأرض ، بعد موت اخناتون والقضاء على ديانته ، فإن بعض الآثار التى وصلت إلينا ،



هوارد كارتر.. أثناء اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون .. أعظم كنز أثرى عثر عليه الإنسان حتى الآن .

وهى جد نادرة ، تعتبر من أجمل الإنتاجات الفنية فى العالم القديم ، ليس فى مصر وحدها ، بل وفى كل أنحاء العالم .. ولعل التماثيل التى تمثل رأس الملكة « نفرتيتى » زوجة اخناتون ، أورأس الملكة « تى » أمه ، أوتماثيل اخناتون نفسه ، خير شاهد على مدى الثورة التى حدثت فى فن النحت .

كما أن بقايا النقوش الملونة التى كانت تزين جدران وحوائط القاعات والحجرات الداخلية لقصور الملك وكبار رجال دولته ، تدل أيضا على تخلى الفنان المصرى عن الأساليب والقواعد القديمة واتجاهه إلى التعبير الواقعى فى رسم جميع اللوحات بما تتضمنه من إنسان أوحيوان أوطير أونبات أوحتى زخارف صماء ..

ومازالت شخصية اخناتون محل خلاف شديد بين المؤرخين وعلماء المصريات ، القدماء منهم والمحدثين .. بعضهم يرفعونه إلى درجة سامية ، وبعضهم يهبطون به إلى الحضيض ويدعون أنه كان شخصية غير طبيعية ومنحرفة ، وأنه كان مخنثا ، بل ويقول بعضهم أنه قد تحول جنسيا فى أواخر أيامه ..

وأيا كانت آراء المؤرخين والعلماء فى هذه الشخصية الفذة فى التاريخ المصرى ، إلا أن هناك إجماعاً على انه قد أحدث ثورة كالزلزال فى أساليب الفن المصرى والثقافة المصرية والديانة المصرية .. وأنه كان « رجل سلام » وضد فكرة الحرب أوالسيطرة على الآخرين ..

ولذلك فقد انتهزت المستعمرات المصرية فى البلاد الآسيوية فرصة انشغال اخناتون بدينه الجديد ، وقامت بثورات وقلاقل للتخلص من الحكم المصرى ، دون أن يفكر هذا الفرعون فى إرسال الحملات التأديبية التى كان يقودها أجداده لإحكام قبضتهم على هذه الأقاليم ..

وموت أخناتون واختفاؤه المفاجىء من الحياة المصرية والتاريخ المصرى مازال لغزاً غامضا حتى الآن .. فلم يعثر له على جثة وربما كان موته نتيجة لعمل عنيف .. وعلى أية حال فقد تولى عرش البلاد بعده أخوه « سمنخ كارع » الذى مات وعمره دون العشرين بعد أن حكم لفترة قصيرة جدا ، ولكنها كانت حافلة بالصراعات الهائلة التى قادها كهنة آمون لاستعادة أملاكهم وسطوتهم وسلطاتهم السابقة ، التى كانوا يتمتعون بها قبل عهد أخناتون .

* توت عنخ آمون : أشهر ملك فى العالم

أصبح من المسلم به الآن فى علوم الآثار، أن قيام « هوارد كارتر» باكتشاف مقبرة توت عنخ آمون فى وادى الملوك سنة ١٩٢٢م ، يعتبر أهم وأعظم الاكتشافات الأثرية فى القرن العشرين ، كما تعتبر المقبرة بما فيها من محتويات ، أعظم كنز علمى عثر عليه الإنسان حتى الآن . .

وقد ذاعت شهرة هذا الملك الصغير منذ لحظة اكتشاف مقبرته فى جميع أنحاء المعمورة . بل إن أجهزة الإعلام والصحافة والثقافة فى جميع أنحاء العالم أيامئذ ، لم يكن لها شاغل أهم من أخبار هذا الملك الذى مات منذ نحو ٣٢٧٠ سنة ، فغطت أخباره على أخبار جميع الملوك الأحياء فى جميع ممالك الأرض .

هذه الكنوز الضخمة من الذهب والقطع الأثرية الفنية البديعة التى أذهلت العالم ، والتى مازال يقف أمامها إنسان القرن العشرين فاغراً فاه من الإعجاب والدهشة ، لايمكن تقديرها بثمن مهما غلا وارتفع ، الأمر الذى يجعل المؤرخين وعلماء الآثار يتساءلون : إذا كانت كل هذه الكنوز قد دفنت مع توت عنخ آمون ، وهو ملك ضئيل الشأن جدا إذا قورن بغيره من أجداده من الملوك العظام من نفس أسرته ، فماذا كان حجم الكنوز والتحف الفنية الثمينة التى دفنت مع هؤلاء الملوك لتناسب عظمتهم وثراءهم ومكانتهم فى تاريخ البلاد ؟ !

وقد مات هذا الفرعون الصغير وعمره لم يتجاوز ١٩ سنة ، فى ظروف تؤكد أن شمس الأسرة الثامنة عشرة قد مالت وأوشكت على المغيب . . وقامت أرملته الملكة « عنخس بآمون » بارتكاب إحدى حماقات النساء حين يجدن أنفسهن فى مهب الرياح والأعاصير، فقد أرسلت خطابا سريا إلى « شوبيلوليوما » ملك الحيثيين ، تطلب منه أن يرسل لها أحد أبنائه لكى يتزوجها ويجلسان معاً على عرش مصر . . وكادت هذه المؤامرة النسائية أن تتم لولا انكشاف الأمر، فقام بعض المصريين بقتل الأمير الأجنبى الذى كان ينوى أن يصبح فرعونا على البلاد ، وذلك قبل أن تطأ قدمه الحدود المصرية ولولبضع خطوات . .

وتولى الحكم بعد توت عنخ آمون الملك « آى » وهو من رجال الدولة المخضرمين ، ولكنه لم يكن سليل ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، وحكم لفترة قصيرة بالنظر إلى كبر سنه ، فخلفه أحد الضباط العظام فى الجيش المصرى وهو القائد الحربى « حورمحب » ليكون حلقة الوصل بين آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، وأول ملوك الأسرة التالية لها . .

قاد حور محب حركة الرجعية التقليدية ، وقضى على التجديدات العقائدية والفكرية التي انطلقت من عقالها في عهد اخناتون ، وأعاد التزمت الديني ممثلاً في فكرة تعدد الآلهة القديمة ، كما قام بسن مجموعة كبيرة من القوانين لإعادة النظام العام المصري التقليدي الذي كان يسود البلاد في عهد تماسك الامبراطورية .

● الأسرة التاسعة عشرة

وفي سنة ١٣٢٦ ق . م مات حور محب دون وريث ، فخلفه أحد رجاله العظام ، الضابط الكبير المحنك « رمسيس الأول » الذي قام بتأسيس الأسرة التاسعة عشرة ، وهي أسرة عظيمة جاهدت لإعادة أمجاد الامبراطورية المصرية إلى ماكانت عليه في أيام العز القريبة . وكانت هذه الأسرة « بحراوية » من أبناء الدلتا ، ومع ذلك فقد اتخذت طيبة عاصمة للبلاد نظراً لأنها مركز الإله آمون وكهنته الذين كانوا يعتبرون سندهم الأكبر في الحكم ، [هذا بالرغم من أن رمسيس الثاني قد بنى فيما بعد مدينتين جديدتين في الدلتا ، حتى يكون قريباً من مناطق طموحاته وفتوحاته التي كان يهفو إليها] .

ونظراً لأن رمسيس الأول كان كبيراً في السن ، فلم يسعفه العمر لمواصلة الإصلاحات الداخلية والخارجية التي بدأها حور محب . وتولى بعده ابنه العظيم « سيتي الأول » .

● سيتي الأول

كان سيتي قد تربى تربية عسكرية وسياسية من أعلى طراز ومستوى ، فقد كان مثل أبيه ضابطا بالجيش المصري ، وقاد عدة حملات تأديبية حتى قبل أن يتولى أبوه الحكم . وفيما يبدو من أعماله وآثاره ، أنه كان يضع أمجاد الفاتح العظيم تحوتمس الثالث كمثل أعلى يحتذيه .

وسرعان ماجيش الجيوش المصرية ، وتقدم بها ليستعيد المستعمرات والأملاك المصرية في آسيا . واستعادها بالفعل بعد تحقيق انتصارات كبرى ، أعادت الشعب المصري إلى همته القديمة ، وعادت بالتالي أموال الجزية تتدفق في سيل منهمر لتدخل الخزانة المصرية .

ثم قام بعدة حملات تأديبية ضد النوبة وبعض المناطق الليبية ليضمن جواً من الأمن والاستقرار والطمأنينة يكفل الراحة للناس ، ليدفعهم إلى المزيد من الإنتاج والمزيد من الإخلاص في الاستجابة إلى طلبات الدولة .

وخير مايمكن أن يفخر به ملك مثل سيتى الأول ، هو إعلانه فى زهو أنه قد أعاد « ماعت » لتحكم العلاقة بين الناس و بعضهم ، و بين الشعب والدولة . و« ماعت » هذه فكرة مجردة مقدسة مستقرة فى وجدان المصريين القدماء كأمة ، وهى أصل العدالة والصدق والحق وتأدية الواجب على أفضل نحو إلى غير ذلك من المثل العليا . . ومن ثم فقد سن القوانين والتشريعات لإقرار هذه المبادىء وسريانها على جميع المصريين على قدم المساواة .

ومن إيمان هذا الملك بفكرة « التعمير والبناء » بدأ حركة ضخمة فى إصلاح جميع المعابد والمبانى المقدسة التى خربها اخناتون فى جميع أنحاء البلاد وأعادها إلى ماكانت عليه ، بل وأدخل عليها الكثير من التحسينات ، وأعاد الأسماء الحقيقية للملوك القدامى الذين شيدوا تلك المعابد والمبانى فى الماضى .

كذلك فقد بدأ نهضة أخرى فى بناء المعابد الجديدة التى لايمكن وصفها إلا بأنها كانت آيات من الفن الرفيع . و يكفى أنه صاحب الفضل الأكبر فى بناء « قاعة الأعمدة العظمى » بمعبد الكرنك . وهى القاعة التى بدأها أبوه ، وافتتحها ابنه « رمسيس الثانى » فيما بعد . كما أن مقبرته بوادى الملوك ، تعتبر من أكبر وأجمل المقابر على الإطلاق .

● رمسيس الأكبر

كان هذا هو الاسم المفضل الذى يحب هذا الامبراطور المزهو بنفسه أن يطلق عليه . ولكنه كان بالفعل كبيراً يستحق هذه المكانة التى صنعها لنفسه ولبلده ، فتميز عهده الطويل الذى استمر نحو ٦٧ سنة بالأعمال الكبيرة الضخمة على كل المستويات .

لقد أنجب رمسيس الثانى نحو ١١١ ولداً و٦٧ بنتاً . . الأمر الذى قد يدعو إلى الاعتقاد بأنه كان يقضى وقته كله فى إنجاب الأطفال . ولكن الحال كان على عكس هذا الاعتقاد تماماً ، فقد قام فور توليه الحكم بسلسلة من الحملات العسكرية ، خاض بها معارك حربية رهيبة ضد أعداء مصر من الدول الحديثة التى أخذت تظهر فى بعض المناطق الآسيوية ، والتى أخذت تزاحم مصر فى سيطرتها على المستعمرات الآسيوية .

ودوّن الامبراطور التقارير التفصيلية لمعاركه هذه ، على جدران المعابد العظيمة التى شيدها فى طول البلاد وعرضها ، بل وتعتبر قصة « معركة قادش » التى يصور فيها رمسيس الثانى انتصاره على الحيثيين أول ملحمة من « ملاحم البطولة » فى التاريخ الأدبى .

وبعد عديد من الحملات العسكرية الناجحة، امتدت المناطق الخاضعة لحكم الامبراطورية المصرية، من بلاد النهرين « العراق » فى أقصى الشمال الشرقى، حتى الجندل الرابع فى أقصى الجنوب.

وبعد أن اكتفى بماخاض من حروب، بدأ عهداً جديداً من الدبلوماسية السياسية المصرية، تمكن فيه من الوصول إلى نفس النتائج التى كان يمكن أن يصل إليها بالسلاح.

ويحلو لبعض المؤرخين أن يطلقوا على رمسيس الثانى اسم « سيد البنائين » تقديراً منهم للإنشاءات الضخمة والمبانى العظيمة والتماثيل والمسلات التى شيدها فى جميع المدن والأقاليم المصرية، والتى تتميز كلها بطابع الضخامة والعظمة والأبهة، والتى مازالت آثارها حتى اليوم تثير إعجاب ودهشة المشاهدين.

إن آثار معبد « الرمسيوم » مثلا أصبحت إحدى عجائب الدنيا التى تحدث عنها الإغريق القدماء فى القرن الرابع قبل الميلاد، أى بعد موت رمسيس بنحو ألف عام. أما معبد « أبوسمبل » فشهرته الدولية مازالت ذائعة حتى الآن فى جميع أنحاء العالم.

وقد اكتشفت بعض التزويرات التى أحدثها رمسيس الثانى فى بعض المعابد التى أنشأها الملوك السابقون وادّعاها لنفسه، الأمر الذى دعا بعض المؤرخين إلى القول بأنه كان « أكبر سارق » لآثار الملوك القدماء ونسبتها إلى نفسه، وأنه كان أكبر « بروباجانديست »، أى رجل دعاية قائمة على التهويش وادعاء غير الحق.

غير أن هذه الهنة فى تاريخ هذا الامبراطور، يمكن اغتفارها له فى ضوء العرف الذى كان يجرى فى بعض الأحيان بين الفراعنة المصريين، كما أن عدد المعابد التى ادعاها رمسيس الثانى لنفسه يعتبر نسبة ضئيلة جدا بالمقارنة إلى عدد المعابد والإنشاءات التى أقامها الامبراطور فعلاً. وكان معروفا عنه أنه يقوم بالإشراف على أعماله بنفسه، ويقوم بتشجيع العمال أثناء العمل، وأنه كان حريصاً على منع السخرة واعتبارها جريمة، بنفس درجة حرصه على إعطاء كل ذى حق حقه.

وقد تميز عصره بأنه كان أوسع « انفتاح » لمصر على جميع أنحاء العالم القديم فى تلك الفتره. فكانت هناك حركة تجارية وسياحية نشطة بين مصر وكريت.. كما أصبح المصريون مولعين بالسفر إلى البلاد الأجنبية ليتعرفوا على مجاهلها وجغرافيتها ووصف مدنها وناسها. وبدأ الكثير من الشبان المصريين فى « حشر » بعض الكلمات الأجنبية فى أحاديثهم العادية كدليل على قدرتهم الثقافية.

كذلك فقد انتشر استخدام اللغة الشعبية فى النصوص الأدبية والحكم والأمثال والأشعار والأغانى الغزلية ، كما انتشرت صناعة الآلات الموسيقية التقليدية المستخدمة فى مصر ، وغيرها من الآلات الأخرى الشائعة الاستعمال فى البلاد الأجنبية .

كما أن فنون النحت والتصوير قد بلغت حداً من الكمال ، مازال محل تقدير المعجبين بها حتى اليوم ، وذلك بفضل موازنتها بين التقاليد الراسخة للفن المصرى القديم ، واتجاهات التجديد وحرية التعبير التى أطلقها اخناتون .

و يقول بعض المؤرخين أن فكرة « التنسك » فى الدين والانقطاع التام إلى العبادة وحدها ، قد ظهرت فى عهد رمسيس الثانى ، وهى نفس الفكرة التى قامت على أساسها فلسفة التصوف والرهبنة فيما بعد .

● فرعون موسى

لم يعرف حتى الآن على وجه قاطع ، من هو بالتحديد فرعون موسى ، أو الفرعون الذى طرد بنى اسرائيل وأخرجهم من مصر . فالبعض يقولون أن « الخروج » قد حدث فى عهد رمسيس الثانى ، والبعض يشككون فى قصة الخروج نفسها . أما أرجح الآراء السائدة الآن ، فهو الرأى الذى يقول إن خروج بنى اسرائيل من مصر قد تم فى عهد الملك « مرنبتاح » ابن رمسيس الثانى الذى تولى الملك بعد موت أبيه .

وقد تولى « مرنبتاح » أو « منفتاح » الحكم فى ظروف صعبة ، فقد كانت الحركة الدولية بين شعوب العالم القديم على أشدها . وفى أواخر عهد رمسيس الثانى ، تسلل الليبيون فى أعداد قليلة فى البداية إلى داخل الحدود الغربية للبلاد واستقروا بها ، ثم ازدادت أعداد القبائل والعشائر الليبية بعد ذلك ، إلى أن تحول الأمر فى النهاية ، أن اتخذت هذه الهجرات شكل غزوة شاملة فى عهد « مرنبتاح » الأمر الذى دعاه إلى تجريد حملة عسكرية لصد هذا الهجوم الاستيطانى وطرد الليبيين من غرب البلاد .

وقد حدث نفس الشيء أيضا بالنسبة للحدود الشرقية ، حيث كانت أعداد غفيرة من بنى اسرائيل قد تسللت إلى مناطق شرق الدلتا وأقامت فى البلاد بصفة مستديمة ، فاضطر « مر بنتاح » إلى تجريد حملة عسكرية أخرى لطرد بنى اسرائيل من مصر . والجدير بالذكر أن اسم « اسرائيل » قد ظهر لأول مرة فى التاريخ فى النصوص التى دونها « مرنبتاح » لوصف حروبه ومعاركه وحملاته العسكرية .

● آخر الملوك العظام

بعد موت مرنبتاح ساد الاضطراب فى نظام الحكم وادعى العرش بعض الطامعين فيه ، وانتهت بذلك الأسرة التاسعة عشرة ، وأفسحت المكان لظهور الأسرة العشر ين ، وهى آخر الأسرات الملكية التى تكونت منها « الدولة الحديثة » المعروفة فى التار يخ المصرى .

وأشهر ملوك هذه الأسرة هو « رمسيس الثالث » . وقد أصر خلفاؤه الذين تولوا الحكم بعده على تسمية أنفسهم باسم رمسيس ، من أول رمسيس الرابع حتى رمسيس الحادى عشر . ومعظمهم كانوا ملوكاً نكرات ، وصلت أحوال البلاد فى عهودهم إلى أقصى قدر من السوء .

أما رمسيس الثالث فقد اعتبره بعض المؤرخين آخر الملوك العظام الذين حكموا مصر . وكان صاحب همة وعبقر ية عسكر ية وقدرة فائقة على إقرار النظام وتوطيد أركان الحكم ، فحافظ على استقلال البلاد ــ وهو أمر لم يكن سهلاً ــ أمام القوى المتنامية التى كانت تحيط بمصر وتطمع فيها . كما قام بصد غزوات الليبيين التى استمرت بلا هوادة .

وما أن انتهى من أمر الليبيين ، حتى جاءته الأخبار السيئة بتسلل هجرات متدفقة إلى الحدود الشرقية والشمالية من البلاد . وكان الغزاة فى هذه المرة هم « شعوب البحر » كما كان يسميهم المصر يون القدماء ، وهم قبائل وفدت بأعداد كبيرة وفى شكل هجرات جماعية ضخمة من مختلف المناطق فى أوربا وآسيا الصغرى وصقلية وسردينيا . وعلى الفور جهز رمسيس الثالث الجيش المصرى لملاقاة هذه الهجرات المتدفقة والتى تجمعت فى سور يا وفلسطين للوثوب على هدفها الأساسى وهو أرض مصر . وفاجأ رمسيس الثالث هذه التجمعات البشر ية وهزمها هزيمة منكرة ، أوقف بها عملية الهجرة إلى مصر ولو إلى حين .

وتعتبر « مدينة هابو » من الآثار الخالدة التى خلفها لنا رمسيس الثالث . وهى مدينة دينية كاملة ، فيها الكثير من المعابد والمبانى الضخمة التى دون على جدرانها ماير يد أن يتركه للناس من أخباره وأمجاده .

ومن بين النقوش البديعة فى « مدينة هابو » مايمكن اعتباره أول « سينار يو » فى العالم لتصو ير معركة حر بية بحر ية ، حيث دارت معركة طاحنة بين السفن الحربية المصر ية والسفن المغيرة فى مكان قرب « دمياط » و يظهر الملك واقفاً على الشاطئ يشجع جنوده ومحار بيه ويحفزهم على بذل المز يد من الشجاعة ، و يلقى سهامه على سفن العدو فيصيب العديد من أعدائه « شعوب البحر » .

و يفخر الملك بأعماله المدنية ، و يزهو بأنه قد أنشأ العديد من المصانع والمعامل ، وأن تجارة مصر الخارجية قد ازدهرت بسبب ذلك ، كما يزهو فى نص بليغ آخر بأنه قد أقام الحدائق والبساتين والمتنزهات العامة ، وأمر بزرع الأشجار فى الشوراع ، كما زرع الطمأنينة فى صدور الشعب لدرجة أن « المرأة أصبحت تسير فى الطرقات وحدها دون أن تتعرض لأية معاكسة من سافل أوشر ير !! » .

• أول إضراب فى التاريخ .

يبدو أن بذور التحرر التى غرسها اخناتون بما كانت تتضمنه من القول بأن البشروجميع المخلوقات سواء أمام الله ، قد بدأت تؤتى ثمارها بين جميع طبقات الشعب ، بل و بين أقل هذه الطبقات شأنا . فقد ازدهرت طبقة الفلاحين ، وخففت عنها الضرائب ، وأعطيت الكثير من الحقوق والضمانات .

كما أحس العمال أن الأجور التى يحصلون عليها لا تناسب الجهد الذى يبذلونه ، ولا تتمشى مع تكاليف المعيشة التى ارتفعت بشكل لم يسبق له مثيل ، بسبب المصنوعات المصر ية الكثيرة والمصنوعات الأجنبية التى أخذت تتدفق بدورها فى الأسواق . ولذلك فقد أضرب هؤلاء العمال عن العمل ، وطالبوا بز يادة مرتباتهم ومخصصاتهم العينية ، وهذه الواقعة فى حد ذاتها تعتبر أول تسجيل تاريخى فى العالم لعملية إضراب العمال للمطالبة برفع الأجور .

وقد انتهت حياة رمسيس الثالث نهاية درامية محزنة ، نتيجة لمؤامرة نسائية حاكتها امرأة تكيد لزوجها باستعمال « السحر الأسود » . فقد قامت إحدى زوجاته بعمل سحرى شر ير ضد الملك ، وذلك بقصد القضاء على حياته ، لكى يتولى العرش ابنه منها . وقد حوكمت تلك الزوجة أمام هيئة قضائية من بعض الكهنة وكبار رجال الدولة .

• عصر الاضمحلال الثالث

بعد موت رمسيس الثالث ،تولى الملك بعده مجموعة من الرعامسة الذين ينتمون للأسرة العشر ين .وقد بلغت البلاد فى عهودهم أقصى درجات الفقر والفوضى . وسادت المجتمع

المصرى حالة لم يسبق لها مثيل من عمليات السلب والنهب ، خصوصاً عمليات السطو على مقابر الملوك ومقابر النبلاء وعلية القوم ونهب مافيها من كنوزمدفونة .

ولم يكن الفقر ناشباً أنيابه فى رقاب الطبقات الشعبيةوحدها . بل ضرب الفقر أيضا أعناق الملوك ،لدرجة أن بعض الفراعنة قد عجزت مواردهم المالية بالفعل عن تسديد أجور العمال الذين يحفرون مقابرهم .

وقد تسللت الفوضى إلى نظم الدولة ومؤسساتها بعد ازدياد أعداد الأجانب [خصوصاً الليبيين] وتدخلاتهم المباشرة فى شئون البلاد التى سادتها فترة تاريخية تسمى فى التاريخ المصرى « عصر الاضمحلال الثالث » بدأت بموت رمسيس الثالث ، وانتهت بنهاية الأسرة الرابعة والعشرين .

• تحت حكم الليبيين

وفى سنة ٩٥٠ ق . م انقض الليبيون على عرش مصر واغتصبوا الملك . وأعلن الليبى « شيشنق الأول » نفسه ملكا على الوجهين ولبس التاجين ، تماماً مثلما كان يفعل الفراعنة العظام . و يقول بعض المؤرخين أن أسرة شيشنق وإن كانت فى الأصل ليبية ، إلا أنها كانت مستقرة بمصر منذ فترة طويلة ، وتوالدت فيها ، وظهرت منها أجيال متمصرة ، أوتعيش كما يعيش المصريون تماماً .

وقد وضع شيشنق أمامه هدفاً معلنا ، وهوإعداد جيش قوى ليستعيد به أملاك مصر فى أقاليم آسيا وبلاد النوبة . و يذكر له التاريخ أنه قد توجه بالفعل إلى فلسطين ، ودمر دولة اسرائيل ، ونهب مدينة أورشليم ودكهادكا وسلب كل كنوزها ونقلها إلى مصر . وقيل إن هذه الكنوز كانت من الضخامة لدرجة أنها ظلت كافية للصرف منها على مدى ٢٠٠ سنة !

• تحت حكم النوبيين

وفى هذا العصر ، كانت بلاد كوش « النوبة » قد استقلت عن مصر وأسست مملكة فى بلادها على نفس نمط الممالك المصرية القديمة . وفى سنة ٧٥٠ ق . م تمكن النوبى « كاشتا » من مهاجمة الحدود المصرية الجنوبية ، وتمكن من الاستيلاء على مدينة « طيبة » .

وبعد نحو ٣٠ سنة، وبالتحديد فى سنة ٧٢١ ق . م تمكن ابنه الملك « بعنخى » من غزو كل الصعيد ومصر الوسطى والوجه البحرى ، وأعلن نفسه فرعونا على مصر، وأسس الأسرة الخامسة والعشرين .

غير أن عهد الملوك النوبيين فى مصر لم يدم طويلا ، إذ سرعان ماهب الملك « بسماتيك الأول » الذى أسس الأسرة السادسة والعشرين وبدأ عهداً جديداً تميز فى كل شىء .

● صحوة الموت

يعرف عصر هذه الأسرة فى التاريخ المصرى باسم « العصر الصاوى » نسبة إلى « سايس » عاصمتهم التى اتخذوها فى شمال الدلتا .

وقد انتابت جميع ملوك هذه الأسرة نزعة عارمة لإحياء الحضارة المصرية وتضميد جراحها وبعث تقاليدها ومثلها العليا . وبدأوا بالفعل حركة تسجيل وتدوين لجميع النصوص الأدبية الكلاسيكية والعلوم الرياضية والهندسية ، بالإضافة إلى قيامهم بالعديد من أعمال الصيانة والترميم لمعظم الآثار المصرية التى خلفتها الممالك المصرية القديمة .

وفى عهدهم ازدهرت الحياة الاقتصادية وتوافرت المحاصيل الزراعية وخاصة القمح والحبوب . بحيث أصبحت مصر المورد الرئيسى للقمح لمعظم شعوب البحر المتوسط . وبالتالى فقد قويت علاقات مصر باليونان وجزر بحر إيجه ، حتى أصبحت مصر فى النهاية قبلة اليونانيين ، يفدون إليها فرادى وجماعات متتالية ، سواء بقصد السياحة ، أوتلقى العلم ، أوللإقامة والاستيطان المستديم .

وكان حكام الإغريق القدماء فى هذه الفترة من التاريخ ، يعتبرون مصر مثلهم الأعلى . بل إن المشرّع الإغريقى العظيم « سولون » قد أخذ نصوص معظم القوانين المدنية والجنائية وقوانين الأحوال الشخصية التى حكمت مصر والمصريين لمئات وآلاف السنين .

ويؤكد بعض المؤرخين أن بقايا الكتب الأدبية والمراجع العلمية التى كان يتداولها المصريون فى ذلك العصر، كانت النواة الأساسية الصالحة للنمو، والتى أثمرت فعلا فروع العلوم والمعرفة والفلسفة الإغريقية .

ومن مفاخر هذا العصر أيضا أن الملك « نيخاو» ابن بسماتيك قد جهز أول حملة بحرية استكشافية قامت بالدوران حول افريقيا عن طريق رأس الرجاء الصالح لأول مرة فى

تاريخ العالم ، كما قام هذا الملك بتوصيل البحرين الأحمر والمتوسط بحفر قناة لتوصيل النيل بالبحر الأحمر.

كذلك فقد ازدهرت الفنون فى هذا العصر وإن كانت فى مجملها عبارة عن نسخ وتقليد ومحاكاة طبق الأصل للتحف الفنية المصرية الكلاسيكية القديمة .

• الفرس قادمون

شهد القرن السادس قبل الميلاد والقرون القليلة التالية له ، مولد حضارات جديدة واندثار حضارات عدة .. دالت دول وحلت محلها دول وامبراطوريات جديدة متنامية . وهكذا كانت دورة الحياة .

فى الشرق نشأت امبراطورية الفرس فتية قوية طموحة . وكانت مصر بالنسبة لها هى أقصى مطامح توسعاتها فى دول العالم القديم . بل وأعلن ملوك الفرس أنهم لوفتحوا مصر فإن ذلك سيعد أكبر انتصار لهم ، يبرهن على قوتهم أمام العالم القديم كله .

وفى سنة ٥٢٥ ق . م وقعت إحدى المصائب الكبرى فى تاريخ مصر والمصريين ، فقد تمكن « قمبيز» من القيام على رأس حملة جبارة ، واستولى على مصر كلها بعد حرب مقاومة كبيرة مريرة من المصريين بالاشتراك مع المستوطنين الإغريق الذين كانوا يقيمون بمصر بصفة مستديمة .

وتمكن الفرس من تكوين أسرة مالكة لتجلس على عرش مصر ، وهى الأسرة السابعة والعشرون التى حكمت مصر قرابة ١٢٠ سنة .

وقد عامل الفرس المصريين باستعلاء وتجبر ووحشية فأشاعوا الإرهاب والتقتيل والتعذيب والإهانة ، مما دفع الشعب المصرى إلى التكتل والثورة ضد الغزاة الطغاة . وقد حدثت بالفعل عدة ثورات لمناهضة الفرس ، ولكنها كانت تخمد بقسوة بالغة وأولاً بأول .

ولكن توالى هذه الثورات ضد الحكم الفارسى ، نجح أخيراً فى زحزحة الكابوس الغازى عن أرض مصر ، خصوصاً أن قوات الاحتلال الفارسية كادت أن تصبح مقطوعة الصلة مع مركز الدولة فى إيران ، بالإضافة إلى النمو الحربى للدولة الإغريقية التى أصبحت تناوىء الفرس فى مستعمراتهم ، بل وأصبحت تهددهم فى عقر دارهم .

• لحن الختام الحزين

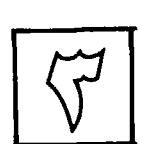
و بعد اندحار الفرس عن مصر، تكونت أسر مالكة ضعيفة حكمت مصر على التوالى ، وهى الأسرة الثامنة والعشرون التى تكونت من ملك واحد استمر حكمه نحو ست سنوات ، والأسرة التاسعة والعشرون التى استمرت فى الحكم نحو عشر ين سنة . وأخيراً الأسرة الثلاثون التى حكمت نحو سبع وثلاثين سنة انتهت بسيطرة الفرس مرة أخرى على البلاد . وكان ذلك فى سنة ٣٤١ ق . م . ولكن حكمهم هذه المرة لم يستمر أكثر من تسع سنوات .

وفى سنة ٣٣٢ ق . م ، كان الاسكندر المقدونى قد قطع شوطاً طو يلاً فى فتوحاته العسكر ية فى أقطار العالم القديم ، و وصل عندئذ إلى مصر، فاستقبله المصر يون كفاتح جديد رحيم يخلصهم من الاحتلال الفارسى البغيض .

ومن بعد غزوة الاسكندر الأكبر لمصر، تـوالت عليها الأمم الأخرى الغاز ية .. الرومان .. العرب .. الأتراك .. الفرنسيون .. الانجليز..

ومع ذلك فقد استمرت مصر طوال هذا التار يخ ، تثير كل أمم الأرض بتاريخها الحضارى التليد ، و بآثارها وأسرارها وعلومها وآدابها وفنونها ، التى كانت ومازالت ، تفتن كل الذين يعلمون من أمم وشعوب العالم ، فى جميع أنحاء كوكب الأرض .. !


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



رمسيس الأكبر : سيد العالم

3. RAMSES THE GREAT MASTER OF THE WORLD

BY: WILLIAM MACQUITTY.



• المؤلف .. والكتاب

ولیم ماكويتى .. كاتب ومصور، عضو الجمعية الجغرافية الملكية ، وزميل بجمعية التصوير الفوتوجرافى الملكية ببريطانيا ، وخريج حائز على مرتبة الشرف من « جامعة الملكة » فى بلفاست ..

اختاره شاه إيران الراحل من بين مئات الكتاب المصورين العالميين للإشراف على كتاب « فارس .. المملكة الخالدة » الذى يتضمن تسجيلا للاحتفالات بمرور ٢٥٠٠ عام على تأسيس المملكة الفارسية .

و يعتبر كتابه « رمسيس الأكبر .. سيد العالم » خامس كتاب له عن تاريخ الحضارة المصرية القديمة ، أما الكتب الأربعة الأخرى فهي عن « أبوسمبل » .. « جزيرة إيزيس » .. « الحكمة عند قدماء المصريين » .. « توت عنخ آمون ـ الرحلة الأخيرة » .. وكلها كتب ناجحة بلغت الذروة فى حجم المبيعات والتوزيع فى أوربا وأمريكا وأنحاء العالم الأخرى .. هذا بالإضافة إلى كتب أخرى للمؤلف تتناول معالم أخرى من الحضارة الإنسانية .

وكتقليد علمى متبع ، تقدم المؤلف بالشكر لكل من ساعده فى إخراج هذا الكتاب عن رمسيس الأكبر .. وأبرزهم ت . ج . هـ . جيمس أمين القسم المصرى بالمتحف البريطانى الذى كتب مقدمة الكتاب وراجع نصوصه وترجم النصوص الهيروجليفية الخاصة بأسماء رمسيس .. ومن المصريين عادل طاهر بوزارة السياحة ، وعلى كحالة

بأسوان ، وجلال عيد بالأقصر ، ومحمد ابراهيم بالمتحف المصرى بالقاهرة ، ونادية ابراهيم بالاسكندرية ، وسامى المصرى بلندن ، والدكتور جمال الدين مختار ، والسفير سميح أنور . . .

تقديم : كلمة فرعون .. ليست شتيمة !

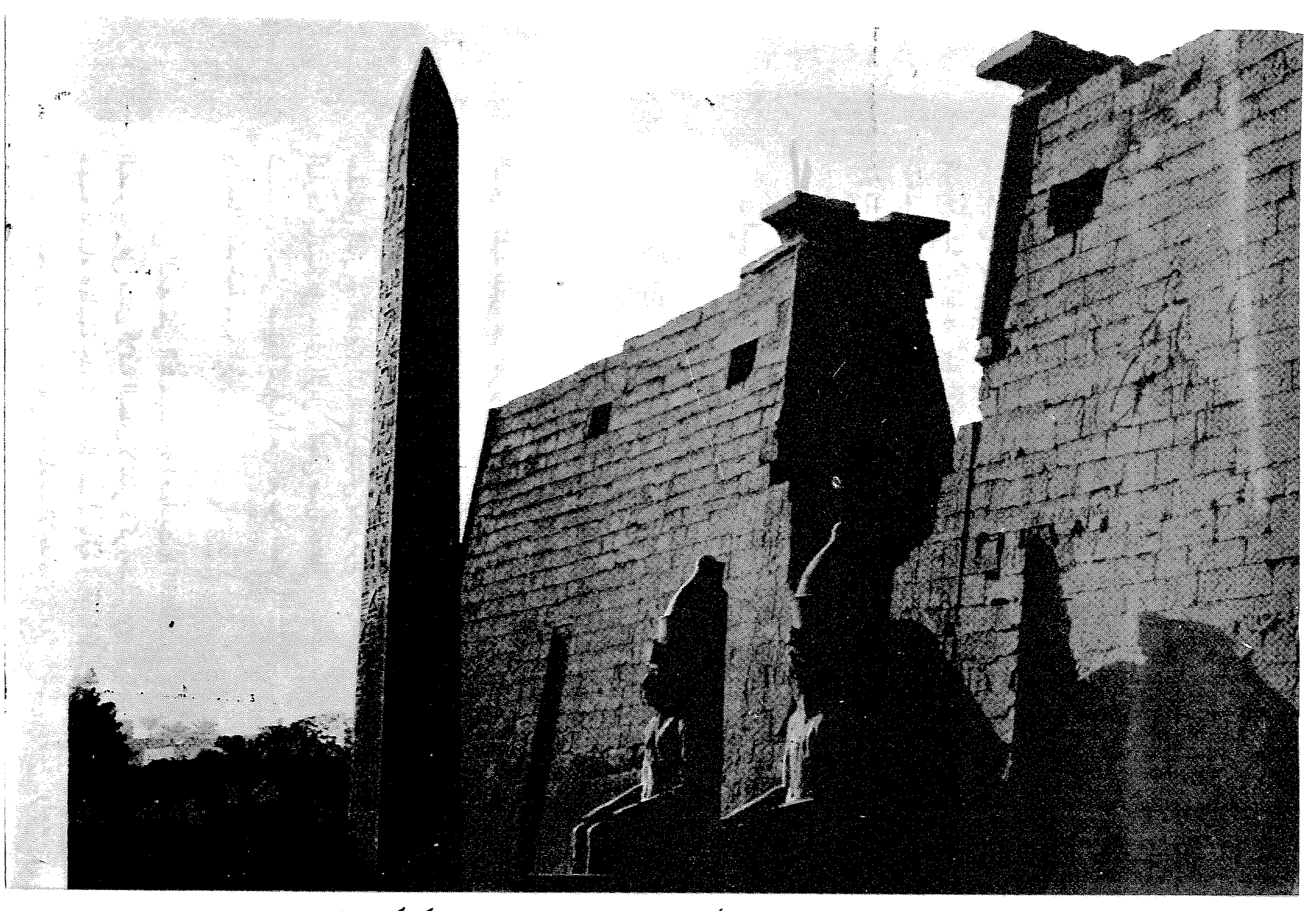
رأيت قبل أن أعرض هذا الكتاب ، أن أنبه إلى مادرج عليه البعض من إساءة استخدام كلمة فرعون للتعبير عن أى حاكم ظالم أو متحكم ملعون .. وإذا كان القرآن الكريم قد لعن فرعون ، فهى لعنة تنصرف إلى فرعون موسى وحده ، ولا تنصرف على بقية الفراعنة الآخرين ، كما لا تنصرف إلى لقب فرعون نفسه . . .

وعلى أية حال فإن كلمة فرعون كلمة مركبة منحوتة من كلمتين : « بر» ومعناها البيت أو القصر .. و« عو» ومعناها الكبير أو الأعظم .. وقد أطلقت كلمة فرعون فى البداية على القصر الملكى أو « البيت الأعظم » ثم أصبحت بعد ذلك علماً على كل ملك كان يتبوأ عرش مصر فى التاريخ القديم .. وقد ترددت كلمة فرعون كثيراً بهذا المعنى فى سفر الخروج بالتوراة .

ولا ينكر أى إنسان متحضر فى عالم اليوم ، أن من بين هؤلاء الفراعنة العظام الذين حكموا مصر فى التاريخ القديم وحتى ظهور المسيحية ، عشرات ومئات من الفراعنة الذين تركوا أمجاداً على الأرض ، وأرسوا معالم أعظم حضارة إنسانية مازالت إلى الآن منهلاً لثقافة الإنسان فى كل مكان وزمان . .

● رمسيس .. فى قلب باريس !

يقول المؤلف فى السطور الأولى من كتابه : فى ميدان الكونكورد فى قلب باريس ، تقف مسلة مصرية شامخة مكتوب عليها بالهيروجليفية .. [**رمسيس .. قاهر كل الشعوب الأجنبية .. السيد على كل من لبس تاجاً .. المحارب الذى هزم الملايين من الخصوم والأعداء .. والذى خضع العالم كله لسلطانه ، ومعترفاً بقوته التى لا تقهر..**] .



مسلة رمسيس الثانى بمعبد الأقصر.. شقيقتها منصوبة فى ميدان الكونكورد بباريس..

ولمسلة الكونكورد شقيقة تقف شامخة بدورها فى معبد الأقصر بصعيد مصر ، حيث كان رمسيس الثانى المعروف برمسيس الأكبر يتعبد إلّهه آمون ..

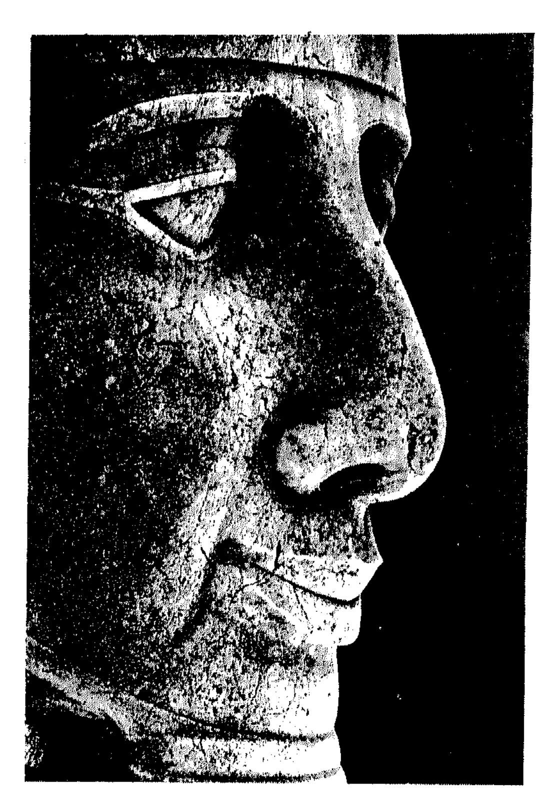
إننا مازلنا لانعرف الكثير من الأسرار التى تكتنف تاريخ هذا الفرعون العظيم .. بالرغم من آثاره الكثيرة التى تنتشر فى مصر وخارجها ، والتى حرص فيها رمسيس على تسجيل تاريخه والأحداث التى عاصرها بكثير من الإسهاب والتفصيل .. ومع ذلك فيمكننا أن نفهم بسهولة من تاريخ هذا القائد الشامخ ، أن باريس نفسها لوكانت موجودة على أيامه ، لكان بالقطع قد فتحها وضمها إلى امبراطوريته المترامية ، ولكان من المؤكد أنه كان سيقيم مسلة عظيمة تسجل هذا الحدث .. ربما فى نفس المكان الذى توجد فيه مسلته الآن بميدان الكونكورد .. !

● اسم رمسيس ..

ويقول ت . ج . هـ . جيمس أمين القسم المصرى بالمتحف البريطانى فى مقدمة هذا الكتاب : « إن قدماء المصريين الذين كانوا يعيشون فى القرون الأخيرة للحضارة الفرعونية ، عندما كانوا ينظرون إلى ماضى تاريخهم التليد ، كان رمسيس الأكبر يتبوأ أبرز مكانة بين الفراعنة الأمجاد .. فمبانيه الضخمة كانت لم تزل باقية رغم مرور مئات السنين ، تشيد بقدرة هذا الفرعون على البناء والتشييد .

وحتى وقتنا الحاضر ، فإن أى زائر لمصر ، يستطيع أن يلمس بنفسه مدى الحضور المعمارى لهذا الفرعون الأكبر فى كل موقع ومكان مهم فى طول البلاد وعرضها . ومن حقائق التاريخ القديم ، أن اسم رمسيس يعتبر مرادفا للإنشاءات الضخمة التى مازالت آثارها باقية على مدى الزمن ، تعطى صورة مذهلة لما كانت عليه تلك الإنشاءات حين شيدت ، وتعطى صورة أكثر إبهاراً عن الفرعون العظيم الذى كان وراء كل تلك البنايات والأعمال الضخمة ..

وحتى القصص الشعبية و« الحواديت » القديمة التى كانت تتناقل بين أجيال المصريين على مدى آلاف السنين لا تغفل ذكر رمسيس الأكبر باعتباره ملكا حدثت فى عهده أشياء عظيمة جديرة بأن تظل سيرتها باقية فى آذان المصريين وأسماعهم ، لتفعل فيهم فعل السحر والانبهار بقصص وحكايات الأجداد الأقدمين .. حتى موضوع زواجه من



مقارنة طريفة بين ملامح رمسيس الأكبر وصعيدى عجوز من أقصى جنوب مصر



بنت ملك الحيثيين ، فقد صيغ فى قالب درامى رومانسى من خلال « حدوتة الأميرة بختان .. » .

ورمسيس الأكبر هو الملك « رامبسنيت » الذى ذكره هيرودوت فى حديثه عن مصر القديمة .. فقد ظل اسم رمسيس باقياً بعد موته بمئات السنين . حيث كان خلفاؤه من حكام مصر وفراعنتها ينقشون اسمه على آثارهم للتبرك به والإشادة بمجده ، كما ظل صناع الجعارين ــ سواء فى داخل مصر أوفى خارجها ــ ينقشون اسم رمسيس الأكبر لتزيين وجه الجعران زينة مباركة لها فعل السحر فى نفوس الناس .

ويستطيع أى سائح يعرف الحروف الهيروجليفية أن يلمح فى سهولة آلاف « الخراطيش » التى تتضمن الاسم الملكى لرمسيس الثانى أورمسيس الأكبر..

وقد أطلق اسم رمسيس على كثير من ملوك الأسرة التاسعة عشرة والأسرة العشرين .. وكان أول فرعون تسمى باسم رمسيس ضابطا مصرياً فى جيش « حورمحب » الذى انتهى على يديه تاريخ الأسرة الثامنة عشرة ، بعد أن مات دون أن يخلف للعرش وريثاً ، فتقلد هذا الضابط القائد مقاليد الحكم باسم « رمسيس الأول » مؤسساً بذلك أسرة حاكمة جديدة هى الأسرة التاسعة عشرة ، وكان ذلك فى سنة ١٣٢٠ ق م .

ومنذ هذا التاريخ ، تكرر إطلاق اسم رمسيس على بعض ملوك هذه الأسرة وملوك الأسرة التى تلتها فى حكم مصر ، الأمر الذى تحددت فيه معالم وملامح عصر بأكمله قائم بذاته فى التاريخ المصرى القديم ، وهو « عصر الرعامسة » الذى بدأ برمسيس الأول وانتهى بنهاية « رمسيس الحادى عشر » ونهاية الأسرة العشرين نفسها فى سنة ١٠٨٥ ق م .

ولعل من الضرورى أن نعرف أن الاسم الأصلى لرمسيس الثانى أورمسيس الأكبر هو [وسر ماعت رع ستبن رع] ومعناه الحرفى [رع قوى العدالة ومختار رع] .. أما اسمه الملكى بعد التتويج فهو « رعمسيس الثانى » .. ويكتب اسم رعمسيس عادة بعد حذف حرف العين لتسهيل الكتابة والنطق ، وليصبح كما درجنا عليه .. رمسيس بدلاً من رعمسيس ..

• مقارنة بين .. أشهر فرعونين !

بالرغم من أن الفترة التى تفصل بين حكم توت عنخ آمون وحكم رمسيس الثانى لاتجاوز ثمانية وأربعين عاماً ، إلا أن الفارق الحقيقى بين هذين الفرعونين جد عظيم ،

برغم ماتجمع لكل منهما منفرداً من أسباب الشهرة والصيت مايغطى عالم اليوم ركنا ركنا ..

مات توت عنخ آمون صبياً غضاً لايتجاوز عمره تسعة عشر عاماً ، ومات رمسيس الأكبر بعد حياة حافلة قاربت قرنا بأكمله .. على وجه التحديد سبعة وتسعين عاماً .. !

مات توت عنخ آمون دون أن ينجب ابنا واحداً يخلفه على العرش ، بينما بلغ عدد أبناء رمسيس الأكبر «١١١» ولدا بالإضافة إلى «٦٧» بنتا .. !

وكان توت عنخ آمون سعيد الحظ حين لم يمس السوء مقبرته حتى اكتشفها كارتر عام ١٩٢٢ ، وشاهد العالم منذئذ أعظم كنز عثر عليه الإنسان فى تاريخ البشرية .. أما رمسيس الأكبر فقد نهبت مقبرته الضخمة بما فيها من كنوز من المؤكد أنها كانت تفوق كنوز توت عنخ آمون مئات المرات .. وهى الآن مقبرة خاوية تماما وخالية من أية نقوش تماثل النقوش الرائعة التى تزين جدران مقبرة توت عنخ آمون .

ولكن بالرغم من حسن حظ توت عنخ آمون فى صون مقبرته ، فقد وجدت مومياؤه فقيرة التحنيط إذا قورنت بمومياء رمسيس التى وجدت سليمة تماماً ومحنطة بأعلى مستويات فن التحنيط عند قدماء المصريين ، وذلك بالرغم مما تعرضت له هذه المومياء بعد الدفن ، حيث نقلت أولاً من المقبرة الأصلية بعد نهبها ، ثم أعيد دفنها عدة مرات فى مقابر مختلفة إلى أن تم دفنها أخيراً فى المقبرة الملكية الجماعية التى عثر عليها خلف معبد الدير البحرى ، والتى أعدت كخبيئة لمومياوات أغلب الفراعنة الذين كانوا مدفونين بمقابر وادى الملوك ، والذين تعرضت قبورهم للسطو والنهب فى هذا التاريخ القديم ..

وأخيراً فإن توت عنخ آمون نظراً لقصر فترة حكمه ، والظروف المرتبكة التى كانت تمر بها البلاد فى أيامه ، فلم يكن لديه وقت كاف يمكنه من أن يترك أثراً باقيا غير مقبرته ، وبعض الآثار القليلة جداً فى منطقة الأقصر .. أما رمسيس الأكبر فقد اعتبر سيد البنائين فى العالم القديم كله ، إذ ترك آثاراً قليلها مازال باقياً حتى اليوم . ورغم ذلك فإن هذا القليل موجود فى الأغلبية العظمى من المناطق الأثرية المصرية فى طول البلاد وعرضها .. أما العدد الحقيقى للآثار التى شيدها هذا الفرعون العظيم ، فيتجاوز الآثار الموجودة عشرات المرات على وجه اليقين ، ولكنه إما قد زال بفعل عاديات الزمن وعاديات البشر ، وإما مازال خبيئا تحت الثرى ، لم تدركه بعد يد إنسان تمتد فى يوم ما ، لترفع الحجاب عن المزيد من تاريخ هذا الفرعون العظيم ..

• أسلافه المباشرون .. وانتقال السلطة .

بعد موت توت عنخ آمون دون أن يخلفه وريث يجلس على عرش البلاد ، تولى الملك « آى » كبير كهنة آمون الذى استمر فى الحكم نحو أربعة أعوام توفى بعدها ، فانتقلت السلطة إلى قائد الجيوش المصرية « حور محب » الذى تزوج من الأميرة « موت نجمت » أخت الملكة الجميلة « نفرتيتى » زوجة اخناتون ، وذلك ليكتسب جلوسه على عرش البلاد صفة الشرعية .

وكان حور محب بطبيعته رجلاً قويا ، بذل جهوداً جبارة فى محو آثار الأفكار التى اعتبرت فى ذاك الوقت أفكاراً هدامة ، والتى نادى بها « اخناتون » أول الموحدين الذين دعوا إلى عبادة إله واحد ولا إله إلا هو.. كما قام بتحطيم الغالبية العظمى من الآثار والإنشاءات التى تركها اخناتون ، كما دمر مدينة « آخت آتون » التى بناها اخناتون لتكون عاصمة للبلاد بدلاً من طيبة ، وعاصمة لديانة التوحيد الجديدة التى نادى بها وأرغم الجميع على اعتناقها ..

واستمر حكم « حور محب » نحو ثمانية وعشرين عاماً ، وخلفه على عرش مصر وزيره « بارعمس » الذى تولى الملك باسم رمسيس الأول ..

ولم يكن رمسيس الأول سليل فراعنة ولا يجرى فى عروقه دم ملكى ، ولذلك فلم يكن هناك مناص من وجوب تأسيس أسرة حاكمة جديدة منبتة الصلة بالأسرة التى سبقتها .. ولكن رمسيس الأول حين تولى العرش كان طاعنا فى السن ، ولم يستمر حكمه سوى فترة قصيرة تقل عن سنتين ، فورث الحكم من بعده ابنه « سيتى الأول » والد رمسيس الأكبر ..

وبالرغم من أن حكم سيتى الأول لم يدم سوى نيف وخمسة عشر عاماً ، إلا أنه تمكن فى خلال هذه الأعوام من تأمين البلاد طولاً وعرضاً ، وخلصها إلى حد كبير من أصحاب المذهب الاخناتونى الداعين إلى عبادة إله واحد ، وأعاد بالتالى نفوذ كهنة آمون ، ونفوذ كهنة الآلهة الآخرين ، فتعددت بذلك الآلهة فى عهده ، تماماً مثلما كان الحال قبل اخناتون . وهذا مايفسر لنا قيام سيتى الأول بتعمير المعابد التى كانت قد خربت أو هجرت ، واعادة بناء ما تهدم منها ، بالإضافة إلى انشاء معابد جديدة تتميز بالضخامة ، وفخامة مابها من نقوش مرسومة وتماثيل منحوتة ، كما تميزت بروعة الفن المعمارى الذى عرفت به الأسرة التاسعة عشرة بأسرها .

و يكفى سيتى الأول فخراً ، ذلك المعبد الضخم الذى بناه فى « أبيدوس » لعبادة الثالوث المقدس المكون من الآلهة أوز يريس وزوجته إيز يس وابنهما حورس .. وهى الديانة التى تركت بصماتها على الفكر الدينى فى مصر القديمة طوال تاريخها ، بل والتى أثرت أيضا فى الفكر الدينى خارج مصر فى مختلف أنحاء العالم القديم الذى كان معروفاً أيامئذ ..

و بالإضافة إلى هذه النهضة المعمار ية التى نشرها سيتى الأول فى مختلف أنحاء الديار المصر ية ، فقد قام هذا الملك بغزوات وحملات تأديبية كثيرة ، أخمد بها القلاقل والثورات التى ظهرت فى بعض جهات الامبراطور ية المصر ية نتيجة لتراخى اخناتون وسياسته وتفرغه الكامل للدعوة لديانة التوحيد التى ارتآها .. فقام سيتى الأول بغزو جميع المناطق الشمالية من الامبراطور ية المصر ية ، وهزم المنشقين على الامبراطور ية من حيثيين وسور يين وليبيين .. !

ودفن سيتى الأول فى المقبرة الفخمة المعروفة باسمه فى وادى الملوك ، والتى تعتبر أكبر وأعظم مقبرة فى الوادى كله ، بما فيها من كنوز فنية رائعة خلدتها جدران المقبرة المحفورة بعمق يز يد على مئة متر فى قلب الصخر ، والمز ينة بنقوش وكتابات تتناول الحياة فى العالم الأول والعالم الآخر ، وتكاد من فرط بهائها وروعتها ودقة ألوانها ، تؤكد أن الفنان الذى أبدعها قد انتهى منها منذ ساعات قليلة ، بصرف النظر عن آلاف السنين التى مرت ...

● كيف أصبح ملكا .. ؟ !

هناك غموض يحيط بكيفية انتقال السلطة إلى رمسيس الثانى ووراثته لعرش أبيه .. فقد ثبت أن رمسيس لم يكن الابن البكر لسيتى الأول ، وإنما كان له أخ أكبر منه سنا .. وكان من المفروض أن يرث هذا الأخ الأكبر العرش دون أخيه الأصغر .. و يزداد هذا الأمر غموضاً حين تثبت الوثائق الملكية لهذه الأسرة ، أن رمسيس كان مفضلاً بشكل قاطع لدى والده سيتى ، لدرجة أنه ببلوغ رمسيس سن العاشرة ، وهى سن تعتبر مبكرة جداً ، عينه والده ضابطا بالجيش المصرى ، ومنحه « حريمه » الخاص .. !

وتثبت الوثائق أيضا ــ خصوصاً النصوص المحفورة على جدران معبد أبيدوس الذى أنشأه الأب وأكمله الإبن و وسعه ــ أن سيتى قد أمر بتتويج ابنه عندما بلغ الصبا ، وأشركه معه فى حكم البلاد .. وتقول الوثائق على لسان رمسيس : [إن إله العالم نفسه قد

عظمني وباركني منذ أن كنت طفلاً إلى أن وليت الحكم .. لقد أعطاني الحق في حكم الأرض حين كنت لم أزل في البيضة (أي حين كنت جنينا) .. لقد اختارني لوراثة الأرضين (الوجهين القبلي والبحرى) وأمر بتعييني قائداً على قوات المشاة وقوات الفرسان .. ولقد أمر والدى بتتويجي أثناء حياته حتى يشركني معه في الحكم .. وقال عني « توجوه كما لو كان ملكا .. وضعوا على رأسه التاج الأكبر .. أريد أن أشاهد جماله وبهاءه وأنا حي » .. !] .

كذلك تدل الشواهد بصفة قاطعة على أن رمسيس قد أشرف على العديد من الأعمال الإنشائية الضخمة التي بدأها والده في جنوب البلاد وشمالها ، كما تولى قيادة الجيوش المصرية في بعض الحملات التي أرسلها والده لتأمين حدود البلاد بما فيها البلاد التابعة لها في المناطق الشمالية والغربية والجنوبية .

وقد تمرس رمسيس بشئون الحكم واكتسب خبرات سياسية وعسكرية ومعمارية رائعة ، أهلته لأن يتبوأ المكانة العظمى التي عرف بها كحاكم عظيم شجاع في تاريخ العالم القديم بأسره .. بل والتي ذاع صيته بها سواء في عالم اليوم أو عالم المستقبل .. وقد انفرد رمسيس الثاني وحده بعرش البلاد ، فور موت والده سيتي الأول .. وكان ذلك في عام ١٢٩٠ ق م .

● في السنوات الأولى من حكمه ..

كانت « النوبة » أولى البلاد التي زارها رمسيس بعد انفراده بالحكم مباشرة .. ولم يكن ذلك عفو الخاطر ، وإنما كان طبقا لخطة وضعها الملك الجديد لتأمين حدود البلاد وإعادة إخضاع المناطق التابعة لها ، والقضاء على أية قلاقل أو اضطرابات في نظام الحكم الذى نظمته مصر في تلك المناطق .. ومن أجل ذلك كانت أولى الحملات العسكرية لرمسيس موجهة نحو النوبة لإقرار النظام هناك ولتأمين حدوده الجنوبية .

ومن المحتمل جدا ، أنه حين كان يقود حملته في المناطق النوبية فيما بين الجندلين الأول والثاني جنوبي أسوان .. وقف في منطقة رائعة عند منحنى واسع لنهر النيل ، يضم بين ذراعيه ربوة صخرية عالية ترتفع نحو مائة متر ، وهي بذلك تعتبر في حد ذاتها ظاهرة نادرة وسط هذه الصحراء المترامية المستوية ، وهي الصفة التي تتميز بها الصحراء النوبية التي يجتازها النيل قبل أن يمسح على وجه مصر القبلي في طريقه إلى الدلتا .. في تلك المنطقة



والـده الـعـظيم سيتى الأول [فى المقدمة] وخلفه مباشرة أحد أبنائه من إخوة رمسيس ، بينما يـظـهـر رمسيس نفسه وهو يخطو خطوة واسعة ، ويمسك بحبلٍ يجر به إحدى السفن المقدسة .

وقف رمسيس الأكبر، ونظر إلى تلك الربوة العالية وقال : هنا .. لابد أن ابنى معبداً ضخماً ليصبح أروع المعابد وليخلد اسمى على مدى الزمن .. !

هكذا وعلى الفور، شرع رمسيس فى بناء معبد « أبوسمبل » .. ليؤكد سلطان مصر على تلك المناطق .. وليقف شامخاً فى مواجهة أى أعداء قد يأتون من الجنوب .. ودليلاً على قوة و بأس الدولة المصرية التى قد يفكر هؤلاء الأعداء فى الإغارة عليها ..

وفى السنة الثانية من حكمه توجه إلى أقصى شمال البلاد بمناطق الدلتا .. وطارد « شعوب البحر» حتى قضى عليهم تماماً .. وشعوب البحر هؤلاء هم من يطلق عليهم اسم « شردانا » بالهيروجليفية ، و يقال إنهم جاءوا من جزيرة سردينيا ، وتسللوا إلى المناطق الشمالية لدلتا النيل ،وحاولوا الاستقرار هناك ..

وفى السنة الثالثة أكمل بناء مقصورته وأعمدته الرائعة بمعبد الأقصر.. وفى نفس السنة أيضا ، قام بحملته العسكرية المظفرة إلى فلسطين وفينيقيا .. وهى بلاد كانت خاضعة للإدارة المصرية منذ مئات خلت من السنين .. و بذلك استطاع رمسيس أن يؤمن الحدود الشمالية للامبراطورية المصرية حتى حدود بلاد « الحيثيين » شمال سوريا وقرب تركيا ..

كان « الحيثيون » فى ذلك الوقت هم القوة الوحيدة التى تسبب المتاعب لمصر، فقد كانوا دولة وليدة مازالت فى عنفوانها وتشعر بمدى قوتها ، ولذلك فقد جرؤوا على عقد تحالفات مع بعض حكام الأقاليم التابعة للنفوذ المصرى لإثارة المتاعب ضد مصر، ولضم هذه الأقاليم إلى الدولة الحيثية بعد إخراج النفوذ المصرى منها .

وتدل الشواهد التاريخية على أن « سيتى الأول » ـــ والد رمسيس ـــ قد حارب الحيثيين وحلفاءهم فى عقر دارهم ، وانتصر عليهم تماماً وألحق بهم هزائم منكرة سجلتها الوثائق وجدران المعابد .. إلا أن الحيثيين عاودوا الكرة مرة أخرى فى أوائل حكم رمسيس ، على ظن منهم بأن الأمور ربما تغيرت بعد حكم سيتى ، فأخذوا يعدون قواتهم مرة أخرى ، كما عاودوا الاتصال والتحالف مع بعض حكام الأقاليم التابعة للنفوذ المصرى ، لتأليبهم ودفعهم إلى عصيان الحاكم المصرى الجديد .. وقد وصل الأمر إلى أن عرف رمسيس ـــ من خلال مخابراته الحربية ـــ أن « مواتاليش » ملك الحيثيين يعد جيشاً جراراً للهجوم على مصر .. !

وعلى هـذا ، أمـر رمسيس بتجهيز الجيوش المصرية وإعدادها للحرب .. فانتظم له على الفـور أربـعـة جـيـوش أطـلـق على كل منها اسم إله .. جيش آمون ، وجيش رع ، وجيش بتـاح ، وجـيـش سـت .. وتـعـدادهم جميعا نحو (١٨) ألف محارب ، منهم (٨) آلاف من حملة الرماح والسهام ، و(٥٠٠) عربة حربية تسع كل منها اثنين من المحاربين ، بالإضافة إلى حوالى (٩) آلاف من المشاة وغيرهم ..

وعلى رأس هـذه الجـيوش خرج رمسيس من مصر فى بداية فصل الربيع مجتازاً حدودها الشـمـالـيـة ، ومخـتـرقـا كل المناطق الخاضعة للنفوذ المصرى .. وبعد نحو شهر من التحرك والـتـقـدم شـمالاً ، وصل إلى مكان يبعد نحو خمسة عشر ميلاً من مدينة « قادش » .. وهى مـديـنـة قوية ومحصنة جيداً ، تقع جنوبى مدينة « حمص » الحالية ، وتمتد خلال زاوية بين نهـر الـعـاصـى وأحـد روافـده .. وهـى بهذا الموقع الاستراتيجى الحصن تتحكم فى الطريق الـرئـيـسـى لأية جيوش عابرة سواء نحو الشمال أو نحو الجنوب .. وهناك أمر رمسيس جيوشه بأن تعسكر استعداداً للمعركة القادمة ..

● موقعة قادش ...

كـان سـيـتـى الأول قـد أعـاد فـتـح مدينة « قادش » واحتلها بعد طرد الحيثيين منها ، إلا أن الحـيـثـيـين قـد عـادوا إلى احـتـلال المدينة ، الأمر الذى دعا رمسيس إلى وضع خطة لاعادتها مرة أخرى تحت السيادة المصرية .

وبـالـرغـم مـن أن رمسيس لم يوفق فى تحقيق هذا الغرض ، إلا أن موقعة قادش كانت الـقـاسـم المشترك الأعظم فى النقوش التى دونها على معابده فى الأقصر والكرنك والرمسيوم والـعـرابة المدفونة وأبوسمبل .. كما كتبت أحداث الموقعة فى برديات متفرقة تسجل تقريراً تـفـصيليا شاملاً لأحداث الموقعة والمراحل التى مرت بها والنتائج التى انتهت إليها .. وجميع هـذه الـوثـائـق لاتـدل على أن الجـيش المصرى قد حقق نصراً حاسماً فى تلك الموقعة ، وإنما تـدور كـلـهـا حول الشجاعة الفائقة التى أبداها رمسيس فى تلك المعركة ، والتى قد تصعب على التصديق لشدة المغالاة فى وصفها .

ويمـكـن تـلـخـيـص وقائع تلك المعركة فيما يلى ، وذلك استناداً إلى النصوص المدونة فى البرديات والمنقوشة على جدران المعابد :

١ ــ إن الجيوش المصرية كانت مكونة من أربعة فيالق على النحو الذى أوضحناه آنفا .. وكانت مواقعها تبعد عن قادش بنحو (١٥) ميلاً .

٢ ــ كانت جيوش الحيثيين وحلفائهم تختفى خلف شمال شرقى قادش ، وكانت تتكون من نحو (٢٠) ألف مقاتل ، ومجهزة بحوالى (٢٥٠٠) عربة حربية تسع كل منها ثلاثة محاربين .. وهو عدد يفوق القوات المصرية من مشاة وفرسان ..

٣ ــ إن بعض الخونة من جواسيس البدو لجأوا إلى معسكر رمسيس وأفهموه أن جيش عدوه من الحيثيين يعسكر قرب « حلب » فى مكان بعيد جداً عن موقع قادش .. وقد انطلت خدعة هؤلاء البدو العملاء للحيثيين على رمسيس للأسف ، ومع ذلك فقد دونها بكل صدق معترفاً بالخطأ الذى وقع فيه ..

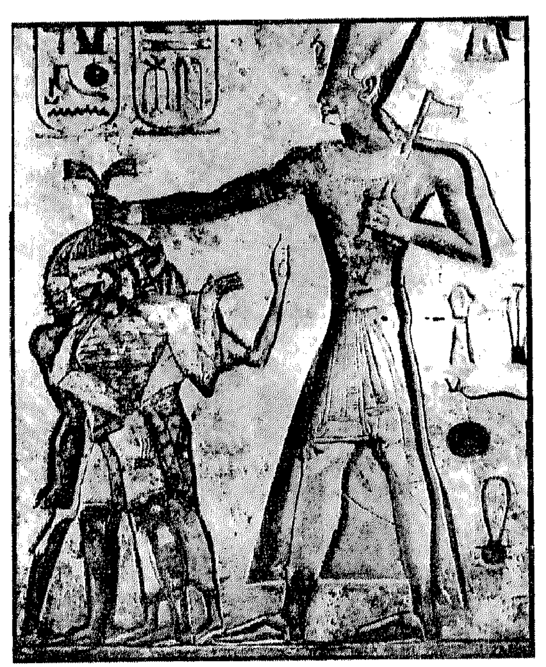
٤ ــ إن رمسيس قد ابتعد ومعه بعض حرسه الخاص عن جيوشه الأربعة ، وتقدم وحده نحو قادش لاستطلاع الأمر ، وللاستعداد لغزو المدينة بعد تجميع جيوشه طبقا لخطة الهجوم المقررة سلفا ، وعسكر رمسيس وحرسه على مرتفع قريب يشرف على المدينة ..

٥ ــ حين كان رمسيس يتناول عشاءه ، أبلغه الحرس بأنهم قد أسروا اثنين من جواسيس الحيثيين ، وأن الجاسوسين قد اعترفا بعد عقابهما بشدة بأن جيش الحيثيين وحلفائهم بقيادة « مواتاليش » يختبىء خلف مدينة قادش نفسها ، وأن الجيش معد تماما للهجوم الفورى على الجيوش المصرية .. وكان لهذا الخبر وقع الصاعقة على رمسيس ، إذلم يكن لديه أى وقت كاف لإخطار جيوشه وتجميعها ، أو حتى لإرسال الرسل لتحذيرها من مغبة هجوم الحيثيين المتوقع بين لحظة وأخرى .

٦ ــ وبالفعل تسلل الحيثيون عند الفجر ، وعبروا نهر العاصى من ناحية جنوب المدينة ، واجتاحوا فيلق رع ثم فيلق آمون من بعده .. وقد لاذ الفيلقان بالفرار بعد أن أخذا على غرة .. بينما كان الفيلقان الآخران « بتاح وست » مازالا يتقدمان ببطء نحو قادش دون أن يعرفا ما لحق بالفيلقين رع وآمون .

٧ ــ انصرف جيش الحيثيين تماماً إلى عملية الاستيلاء على معسكر الجيش المصرى ونهب كل ما فيه .. و يقول بعض المؤرخين العسكريين عن تلك اللحظة ، أنه بكل المعايير العسكرية اعتبر الجيش المصرى بقيادة رمسيس مهزوماً هزيمة منكرة لولا الشجاعة الفائقة التى أبداها رمسيس حفاظاً على سمعته ومكانته القيادية .. فقد وجد القائد نفسه وحيداً منفرداً أمام جيش الحيثيين من مشاة وفرسان وراكبى العربات الحربية .. وفى مثل هذه

موقع معركة قادش .. كما يبدو الآن على ضفة نهر العاصى بسوريا .



لوحة رمزية تمثل رمسيس الثانى وهو يؤدب اعداء مصر من الآسيويين والنوبيين والليبيين .

اللحظات الخطيرة تظهر معادن الرجال ، ومدى قدراتهم على استيعاب الصدمة وإصرارهم على تجاهل اليأس ..

٨ ــ صلى رمسيس مناشداً إلّهه آمون لكى يتدخل ويمنحه العون ليجتاز الأزمة .. وتدل نصوص هذه الصلاة أن الملك كان يخاطب الإله بقوة ، و يكاد يعاتبه على تخليه عنه فى تلك المعركة .. ثم أمر رمسيس قائد عربته الحربية وحامل درعه وكان يسمى « مننا » بأن يستعد لاقتحام جيش العدو ..

(سأدخل بجلالتى على جيش المخنثين هذا .. وسوف أشبعهم قتلاً وذبحاً .. وسوف أطرحهم أرضا .. وأدخل فى قلوبهم الرعب فرداً فرداً ..)

وانخلع قلب « مننا » هلعاً .. فكيف يتأتى لفرد واحد أن يحارب جيشاً بأكمله .. وتقول النصوص المدونة أن « مننا » حامل الدرع قال لمليكه :

(ياسيدى الطيب و يا أشجع الحكام .. ياحامى مصر وقت الحرب وعند كل شدة .. أنظر.. إننا نقف وحدنا بعد أن انصرف عنك قوادك وفرسانك ومشاتك .. فدعنا ننجو ونخرج سالمين وننقذ أنفسنا ... فقال جلالته لحامل درعه : قف منتبهاً وثبت قلبك يا سائق عربتى.. سأنقض الآن عليهم كما ينقض الصقر وأشبعهم ذبحاً ...)

٩ ــ وتصف النصوص المدونة ذلك الإقدام المعجز لفرد واحد ضد جيش بأكمله فتقول : **(وكان جلالته وقتئذ شجاع القلب .. وسقط أمامه كل أجنبى .. وكأن وجهه جذوة نار حارقة باللهيب المستعر.. فسقط الأعداء على وجوههم الواحد فوق الآخر..)**

وقد كر رمسيس على جيش الحيثيين على هذا النحو ست كرّات .. وقد فر أمامه جيش العدو فعلاً حيث أصابه الرعب من الشجاعة الخارقة التى كان يهجم بها هذا القائد الفرد الذى يحارب وحده ، لدرجة أن العدو كان يجرى وهو على يقين أنه فى مواجهة شىء خارق لامثيل له أبداً ..

١٠ ــ وفى الكرة السادسة .. وصلت طلائع من الجيش المصرى ، وانتظمت فى ميدان المعركة بعد أن شاهدت بنفسها جرأة قائدهم الجبار الذى حارب وحده جيشاً بأكمله .. وعندئذ اعتدل ميزان الحرب لصالح المصريين ، فشدوا هجوماً انتقامياً ضد جيش الحيثيين



تمثال نادر لرمسيس الأكبر.. منحوت من حجر البازلت الصلد، ويمثله جالساً، ممسكاً بيده صولجان الملك رمز السلطة والقوة، وعلى رأسه تاج الحرب.

وحلفائهم ، لاذوا على أثره بالفرار بعد أن وقعت فى جانبهم خسائر فادحة ، وقتل منهم آلاف من الجنود والضباط ،بل وبعض أعضاء من أسرة « مواتاليش » ملك الحيثيين .. أما من استطاع الفرار من لهيب تلك الهجمة المصرية ، فقد لاذ بالفرار نحو مدينة قادش ليتحصن بها ..

وهكذا انتهت تلك الموقعة دون أن يخرج أى من الطرفين بنصر حاسم .. وعاد رمسيس إلى مصر بسرعة ليدون تقريراً رسمياً عن أحداث الموقعة بتفاصيل شاملة ودقيقة جداً .. وكذلك لكى يحاسب قادته ويجرى التحقيقات عن كل الأسباب والدوافع التى كانت وراء النتائج التى أسفرت عنها المعركة .

● معاهدة السلام والدفاع المشترك

بعد انتهاء موقعة قادش على النحو الذى ذكرناه ، تجرأ الحيثيون كثيراً وأخذوا يثيرون الفتن فى كافة المناطق التابعة للنفوذ المصرى ، الأمر الذى دعا رمسيس إلى إعادة فتح كل أملاك مصر فى المناطق الآسيوية من جديد ، لينهى كل فتنة وليخمد كل ثورة إلى أن عاد الهدوء تماماً إلى بلاد النهرين وسوريا ولبنان وفلسطين .. ومع ذلك فقد استمرت الحروب بين رمسيس وأعدائه الحيثيين حتى حاربهم فى عقر دارهم ، وذلك على مدى استمر نحو (١٦) عاماً بعد موقعة قادش .

وقد أنهكت تلك الحروب الدولة الحيثية ، خصوصاً وأنها كانت تحارب فى جبهات أخرى غير الجبهة التابعة للنفوذ المصرى . لذلك فقد كان من مصلحة ملك الحيثيين أن يرسل إلى رمسيس الأكبر من يرجوه فى طلب الصلح ..

كان ملك الحيثيين فى ذلك الوقت هو « خاتوسيل » الذى تولى الملك بعد « مواتاليش » الذى مات أو اغتيل كما تقول بعض الروايات .. وقد أرسل إلى مصر بعضا من الأمراء ورجال البلاط وضباط الجيش ليكونوا رسله فى التفاوض مع الجانب المصرى حول شروط الصلح وتدوينها فى معاهدة رسمية .

وقد تم تدوين هذه المعاهدة فى لوحات فضية وبرديات ، كما نقشت نصوصها على جدران المعابد ، كما دونت نسخ منها باللغة البابلية ، وهى اللغة التى فضلتها الدولة الحيثية لتكون لغة أجنبية . وقدتم العثور على هذه النسخ البابلية فى أطلال مدينة « بوغاز كوى » التى كانت عاصمة الحيثيين فى ذلك العهد .

إن الإنسان ليقف مذهولاً أمام الدقة المتناهية التى صيغت بها بنود المعاهدة ، واللغة الدبلوماسية الرفيعة التى عبرت عن الشروط ، والتنظيم المحكم من ناحية الشكل والمضمون .

هناك مقدمة وديباجة لافتتاح نص المعاهدة مع الإشارة إلى معاهدات سابقة أبرمت بين الدولتين فى سنوات سابقة لحكم رمسيس الأكبر وحكم خاتوسيل .. كما ذكرت البيانات الخاصة بالطرفين (فرعون مصر وملك الحيثيين) من حيث المكانة والنسب والألقاب .. ثم تأتى بعد ذلك بنود المعاهدة تحت أرقام مسلسلة .. وهذا الشكل الذى أفرغت فيه هذه المعاهدة الدولية المبرمة منذ حوالى ٣٢٠٠ سنة ، لايختلف كثيراً عن شكل المعاهدات الدولية فى عالم اليوم .. !

وتتضمن المعاهدة بنوداً وشروطاً لإقرار السلام بين الدولتين ، وإقرار مبدأ الدفاع المشترك بين كل من الدولتين فى حالة وقوع اعتداء على أىٍّ منهما (وعلى حسب رغبة فرعون مصر فى هذا الشأن) .. كما تضمنت المعاهدة أيضا بنوداً خاصة بالإجراءات الواجب اتخاذها ضد الرعايا الثائرين ودعاة الفتن والقلاقل ، وقواعد تسليم المذنبين والمجرمين ، وقواعد العفو عن بعض المذنبين الهاربين .. الخ .

وتدل جميع الشواهد على أن رمسيس الأكبر كان يعد هذه المعاهدة بمثابة نصر مؤزر لمصر ، ولذلك فقد كان يشير فى مدوناته على جدران المعابد أنه قاهر بلاد « خيتا » — أى بلاد الحيثيين .

● زفاف فى الستين .. !

بكل المعايير السياسية والعسكرية ، كانت نظرة رمسيس الأكبر إلى تلك المعاهدة نظرة صائبة ، وتدل على سعة أفق وحس سياسى استراتيجى على أعلى مستوى .

إن دولة الحيثيين القوية التسليح ، وذات الجيش المنظم القوى قد أصبحت برمتها — طبقا لتلك المعاهدة — حاجزاً منيعاً فى مواجهة الدول الحديثة الأخرى التى نشأت فى الشمال .. [فى المناطق الجنوبية الشرقية من أوروبا ومناطق غرب آسيا] . وامتنع بذلك على تلك الدول أن تفكر فى التوسع جنوبا تجاه الحدود المصرية أو حدود المناطق التابعة للنفوذ المصرى .

وبعد نحو (١٣) سنة من توقيع المعاهدة، وعبر صداقة وطيدة أوضحتها النصوص التى دونها رمسيس على جدران معابده، حيث كان يشير باستمرار إلى الهدايا القيمة التى يرسلها إليه ملك الحيثيين بين حين وآخر وفى مناسبة أو حتى بدون أية مناسبة.. حضر «خاتوسيل» ملك الحيثيين بنفسه ومعه ابنته الكبرى ووفد كبير من الأمراء ورجال البلاط وقادة الجيش لزيارة مصر ومقابلة رمسيس الأكبر، ليقدم إليه الأميرة الجميلة زوجة ضمن زوجاته..

وتقول النصوص أنه عندما وصل هذا الوفد الكبير إلى البلاد السورية، أرسل الحاكم المصرى المفوض فى حكم تلك البلاد إلى سيده الأكبر كتاباً يقول فيه: [إن ملك خيتا قد وصل إلى حدود جلالتك ومعه الأميرة ابنته الكبرى، وعدد من الهدايا من كل نوع، لقد وصلا إلى هنا بعد أن قطعا الجبال العديدة، وقاسيا رحلة شاقة من بلاد نائية.. ونحن فى انتظار تعليمات جلالتك]

وعلى الفور أرسل رمسيس بعضا من كبار رجال الدولة ومعهم جيش يليق باستقبال الملك والأميرة..وفى حفل مهيب أقيم لتكريم الضيوف دخل الوفد الكبير وعلى رأسه ملك الحيثيين وابنته الأميرة وسط الجنود والفرسان المصريين والحيثيين الذين اصطحبوا الموكب حتى وصلوا إلى مقر الفرعون العظيم.. وتم زفاف الأميرة إليه فى نفس اليوم.. وكان عمره آنئذ نحو ستين عاماً.

وقد أعطى رمسيس لتلك الأميرة قدرها الحق، فقد منحها لقباً ملكياً «مات نفرو رع» — أى التى ترى جمال رع، واعتبرها زوجة ملكية، ولم يضمها إلى محظياته وكان عددهن بالمئات، وإنما أصبحت ملكة كاملة الحقوق، مثل باقى زوجاته الملكات وعلى رأسهن الملكة «نفرتارى» كبيرة الزوجات والمفضلة فوق الجميع.

وقد حرص رمسيس على تسجيل وتدوين جميع التفاصيل الدقيقة التى صاحبت هذا الزواج، وكتب قصته على لوحات بجدران معابد أبوسمبل والكرنك والفنتين.. وصف فيها [رحلة ملك الحيثيين ومعه كبرى بناته مع الجزية الثمينة من الذهب، وفضة وطرائف عدة، وخيول يخطئها العد وثيران وغنم بعشرات الالوف وكل محاصيل بلادهم قاطبة..الخ].

ويبدو أن وقائع الاحتفالات الملكية بهذا الزواج كانت مبهرة للشعب المصرى الذى ظل يتداولها فى «الحواديت» الشعبية التى ظلت ترويها الأجيال المتعاقبة عبر آلاف السنين..!

● سيد البنائين ..

لا جدال فى أن رمسيس يعتبر أعظم ملك مصرى أقام العديد من المبانى الضخمة والرائعة فى طول البلاد وعرضها .. فما من مجموعة أثرية من الجندل الثانى جنوباً حتى الدلتا ومصب النيل شمالاً إلا وتحمل اسم رمسيس الثانى أو تشير إلى ما صنعت يداه . هذا بطبيعة الحال بالإضافة إلى آثاره التى تركها فى البلاد الآسيوية . وقد يكون من العبث أن يحصر المرء الأعمال والمبانى التى أمر الملك بتشييدها من معابد وتماثيل ومسلات ولوحات تذكارية ، إلا أنه من الممكن أن نستعرض أهم تلك المبانى والآثار التى تم اكتشافها حتى الآن ..

فى بلاد النوبة انتهج رمسيس نهجاً موحداً فى بناء المعابد ، فبدلاً من الاعتماد فى البناء والتشييد على الأحجار المقطوعة والمجهزة سلفا ، قرر رمسيس نحت جميع هذه الآثار فى الصخر نفسه .. ونلاحظ أن هذه الطريقة ليست من وحى رمسيس أو ابتداعه ، وإنما كانت طريقة متبعة منذ أيام الدولة القديمة وعصر بناة الأهرام ، بل وهناك آثار نحتت بهذه الطريقة فى عصر الأسرة الأولى ، أى قبل أيام رمسيس بنحو ألفى عام .. !

ومن أهم المبانى والآثار التى تركها رمسيس فى بلاد النوبة « معبد بيت الوالى » وحجراته وردهاته منحوتة فى الصخر فى حضن واد جانبى ، وقد استعمل هذا المعبد ككنيسة فى بداية العصر المسيحى .. و« معبد جرف حسين » واسمه الحقيقى بر بتاح — أى بيت الإله بتاح — و« معبد السبوعة » واسمه الحقيقى برآمون — أى بيت الإله آمون — وقد تم بناء هذين المعبدين طبقا لتصميم موحد و بطريقة واحدة هى النحت فى الكتلة الصخرية التى ينبثق منها كل معبد .. و« معبد الدر» وهو منحوت فى الصخر عند سفح تلال النوبة .. أما « معبد أبوسمبل » العظيم فسوف نفرد له عرضاً مفصلاً ، ونشير إليه هنا لمجرد ذكره ضمن الآثار التى خلفها رمسيس فى بلاد النوبة . و« معبد حتحور» أو « معبد نفرتارى » الذى أقامه مجاوراً لمعبد أبوسمبل .. و« معبد محراب فرس » على الضفة الأخرى من نهر النيل ، وكذلك « معبد سرة » المقام على الضفة اليمنى من نهر النيل على مسافة نحو (١٠) أميال شمال حلفا ، و« معبد نباتا » الذى وسعه رمسيس وأكمل مبانيه التى بدأ تشييدها فى عهد توت عنخ آمون .

أما الآثار التى تركها رمسيس داخل القطر المصرى فلا يمكن حصرها .. وإنما نشير هنا إلى بيان بأهمها لعلنا نتبين مدى الهمة والحرص الزائد من هذا الفرعون العظيم لكى يملأ بلاده كلها بآثار خلدها الزمن ..

معبد الكاب .. والتوسعات والإنشاءات الإضافية فى معبد الأقصر ومعبد الكرنك .. ومقبرة رمسيس الثانى بوادى الملوك .. ومعبد الرمسيوم بالضفة الغربية للنيل غرب الأقصر .. ومعبد الإله تحوت فى مدينة منف القديمة .. كما نشير إلى قيامه ببناء مدينة جديدة بأكملها هى مدينة بر رمسيس — أى بيت رمسيس — التى اتخذها عاصمة لامبراطوريته ، وتقع فى شمال شرق الدلتا ..

وإلى جانب هذه المعابد ، هناك مئات من التماثيل والمسلات واللوحات التذكارية والآثار الأخرى الأقل ضخامة ، ولكنها كانت منتشرة فى جميع أنحاء الامبراطورية المصرية على أيامه ..

فى سرابيت الخادم بسيناء .. وفى قنتير .. وفى الاسكندرية .. وفى تل أبوصيفه بجوار مدينة القنطرة .. وفى تل الفراعين .. وشديا .. وكوم الأبقعين .. وكوم الحصن .. ونبيشه .. وصفط الحنة .. وصان الحجر .. وهربيط .. وتل بسطة .. وتل الربع .. وبهبيت الحجارة ، جنوبى مدينة المنصورة .. وتل طنبول بجوار السنبلاوين .. وتل مقدام ودنديت بجوار ميت غمر .. وبلجاى وتل أم حرب وتل مسطاى من أعمال زفتى .. والبرنوجى من أعمال دمنهور .. وكوم فرين المجاورة للدلنجات .. وكوم القلزم قرب السويس .. وتل المسخوطة .. وتل رطابه .. ومسطرد .. وبهتيم .. ومنطقة هليوبوليس ومنشية الصدر .. وتل الحصن .. ومنطقة الجيزة .. وتل أتريب بجوار بنها .. وزاوية رازين .. وكوم أبوبللو .. ومنطقة القاهرة .. وأهناسيا المدينة .. وكوم العقارب القريب من أهناسيا .. وطهنا الجبل من أعمال المنيا .. والأشمونين .. والشيخ عبادة .. والشيخ سعيد .. ومنطقة اسيوط .. والمطمر .. وطوخ نبت .. وقفط .. ونجع المدمود .. وأرمنت .. والكاب .. وجبل السلسلة .. ومنطقة أسوان وجزيرة الفنتين ...

● عمل يشبه المعجزات ..

هذه النهضة المعمارية التى شملت الديار المصرية بطولها وعرضها والتى امتدت أيضا إلى الأقاليم التابعة للنفوذ المصرى فى آسيا وأفريقيا ، تدل دلالة قاطعة على العبقرية الفذة التى كان يتمتع بها رمسيس الأكبر ، كما تدل على مدى القوة والجبروت والقدرة على السيطرة التى أتاحت له أن يقيم كل هذه الآثار ..

ولنا أن نتصور مدى الجهد الهائل والتنظيم الإدارى المحكم الذى كان وراء كل هذه الإنشاءات ، ونتصور أيضا أن هذه الأعمال الضخمة والعديدة ماكان من الممكن أن تقام أوتوجد لولا جهود مئات الآلاف من أمهر المهندسين والحرفيين والبنائين وعمال المحاجر وعمال الشحن والتفريغ والبحارة وغيرهم ..

و يضرب المؤلف مثلا على طريقة قدماء المصريين فى استخلاص الكتل الحجرية الضخمة الهائلة من محاجر الجرانيت والديوريت والدوليرايت وغير ذلك من أصلد الأحجار وأصلبها وأقساها شدة .. فهناك فى أحد محاجر أسوان ترقد مسلة هائلة من حجر الدوليرايت الأخضر لم تزل جزءاً لا يتجزأ من الصخرة الأم التى قدت منها ، أى أن المسلة نفسها قد جهزت من الأمام ومن الخلف ومن جوانبها الثلاثة وتحددت معالمها الاولية تماما فيما عدا جانبها السفلى الذى لم يفصل من الصخرة الأم ، وقد توقف العمل فى استخلاص تلك المسلة الهائلة من الصخرة الأم بعد اكتشاف عيب جوهرى فى الصخرة نفسها ..

ولولا اكتشاف هذا العيب لكان العمل قد استمر فى تنفيذ المرحلة الأخيرة فى استخلاص هذه الكتلة الهائلة وطولها نحو (١٣٨) قدماً ــ أى أكثر من أربعين متراً ــ وعرض كل ضلع من أضلاعها (١٤) قدماً ووزنها الكلى نحو ١١٦٨ طناً .. وكان ذلك سيتم بأن يحدد الخط المطلوب فصل الصخرة عنده ، ثم تحفر خلاله ثقوب متقاربة وعميقة فى قلب الصخر ، ثم تحشى هذه الثقوب بأسافين مناسبة من خشب الجميز المنقوع فى الماء ، وبعد مدة معينة يتمدد الخشب داخل الثقوب بضغط هائل يمكنه أن يفلق صخرة المسلة فى الحدود المطلوبة تماماً و يفصلها نهائيا عن الصخرة الأم ..

وتبدأ بعد ذلك عملية جبارة لإفساح وتمهيد طريق يمتد من هذا الموقع من المحجر حتى شاطىء نهر النيل .. وتسحب فيه مثل هذه الكتل الضخمة طبقا لنظام هندسى للنقل مدروس تماماً من كل نواحيه العلمية والعملية .. وعندما تصل إلى شاطىء النيل يتم رفعها وشحنها فوق ظهر السفن الكبيرة التى كانت تقوم بالنقل النهرى بين مواقع المحاجر ومواقع الإنشاءات فى مختلف أنحاء البلاد .. وتدل شواهد الحال على أن مثل هذه السفن كانت تعد بالمئات .. وأن عمليات الشحن والتفريغ كانت متقنة ومنظمة إلى حد كبير..

وبعد رحلة نهرية قد تمتد من أقصى جنوب البلاد حتى أقصى مناطق الشمال حيث مواقع الإنشاءات ، يبدأ هنا العمل الجبار والجهد الهائل ، لتفريغ هذه الكتل الصخرية الضخمة ، ثم سحبها على طريق يمتد من شاطىء النهر حتى موقع الإنشاء ، وهذه فى حد

ذاتها عملية دقيقة تتوقف عليها سلامة وصول كتلة المسلة أو التمثال إلى النقطة المعينة لها طبقا للتصميم الهندسي الذي يجرى تنفيذه .

وتتجلى عبقرية المهندسين والبنائين المصريين في الطريقة التي كانوا يتبعونها في إقامة هذه المسلات أو التماثيل الضخمة من وضعها « الأفقي » الذي كانت عليه عند لحظة وصولها ، إلى الوضع « الرأسي » الذي ستبقى عليه خالدة مع الزمن .. ولم تعرف حتى الآن وعلى وجه اليقين أسرار الطريقة التي كان يتبعها هؤلاء المهندسون البناؤون لنصب هذه الكتل الهائلة من الصخر الصلد في الوضع الرأسي .. وقد قيلت في ذلك عدة نظريات هندسية .

وفي النهاية تتم أعمال التشطيب والتلميع والإعداد النهائي لتلك المنشآت وتجهيزها للخلود .. وبمثل هذه الطريقة تم نقل أضخم تمثال في العالم لرمسيس الأكبر .. وهو كتلة واحدة من الجرانيت الوردي ، من محاجر أسوان حتى أقيم بمعبد الرمسيوم على الضفة الغربية للنيل أمام الأقصر .. وبالطريقة نفسها نقلت الأحجار والصخور التي استعملت في بناء أهرامات الجيزة قبل عصر رمسيس بنحو (١٥) قرنا .. !!

● في معبدى الأقصر والكرنك ..

قبل أن يولد رمسيس ، كان معبد الأقصر في أوج نشاطه كمعبد مخصص للإله آمون ، وذلك منذ إنشائه في عهد ملوك الأسرة الثامنة عشرة .. لذلك فلم يستطع رمسيس أن يضيف أو يتوسع في أبنية المعبد نفسها .. ولكن رغبة رمسيس في إقامة الإنشاءات الضخمة ، تفتقت عن حيلة معمارية غيرت من معالم المعبد وتصميماته الهندسية .

أمام المعبد أقام رمسيس الأكبر قاعة للعمد العظيمة ، وأنشأ للمعبد بوابة ضخمة ذات برجين هائلين صور عليها جميع وقائع معركة قادش بتفاصيلها العسكرية الدقيقة .. وأمام تلك البوابة الرائعة أقام رمسيس لنفسه ستة من تماثيله الضخمة .. وحتى يكتمل هذا التكوين المعماري الباذخ ، أقام رمسيس أمام التماثيل وبرجي البوابة مسلتين ضخمتين من حجر الجرانيت الوردي .. إحداهما انتقلت إلى ميدان الكونكورد بباريس ، والثانية مازالت في مكانها حتى الآن .. !

أما معبد الكرنك ، فإن أهم جزء فيه هو قاعة الأعمدة العظمى التي اعتبرت إحدى عجائب الدنيا ..



مدخل بهو رمسيس الثانى بمعبد الأقصر

تتكون القاعة من (١٣٤) عاموداً ضخماً مقامة على مساحة نحو (٦٠٠٠) متر مربع، وهى مساحة تبتلع مساحة كاتدرائية نوتردام بباريس بأكملها .. وتصطف الأعمدة الجبارة فى (١٦) صفاً، وقطر كل عامود منها (١٢) قدماً .. أى نفس قطر عامود الفندوم بباريس أو عامود تراجان فى روما ..

وتتكاتف هذه الأعمدة كلها فى حمل السقف الحجرى الذى كان يغطى القاعة العظمى فيما مضى .. وما زالت بعض الأحجار الضخمة التى كان يتكون منها هذا السقف العظيم باقية فوق قمم بعض الأعمدة تشهد على زميلاتها التى تهاوت إلى الأرض وتهشمت بفعل الزمن .. و يقدر طول كل كتلة حجرية من الكتل التى مازالت مرفوعة بين قمم الأعمدة بنحو (٥٢) قدماً.

وتقف الأعمدة الضخمة شامخة فى قاعتها .. وعليها نقوش غائرة مازالت بعض ألوانها الأصلية باقية، تحكى أحداثا من حياة رمسيس الأكبر وحياة والده سيتى الأول، ومعاركهما الحربية، وانتصاراتها المجيدة فى آسيا وافريقيا .. بالإضافة إلى مناظر العبادة والتقديس التى كان لابد من وجودها فى داخل هذا المعبد العظيم الذى كانت تحيطه القداسة من كل جانب وكل ركن فيه ..

و يقول المؤلف أن قاعة الأعمدة العظمى قد تم بناؤها على يد رمسيس الأكبر، وذلك استناداً إلى الكتابات التى سجلها رمسيس بتلك القاعة، والتى ادعى فيها أنها من إنشائه ونسبها إلى نفسه .. ولكن الرأى السائد والذى يقول به الكثير من المؤرخين ودارسى الآثار، أن أول من بدأ البناء فى قاعة الأعمدة الكرنكية كان حورمحب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة، ثم واصل البناء من بعده رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة، ثم ابنه سيتى الأول من بعده .. وعندما جاء رمسيس كانت قاعة الأعمدة شبه كاملة، وما كان عليه إلا أن يزيل الأتربة و ينقش الأعمدة والجدران بنقوش وكتابات جديدة بعد أن أزال النقوش والكتابات السابقة .. !

وعلى أية حال فقد كان معبد الكرنك فى أيام رمسيس الأكبر درة بين معابد البلاد كلها .. و يكفى أن نشير إلى أملاك ومخصصات معبد الكرنك أيامئذ، والتى كانت تتمثل فى (٧٠٠) فدان من أجود الأراضى الزراعية و(٨١) ألف من العبيد و(٤٠٠) ألف رأس من المواشى المختلفة و(٨٣) سفينة نهرية وبحرية ذوات حمولات مختلفة .. هذا بالإضافة إلى دخل سنوى ضخم من سبائك الذهب والفضة والنحاس ومن الطعام والشراب (الجعة والأنبذة) والملابس بأنواعها ..



معبد الرمسيوم .. بالبر الغربى بالأقصر

● ابو سمبل .. سيد المعابد

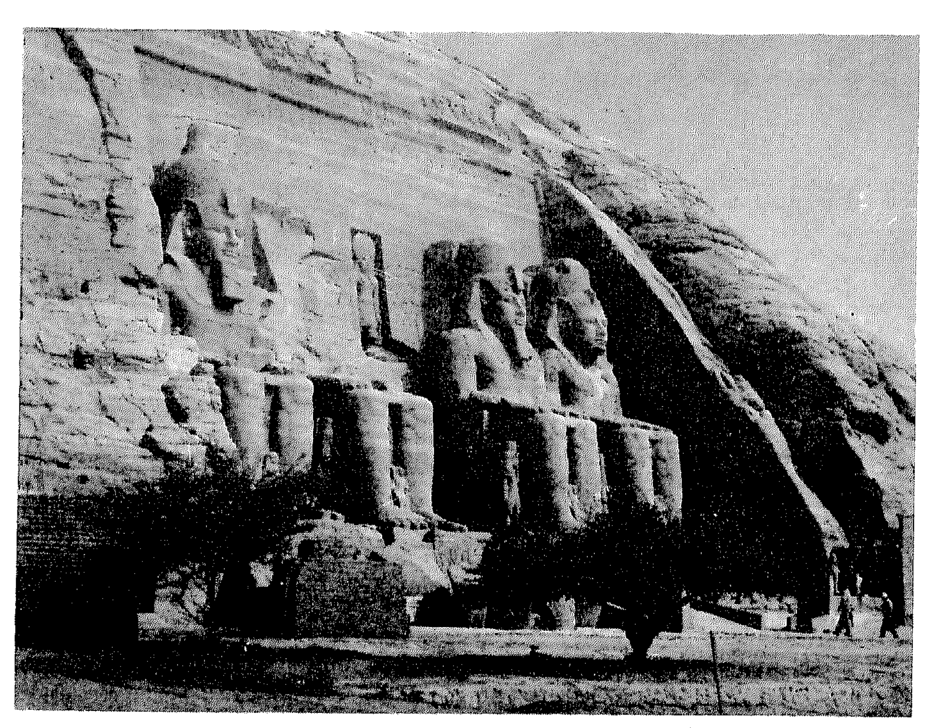
فى سنة ١٨١٢ م أعاد « بورخارد » اكتشاف هذا المعبد الهائل الذى يطل على النيل فى الجنوب .. لم يكن ظاهراً من المعبد حينئذ سوى رأس واحد من التماثيل الضخمة المقامة على الواجهة ، أما المعبد بأكمله فكان مدفونا فى كثيب هائل من الرمال الناعمة ، جرفتها الصحراء وحملتها الرياح لتحمى هذا الكنز المعمارى الضخم من عاديات الزمن والطبيعة والإنسان ، ولتبقيه خالداً على مدى الزمن كما أراد له بانيه منذ نحو ٣٢٠٠ سنة مضت ..

و يقول المؤلف أن الزيارة الصحيحة لهذا المعبد لابد أن تبدأ عند الفجر، حين تكون الشمس لا تزال غائبة وراء الأفق ، وحين تتسلل الخيوط الأولى من هالات الضوء الكونى نحو الشرق ، عندئذ يمكن للعين البشرية أن تلمح الكتلة المعمارية الهائلة المنحوتة بأكملها فى الصخر..

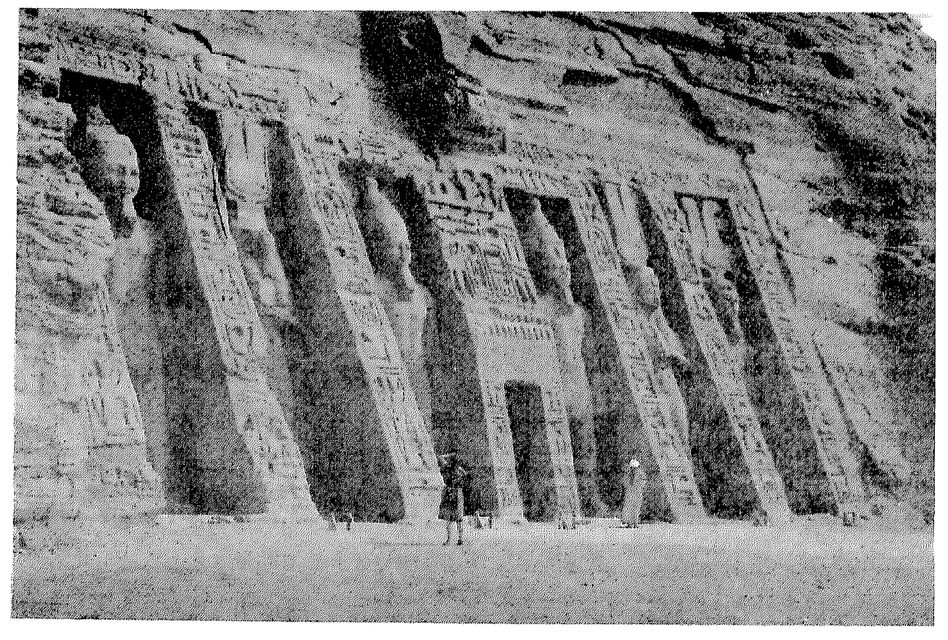
وعندما تعتلى الحافة الأولى من قرص الشمس خط الأفق ، تسقط شعاعات ذهبية فوق صف القرود الذى يزين و يزخرف واجهة المعبد عند أعلى خط فيها .. وقد نحتت هذه القرود ممثلة فى وضع الجلوس والابتهال والتهليل لمشرق الفجر الجديد .. ولتكون أول من يخبر الفرعون الممثل فى تماثيله العظمى بأن الشمس قد عادت من رحلتها الليلية فى العالم السفلى ، وأن يوماً جديداً قد ولد ودون فى سجل الخلود بين أترابه من أيام الماضى الأزلى والمستقبل الأبدى ..

ورو يداً .. تكسو أشعة الشمس واجهة المعبد التى ترتفع شامخة نحو ١٠٠ قدم ، كما تكسو التماثيل الضخمة التى تمثل رمسيس الأكبر جالساً ، والتى يرتفع الواحد منها نحو (٦٥) قدماً ، أى أكثر من عشرين مترا ، كما يقدر عرض المسافة بين كتفى كل تمثال منها بنحو (٢٥) قدماً .. وبهذا الضوء الذهبى الرقيق يلمح الزائر بوضوح مدى القوة والجلال الذى ينبعث من هذا الملك العظيم الذى يجلس هادئا متيقنا من كل شيء ، والذى تعلو وجهه ابتسامة نبيلة دافئة تعبر عن صبر لاحد له فى مشاهدة خلود كون بأكمله ..

وما أن يكتمل قرص الشمس ملامساً خط الأفق ، حتى تبدأ الأشعة الذهبية فى التسلل عبر مدخل المعبد ، وتنعكس على صفحة الأرضية المنحوتة من الحجر الرملى ، فتعكسها بدورها إلى القاعة الداخلية للمعبد ، حيث توجد ثمانية تماثيل ارتفاع كل واحد



معبد أبو سمبل .. منحوت فى قلب الجبل .. و يطل على بحيرة
السد العالى بأقصى حدود مصر الجنوبية .



معبد الملكة نفرتارى [زوجته] .. بجوار معبد أبوسمبل .

منها نحو (٣٠) قدماً وتمثل رمسيس واقفا فى هيبة وجلال الآلهة ، وكأنه ينتظر هذا النور الذى يضىء وجهه كل يوم جديد .

ومن هذه القاعة الداخلية يستمر ضوء الشمس فى التسلل إلى قاعة أخرى ثم إلى قاعة ثالثة تنتهى بقدس الأقداس الذى يتعمق مكانه فى قلب الصخر بنحو (١٨٠) قدماً .. وقد وضع التصميم الهندسى لهذا المكان العميق طبقا لقواعد فلكية دقيقة تتيح لأشعة الشمس أن تدخل إليه مرتين فقط كل عام .. فى اليوم الثالث والعشرين من شهر فبراير [يوم مولده] واليوم الثالث والعشرين من شهر اكتوبر [يوم تتويجه] وهنا نرى التماثيل الأربعة المنحوتة فى كتلة واحدة ، والتى تمثل آلهة أربعة جالسين على قدم المساواة هم بالترتيب : بتاح وآمون رع ، ورمسيس الثانى ، ورع حور آختى .. ونلاحظ هنا أن رمسيس قد وضع نفسه فى صف واحد وعلى قدم المساواة مع ثلاثة من أهم الآلهة التى كانت تعبد فى عهده .. وإذا كان رمسيس قد أله نفسه وجلس بين الآلهة ، فإنه لم يكن يجسر على مثل هذا فى الديار المصرية داخل الحدود الرسمية التى كانت معروفة فى ذلك الوقت .

ونلاحظ أن جميع القاعات الداخلية المنحوتة فى قلب الصخر تتحلى جدرانها برسومات ونقوش غائرة تعرض حياة كاملة بالألوان الطبيعية .. فمازالت ظاهرة حتى الآن ألوان زرقاء وحمراء وبرتقالية وخضراء داخل النقوش الغائرة ، تتألق بدرجات لونية مبهرة نتيجة لتدرج الظل والنور الذى تصنعه أشعة الشمس المتسللة .

ولا تغطى النقوش الغائرة الملونة كل جدران القاعات الداخلية فحسب ، وإنما تغطى أيضا كل بوصة فى جميع الجدران الداخلية والخارجية للمعبد .. وتمثل هذه النقوش لوحات فنية تحكى بنفسها تفاصيل حياة هذا الملك القائد العظيم ، كما تحكى بالنصوص الهيروجليفية مذكراته الحربية والاجتماعية والسياسية ، بل ومذكراته الشخصية عبر حياته العريضة الحافلة بالأحداث الجسام والتى استمرت (٩٧) عاماً ..

ونذكر على وجه الخصوص اللوحة الحربية الرائعة التى تمثل واقعة قادش ، حيث نشاهد الجيوش المصرية التى كان يقودها رمسيس .. صفوف المشاة .. وحاملى الرماح والدروع .. وصفوف الخيالة والفرسان والعربات العسكرية .. ورمسيس المنتصر يطلق السهام من فوق عربته المندفعة بقوة فى زمام المعركة ، و يندفع بجانبها الأسد الأليف الذى كان يصحبه فى المعارك ليبث الرعب فى قلوب أعدائه .. ونشاهد أيضا صفوف أسرى الحرب مكتوفة الأيدى .. ولوحات تعبيرية أخرى عن رمسيس وهو يقبض على بعض الأسرى من شعور رؤوسهم .

• الرفيقة الجميلة .. المفضلة عنده !

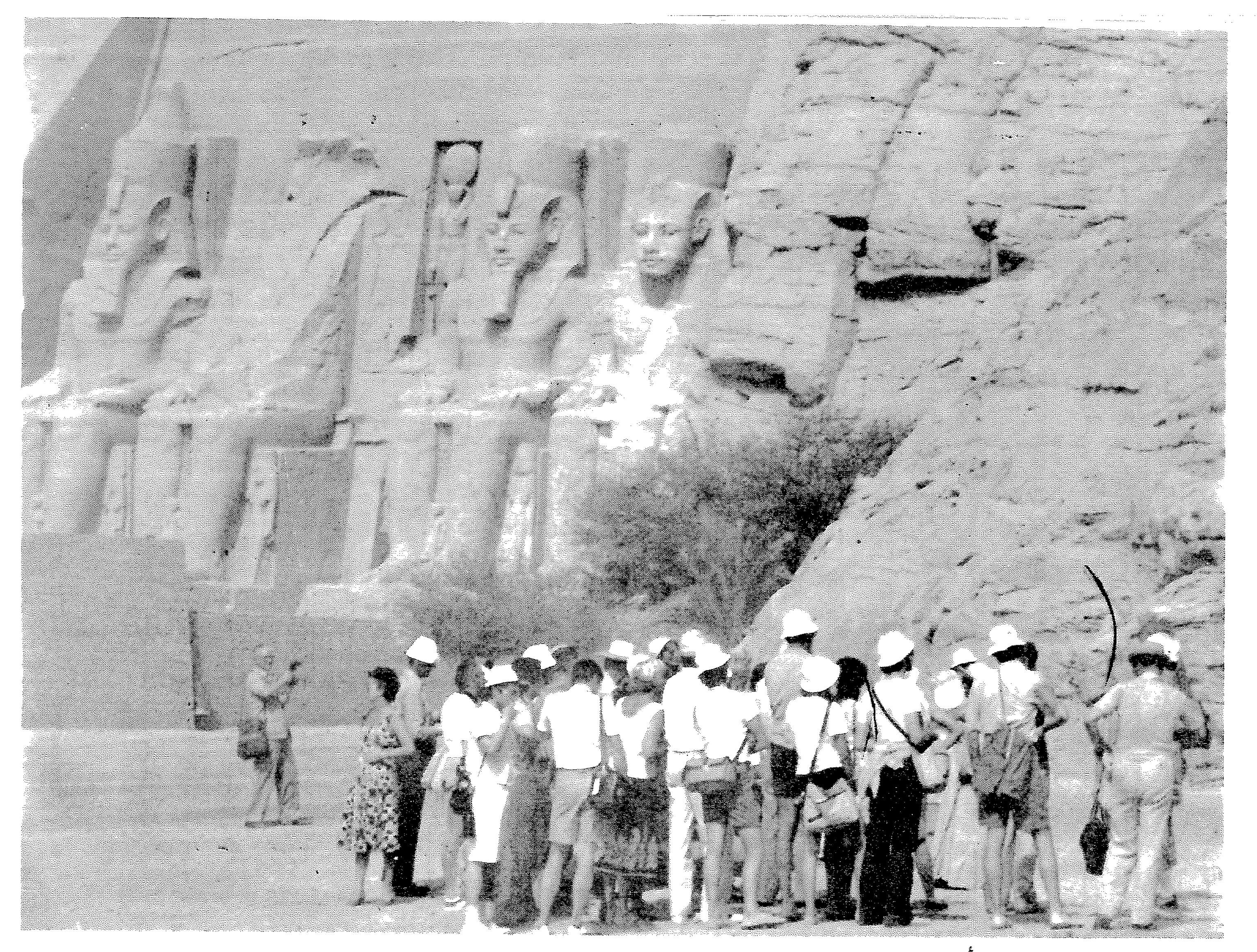
الزوجة الملكية الممدوحة كثيراً .. سيدة الرشاقة وراحة الحب .. ووارثة الوجه القبلى والوجه البحرى .. وماهرة اليدين فى الضرب بالصاجات .. والحلوة الحديث والغناء .. نفرتارى مرنموت .. زوجة الملك العظيمة ومحبوبته .. العائشة مثل السماء أبداً ..

نفرتارى .. ومعناها الرفيقة الجميلة .. كانت الزوجة الأولى لرمسيس ، وقد تزوج بها فى السنة الأولى من حكمه .. ومنذ ذلك الوقت تبوأت أسمى مكانة فى الأسرة بعد زوجها ، وظلت الزوجة الأثيرة عنده والمفضلة لديه حتى ماتت .. هذا بالرغم من أن رمسيس كان مزواجاً ومولعاً بالنساء إلى حد كبير .. فقد كانت لديه زوجات ملكيات أخريات ، تثبت النصوص أسماء بعضهن ، مثل الملكة إست نفرت ، والملكة مات نفرو رع [بنت ملك الحيثيين] ، والملكة توى ، والملكة مريت آمون .. وغيرهن من الزوجات الملكيات الرسميات والتى كانت كل واحدة منهن تحمل لقب الملكة .. أما المحظيات التى كان يتكون منهن حريم الملك فعددهن بالمئات ، حتى بلغت ذريته رقماً مذهلاً [١١١ ولدا و٦٧ بنتا] !

ونظراً لتلك المكانة الرئيسية الرفيعة التى كانت تتمتع بها الملكة نفرتارى ، فقد أظهرها رمسيس معه على واجهة معبد أبوسمبل ، حيث تكرر ظهورها مع الملك ثلاث مرات ، كما أقام لها الملك معبداً صغيراً خاصاً بها ، مجاوراً لمعبد أبوسمبل الكبير ولا يبعد عنه أكثر من (١٤٠) متراً تجاه الشمال ..

وتتصدر واجهة معبد نفرتارى ستة تماثيل أربعة منها لرمسيس واثنان للرفيقة الجميلة وهى واقفة فى شموخ بين تماثيل زوجها ، ومرتدية ثياباً شفافة تسفر عن تفاصيل جسم أنثوى فى غاية الرشاقة والجمال ..

وبالإضافة إلى هذا المعبد الفخم الذى أقيم تكريما للملكة نفرتارى ، بنى لها رمسيس مقبرة فخمة بجبانة وادى الملكات أو « بيبان الحريم » خلف وادى الملوك بالأقصر .. وتعتبر تلك المقبرة من أجمل مقابر وادى الملكات ، برغم أن جميع المقابر الأخرى تتميز بجمال النقوش ورقة التصميم وتنوع الألوان .. إلا أن مقبرة نفرتارى تتميز عن بقية المقابر الأخرى بنوع من « الفخفخة » الزائدة عن كل حد ، والجو النسوى الرقيق الذى يفوح من جميع



أبو سمبل فى شموخه الخالد .. والسياح يزورونه .. من كل جنس ولون ودين .

أرجـاء المـقـبـرة مـنذ أول خطوة إلى داخلها ، والذى يُشعِر الزائر بصفة مستمرة أنه فى مقبرة الزوجة الملكية ، الرفيقة الجميلة المفضلة لدى رمسيس الأكبر.. سيد العالم !

● ● ●

وفى مـيـدان الـتـحـر يـر بقلب القاهرة ، بداخل إحدى قاعات المتحف المصرى ، يرقد جـثـمـان هـذا المـلـك الـعظيم فى سلام يحيطه جلال الموت ، فى إنتظار يوم البعث ، وهو يوم اعـترف به وآمن به وعمل له ألف حساب .. وحين اعتورت الأمراض المومياء نتيجة لسوء الحـفـظ حـالـيـاً ، ذهب الملك للعلاج فى بار يس .. حيث استقبلوه هناك باحتفال رسمى وعسكرى طبقا لمراسم استقبال الملوك ورؤساء الدول العظام .. !

هـذا هو تار يخ الملك العظيم الذى يقف تمثاله الجرانيتى الوردى الضخم ، محصوراً بين كـبـارى الحـديد فى باب الحديد .. مذكراً الملايين التى تمر عليه فى كل يوم من المصر يين وغير المـصر يين .. بأنه رمسيس الأكبر الذى لم يزل شامخاً ، والذى كان سيداً للعالم .. منذ ٣٢٠٠ سنة !!



٤

المؤسسة العسكرية المصرية

فى عصر الامبراطورية

١٥٧٠ ق م - ١٠٨٧ ق م

4. OFFICERS AND OFFICIALS IN THE NEW KINGDOM.

BY: DR. AHMED KADRY.



تقديم

شاء الحظ الحسن أن يهديني الدكتور أحمد قدرى نسخة من هذا الكتاب ، الذى يتضمن رسالته للدكتوراه ، التى قدمها إلى جامعة بودابست بالمجر ، مكتوبة باللغة الانجليزية .

وكنت موشكا على القيام برحلة إلى أمريكا ، فاصطحبت الكتاب معى ، ربما من قبيل الرغبة فى استمرار قراءاتى فى التاريخ المصرى ، ولوفى بلاد الغربة .

وهكذا أتيحت لى الفرصة لكى أعايش النقيضين ، فبالنهار كنت أرى أحدث ماوصلت إليه الحضارة والتقدم والمدنية ، وحين أهجع بالليل لأستريح ، أعايش هذا الكتاب الممتع الذى يجعل النفس تفيض بعظمة الحضارة المصرية القديمة ، باعتبارها أقدم وأعظم حضارة ومدنية فى تاريخ الإنسان على الأرض .

ولقد أصبح من المسلم به لدى كثير من المؤرخين العالميين وعلماء المصريات ، أن مصر هى أم الحضارات ، ومنها بدأ كل شىء .. حين وضع المصريون القدماء أسس العلوم الطبيعية وأسس الفن والدين ، ومبادىء الأخلاق والسلوك ، والتنظيم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى للدولة .

وفى هذا الكتاب بحث مستفيض يثبت أن المصريين القدماء هم الذين وضعوا أيضا المبادىء والأسس التى قام عليها علم الاستراتيجية وعلم التكتيك وفنون الحرب وتنظيم الجيوش الكبرى ، ووضع خطط المعارك الحربية التى مازالت حتى الآن محل دراسة بأكاديميات الحرب الحديثة فى كل مكان . بل والتى أعاد تطبيقها عتاة القادة العسكريين

فى الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ، مثل الخطط المصرية القديمة التى استوحاها اللورد اللنبى والفيلدمارشال مونتجومرى .

وهناك عدة آلاف من الكتب والمؤلفات والبحوث الأجنبية والمصرية التى تتناول التاريخ المصرى القديم بالدراسة . ولكن الأغلبية العظمى من هذه الكتب تتناول هذا التاريخ على أساس السرد والتقرير ، ومع ذلك فهناك من بينها بعض الدرر النادرة التى تتناول هذا التاريخ بالتحليل والتفسير.

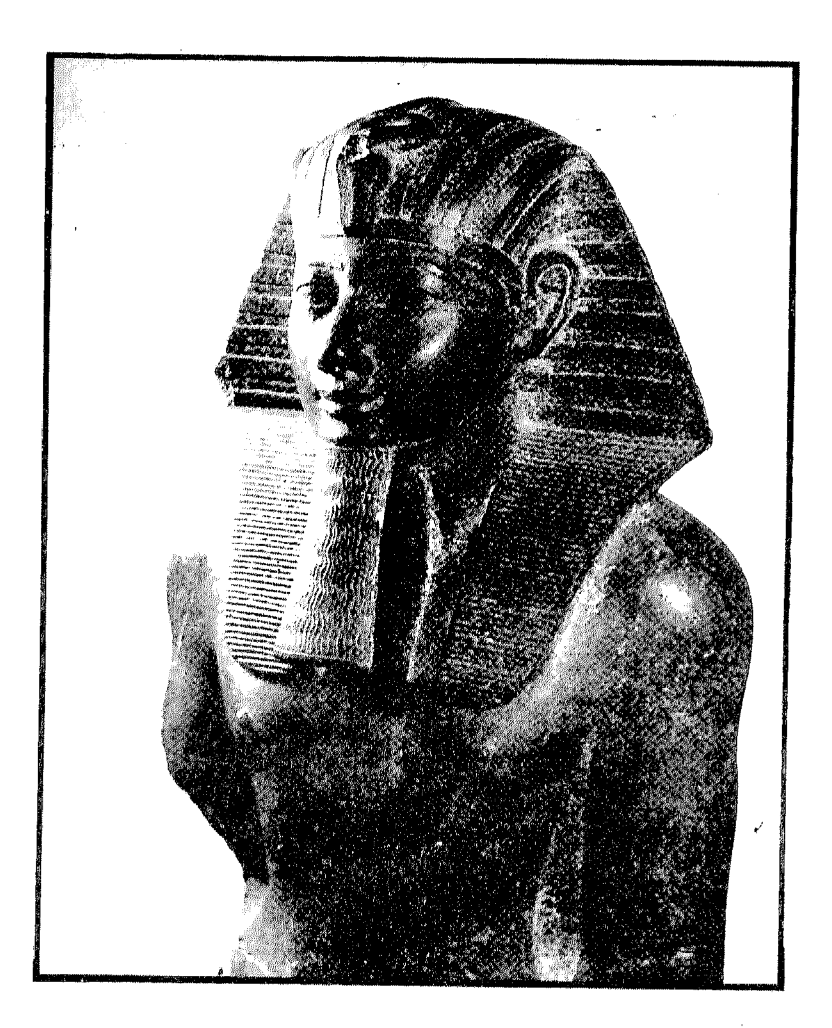
وبطبيعة الحال فإن معظم — إن لم يكن كل — هذه المراجع النادرة فى تحليل التاريخ المصرى القديم وتفسيره ، من تأليف أئمة المؤرخين وعلماء المصريات الأجانب أمثال : بريستيد وجاردنر وويلسون وغيرهم من أعظم المحللين الذين كانت لهم رؤياهم العلمية الخاصة فى تفسير الأحداث والنصوص المنقوشة على جدران المعابد والمقابر والنصب التذكارية والمسلات ، والنصوص المدونة بالبرديات .

وكتاب أحمد قدرى يعتبر من هذه الزاوية إضافة مصرية صميمة لتلك الدرر النادرة التى كتبها كبار علماء المصريات فى شرح وتحليل وتفسير معالم التاريخ المصرى القديم . كما أن موضوعه على جانب كبير من الخطورة والأهمية العلمية ، فهو يتناول طبقة الضباط العسكريين المصريين والدور الذى قامت به المؤسسة العسكرية المصرية فى تكوين أول أكبر امبراطورية فى تاريخ العالم القديم .. امبراطورية تمتد من الفرات وحدود آسيا الصغرى فى الشمال ، وحتى الجندل الرابع فى الجنوب .

• عبقرية العسكرية المصرية .

منذ نحو «٣٤٠٠» سنة خلت ، جمع الامبراطور تحوتمس الثالث — وهو من أعظم الملوك المحاربين الذين حكموا مصر طوال تاريخها القديم والحديث — ضباطه وأركان حربه من قادة فروع القوات المسلحة المصرية ، وعقد معهم «مجلساً للحرب» عشية الدخول إلى معركة «مجدو» فى الأقاليم السورية ، وتباحث معهم فى الخطوط العامة للخطة الحربية ، وكيفية مفاجأة العدو بالوصول إلى أرض المعركة من حيث لايحتسب .

وتشاور الضباط ، وقرروا اختيار أحد طريقين للوصول إلى ساحة القتال . ولكن عبقرية الامبراطور وعقليته العسكرية الفذة ، رأت اختراق طريق ثالث ، وهو الطريق



تحوتمس الثالث .. عبقرية عسكرية فذة .. أول من قسم الجيش إلى قلب وجناحين ..

الأصعب والأضيق والأقصر الذى يختصر المسافة ، حيث كان لايمكن أن يتفتق ذهن العدو عن أن الجيش المصرى بعتاده الضخم قادر على اختراقه .

وصمم الملك على خطته بعد أن اختلف مع ضباطه ، وأعطاهم الأمر بالتحرك والتقدم ، ونفذ الخطة البارعة التى أعطته ميزة المبادرة وعنصر المفاجأة ، بحيث أصبحت المعركة الحربية مجرد عملية تكتيكية نتيجتها النصر الحاسم .

هذه الخطة هى نفسها الخطة الحربية التى نفذها الفيلد مارشال اللنبى فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ حين فاجأ جيوش الأتراك فى السهول السورية بعد اختراقه نفس الطريق الأضيق والأصعب الذى اختاره تحوتمس الثالث من قبله .

وقد قام عالم المصريات « هـ . ج . بريستيد » بدراسة وتحليل الخطة الحربية التى وضعها تحوتمس الثالث للهجوم على « مجدو » والمناورة الحربية التى درب عليها جيوشه فى اليوم السابق على المعركة ، وقال عنها أنها كانت خطة متقنة ومناورة ناجحة ليس لها أية سوابق فى تاريخ الدول والشعوب الأخرى ، وتدل على عبقرية تحوتمس الثالث كقائد حربى عظيم .

ويجمع المؤرخون العسكريون على أن هذا الملك العظيم هو أول من قسم الجيوش المحاربة إلى قلب وجناحين ، وأول من فرق بين الاستراتيجية والتكتيك فى ميدان القتال ، ووضع أسس ومبادىء هذين العلمين الهامين من علوم الحرب وفنونها .

• أول حرب تحرير فى تاريخ العالم

ولكن قبل أن تبلغ الجيوش المصرية مثل هذا المستوى الرفيع من التنظيم والإدارة والقيادة الماهرة ، كانت هناك خطوات على طريق التطور ، ترجع بداياتها إلى بداية عصر الأسرة الثامنة عشرة [١٥٥٥ ــ ١٣٠٥ ق . م] التى ينتمى إليها الامبراطور تحوتمس الثالث . بل وترجع أساساً إلى أيام حرب التحرير التى شنها المصريون لطرد الهكسوس الذين احتلوا مصر واستعمروها وأذلوا شعبها لمدة تقارب قرنين من الزمان ، إلى أن استطاع أمراء طيبه تجهيز الجيوش وتحميس النفوس ، وخاضوا معارك التحرير تحت قيادة « سقنن رع » و« كاموسى » من بعده ، حتى تمكن « أحمس » فى النهاية من طرد المستعمرين نهائياً من البلاد ، وطاردهم حتى فلسطين ، ثم شتتهم تماماً إلى حيث لم يعد لهم ذكر بعد ذلك فى التاريخ القديم .

وتولى « أحمس الأول » عرش البلاد ، وأعاد إليها وحدتها القومية ، وأسس الأسرة الثامنة عشرة ، التى أصبحت أشهر أسرة ملكية فى التاريخ القديم والتاريخ الحديث على حد سواء .

والحقيقة أن تجربة المصريين مع المستعمرين الهكسوس كانت تجربة مؤلمة وقاسية جداً . وعلمتهم درساً لم ينسوه خلال تاريخهم التالى بعد انتصارهم فى حرب التحرير.

كان المصريون يشعرون بالخطر الكامن فى تلك القبائل الرعوية التى نظمت نفسها ، والتى كانت تهدد الحدود الشرقية لمصر بين حين وآخر.

وكان هذا الخطر وحده كافياً لإجبار فراعنة مصر من ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، على إعادة النظر فى جميع النظم الحربية والإدارية التى كانت سائدة بمصر حتى ذاك الزمن ، وظهرت بالتالى أفكار جديدة متحررة ، وضع على أساسها نظام الحكم فى تلك الفترة .

لقد اعتنق سادة الحرب الجدد من أبناء وأحفاد المحاربين الذين قادوا حرب التحرير، مبدأ جديداً تبلور فى هدف رئيسى واحد ، هو توجيه معظم موارد الدولة لإنشاء وتنظيم جيش قوى ، اعتبر بكافة المعايير أعظم وأقوى الجيوش العسكرية التى ظهرت فى تاريخ العالم القديم كله .

وتقول « موسوعة كامبريدج فى التاريخ القديم » عن هذا الجيش : « .. كان جيشاً وطنيا هائل الحجم ، يتألف معظمه من جنود محترفين ، سواء من الجنود العاملين فى الخدمة العسكرية أو جنود الاحتياط ، و يقوم على قيادته وتدريبه ضباط محترفون مدربون على أعلى مستوى ، و يؤدون وظائفهم وواجباتهم الحربية فى إدارة الفرق والأسلحة المنوطة بهم قيادتها ، بشكل منظم ومنسق ودقيق ، كما لو كانوا حلقات مترابطة فى سلسلة القيادة العامة .. وكان المصريون هم أول من كون « هيئة الضباط » أو [هيئة أركان حرب] التى تؤدى وظيفة العقل الإدراى والتنظيمى والحربى فى الجيوش الحديثة حتى الآن » .

• الاستراتيجية .. اكتشاف مصرى

كان من أهم الأهداف الاستراتيجية لهذا الجيش الجديد ، إعادة السيطرة المصرية على أرض النوبة العليا التى تقع وراء حدود مصر الجنوبية .

و يقول أحد المؤرخين فى دراسة له عن حرب التحرير التى شنها المصريون لتحرير بلادهم من الهكسوس : « حتى يتم القضاء نهائياً على الهكسوس الذين قدموا من آسيا بأساليب وفنون حربية جديدة ، كان لابد أن يتمسك المصريون بعمقهم الاستراتيجى فى أفريقيا . لدرجة يمكن أن يقال معها أن الحرب التحريرية التى شنها المصريون ضد الهكسوس ، كانت بالفعل حرباً بين أفريقيا وآسيا . وبالتالى فقد أصبحت تلك الفكرة الاستراتيجية ضرورة حتمية اعتنقتها مصر حتى أواخر تاريخها الفرعونى القديم » .

وهكذا اختط ملوك الأسرة الثامنة عشرة منذ البداية نظاماً للحكم يتسم بالشمولية والمركزية ، ويخدم الهدف الاستراتيجى المتمثل فى إنشاء المؤسسة العسكرية الكبرى ذات القوة الهائلة التى تهدف إلى توفير الأمن الاستراتيجى لمصر .

وكان من الضرورى أن تستمر حالة التأهب العسكرى والاستعداد الفورى التام لتجهيز وتوجيه الحملات الحربية للقضاء على أية قلاقل أو اضطرابات أو ثورات تحدث فى بلاد النوبة أو فى البلاد السورية التى تم فتحها وضمها لحكم الامبراطورية المصرية .

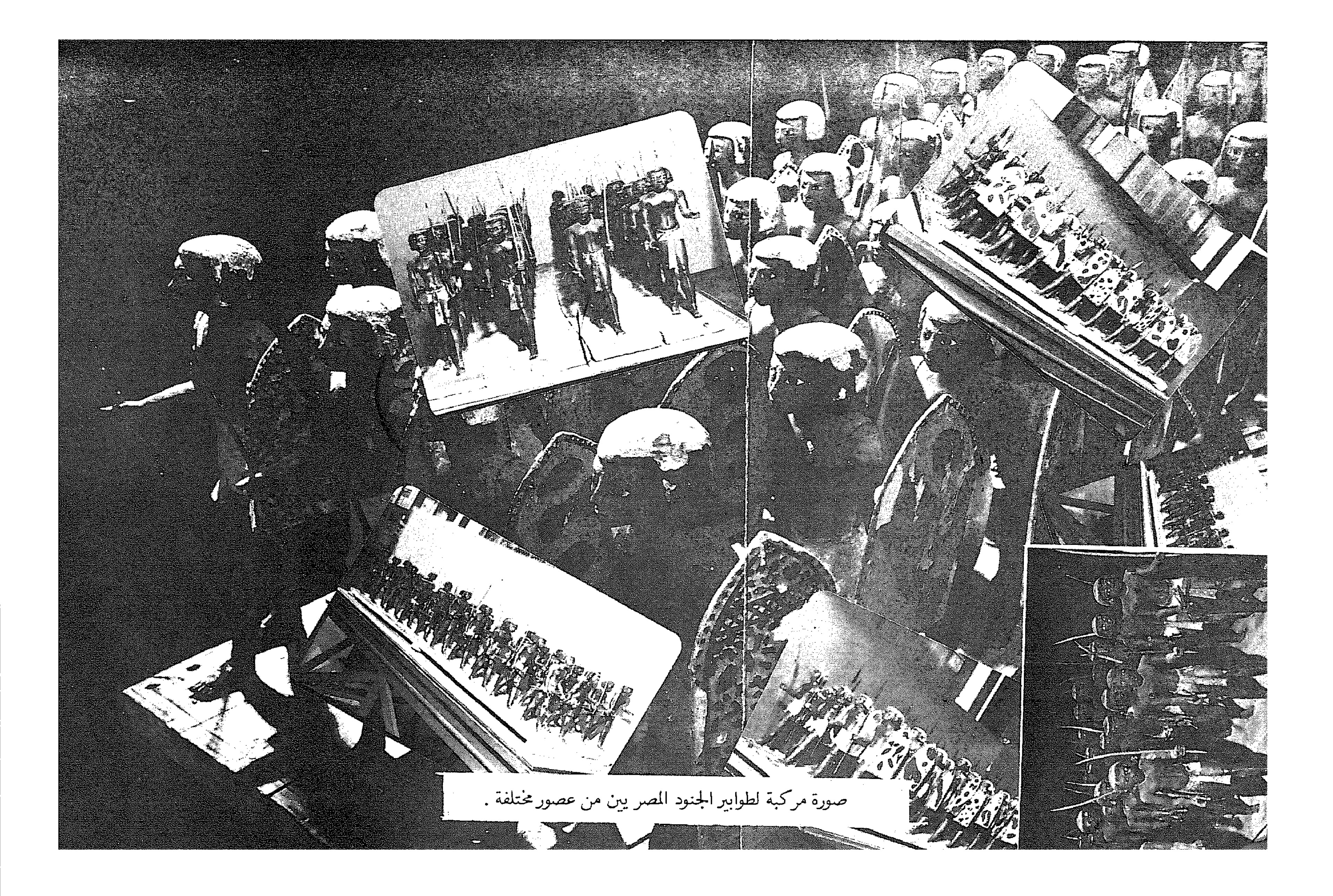
كما كان من الضرورى أيضا أن تستمر الدولة فى إعداد الجيوش التى يتولى قيادتها الفراعنة بأنفسهم ، وتجهيز هذه الجيوش بكل مايلزمها من عدة وسلاح وتموين ، الأمر الذى كان يتطلب حتما وضع كل موارد الدولة فى حالة شبيهة بحالة التعبئة العامة والاستنفار المستمر .

وكان التصاعد المستمر فى طبع المجتمع المصرى بالطابع الحربى ، ضرورة حتمية لتحقيق هذا الهدف .

• تطوير الجيوش وتصنيع السلاح

وعلى أرض مصر ، ظهرت لأول مرة فى تاريخ الإنسان على الأرض ، فكرة الاستخدام الاستراتيجى للقوات المسلحة ، على أساس تقسيم الجيوش المحاربة إلى ألوية وأجنحة مستقلة فى حد ذاتها ، ولكنها فى النهاية تعمل تحت قيادة مركزية واحدة .

ولا شك فى أن هذا التطور كان منطقياً ، نتيجة للقدرة الإدارية الفذة التى كان يتصف بها نظام الحكم بمصر ، والتى اكتسبها من تراكم خبرات تاريخ طويل فى تنظيم وإدارة دفة الحياة على أرض وادى النيل .



صورة مركبة لطوابير الجنود المصريين من عصور مختلفة .

وفى عصر الامبراطورية ، حين اتسعت الفتوحات ، وترامت الممتلكات المصرية فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، أصبحت الحاجة ملحة إلى تزويد الجيش المصرى بأسلحة جديدة ، كما بدأ استخدام هذه الأسلحة بطريقة تعتبر ثورة غير مسبوقة فى التكتيك الحربى ، حتى أصبحت جميع وحدات هذا الجيش تتمتع بقوة ضاربة هائلة ، الأمر الذى نتج عنه فى النهاية تغييرات عميقة فى مفاهيم التكتيك والاستراتيجية . كما أدى أيضاً إلى ضرورة إقامة المنشآت الصناعية المتخصصة فى صناعة المركبات الحربية ، وصناعة أنواع الأسلحة المختلفة التى تتطلبها ألوية الجيش وفرقه ، بالإضافة إلى الرصيد الهائل المتمثل فى احتياطى القوى البشرية بداخل البلاد .

● سلاح الفرسان والمركبات الحربية

ومن المنجزات الهائلة التى حققتها المؤسسة العسكرية المصرية استخدام « الخيل » كأداة من أدوات الحرب ، كما بدأت فى استخدام « المركبات الحربية » التى تجرها الخيول . وأرجح الآراء الآن تقول بأن مصر قد شرعت فى استخدام الخيول والمركبات الحربية ، فى فترة سابقة على حرب التحرير ، حين أخذ المصريون يتدربون على هذا السلاح الجديد لاكتساب القدرة على محاربة المحتلين وطردهم من البلاد .

ويرى الدكتور قدرى أن العبرة ليست فى بداية استخدام الخيول أو المركبات الحربية ، وإنما فى الطريقة الجديدة الفذة التى ابتكرها المصريون فى تطويع تلك الأداة لمقتضيات المعارك الحربية .

وتعتبر هذه الطريقة المصرية الجديدة ، ثورة حقيقية فى تاريخ الفكر والأداء العسكرى . وتدل بشكل قاطع على أن المصريين هم أصحاب هذا التطوير فى استخدام المركبات فى المعارك الحربية . ولم يكن المصريون قادرين على مثل هذا التطوير ، لولا مواهبهم المتأصلة فى عمليات التنظيم والإدارة .

وهذا الاستخدام المصرى الجديد للمركبات الحربية ، أعطى للجيش الامبراطورى المصرى قدرة هائلة على الهجوم والسيطرة فى جميع المعارك التى خاضها .

وكان سلاح الفرسان والمركبات الحربية قادراً على العمل وحده فى خوض المعركة ، بالإضافة إلى قدرته على التعاون الوثيق مع سلاح المشاة ، ليخوض معه المعارك جنباً إلى جنب .

ولأول مرة فى تاريخ العالم يستخدم سلاح الفرسان والمركبات الحربية بكثافة وأعداد كبيرة تتجاوز عدة آلاف ، بحيث أصبح هذا السلاح قادراً على سحق مقاومة العدو، بقوة ضاربة هائلة . وبذلك تمكن الجيش المصرى من فتح بلاد شاسعة الأرجاء . وكانت وظيفة سلاح المركبات الحربية ، مماثلة تماماً لوظيفة سلاح الدبابات فى الجيوش الحديثة .

• الكتاب والمثقفون العسكريون

ومنذ بداية عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وضع نظام صارم لتجنيد الرجال وتعبئة كل الموارد الاقتصادية للدولة .

كان هذا العمل الاستراتيجى الكبير يتم بفضل « هيئة عسكرية » جديدة التكوين ، تعمل داخل الإطار العام للجيش المصرى ، وهى « هيئة كتاب إمدادات الجيش » .

ويمكن القول بأن هذه الهيئة المتخصصة هى أول هيئة من نوعها ظهرت فى التاريخ الحربى للقوات المسلحة فى العالم . حيث أن الاختصاصات التى كان يمارسها « الكتاب العسكريون » المصريون القدماء ، هى نفسها الاختصاصات التى تمارسها « هيئة كبار الضباط » أو « هيئة أركان حرب » فى أى جيش من الجيوش الحديثة .

وقد لوحظ أن جميع الرجال الذين كانوا يعملون فى تلك الهيئة ، كانوا مدربين تدريباً خاصاً لإجادة « فنون الكتابة » جنباً إلى جنب مع « الفنون العسكرية القتالية » . وكانوا يبدأون حياتهم فى السلك العسكرى عادة باعتبارهم « جنوداً كتابا » بالقسم الإدارى بوحدات الجيش . ثم يتدرجون فى سلم الترقى للرتب العسكرية الأعلى من هذا المنطلق وكان بعضهم يصل إلى رتبة « رئيس الكتاب العسكريين » أو رتبة « كاتب الجيش » بل وايضا إلى رتبة « قائد الجيش » .

وكان من أهم اختصاصات هؤلاء الضباط الكتاب ، العمل على تجنيد الشباب من مختلف البقاع والأقاليم المصرية ، وتدوين أسمائهم فى سجلات تبين أعمارهم وتخصصاتهم القتالية التى تدربوا عليها ، وإعداد الجنود والضباط والمقاتلين ، وجميع العاملين فى الخدمة العسكرية ، بالاضافة إلى السجلات الأخرى التى تتضمن الإحصائيات الخاصة بالموارد الاقتصادية للدولة ، والتى كانت خير عون للسلطات العليا عند الحاجة إلى اتخاذ قرار بالتعبئة الجزئية أو التعبئة العامة للجيش الامبراطورى المصرى .

وكانت هذه السجلات هى الوسيلة الفعالة لمعرفة مدى قوة ووزن مايمكن أن نسميه « الجبهة الداخلية » بمفهوم المصطلحات السياسية والعسكرية المعروفة فى العصر الحديث . ومعنى ذلك أن المصريين القدماء فى العصر الامبراطورى كانوا أول من استخدم مصطلح « الجبهة الداخلية للدولة » بهذا المضمون .

• اختيار الضباط وتدريبهم

وكان المصدر البشرى الرئيسى للضباط الجدد الذين يتدرجون فى السلك العسكرى المصرى هو « الشباب » . حيث كان يتم اختيار النابهين من الشبان أبناء الشعب ، ثم يجرى تعليمهم وتنشئتهم فى البلاط الملكى جنباً إلى جنب مع الأمراء من أعضاء الأسرة المالكة ، والذين كانوا يشتركون معهم فى جميع مراحل نظم التعليم والتدريب الصارمة .

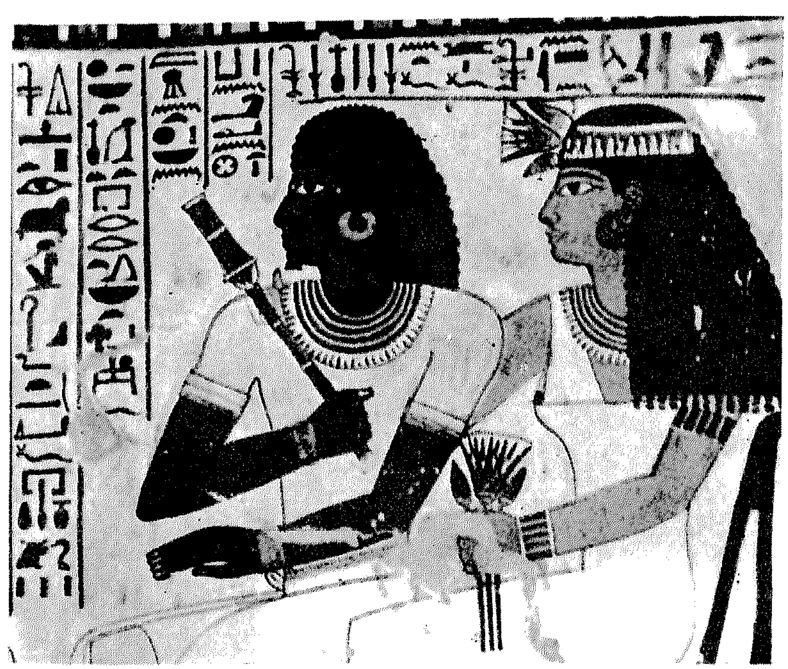
ولا شك أن هذه المعايشة بين الشباب والأمراء المصريين ، والامتثال لهذا التدريب الموحد ، كان يضمن إخلاص هؤلاء الشبان للجيش الامبراطورى المصرى ، عندما يتم تعيينهم فى المناصب العسكرية ، كما كان يقوى الروابط بين هؤلاء الضباط وبين الملوك أنفسهم ، بالإضافة إلى أمراء البيت المالك .

وهذا كله يبين لنا بوضوح أننا بصدد فئة جديدة من الضباط المصريين الذين باشروا مسئوليات على أعلى مستوى من الأهمية الاستراتيجية ، ويختلفون تماماً عن غيرهم من الضباط المصريين الذين تولوا مناصب القيادة فى الجيش المصرى فى عصور سابقة على عصر الأسرة الثامنة عشرة .

وهكذا تبوأت الطبقة العسكرية الجديدة مكانة رفيعة فى المجتمع المصرى ، وأصبحت تتطلع إلى المزيد من السلطة والنفوذ والسيطرة والهيمنة على كل مقدرات الدولة .

• سيطرة الطبقة العسكرية

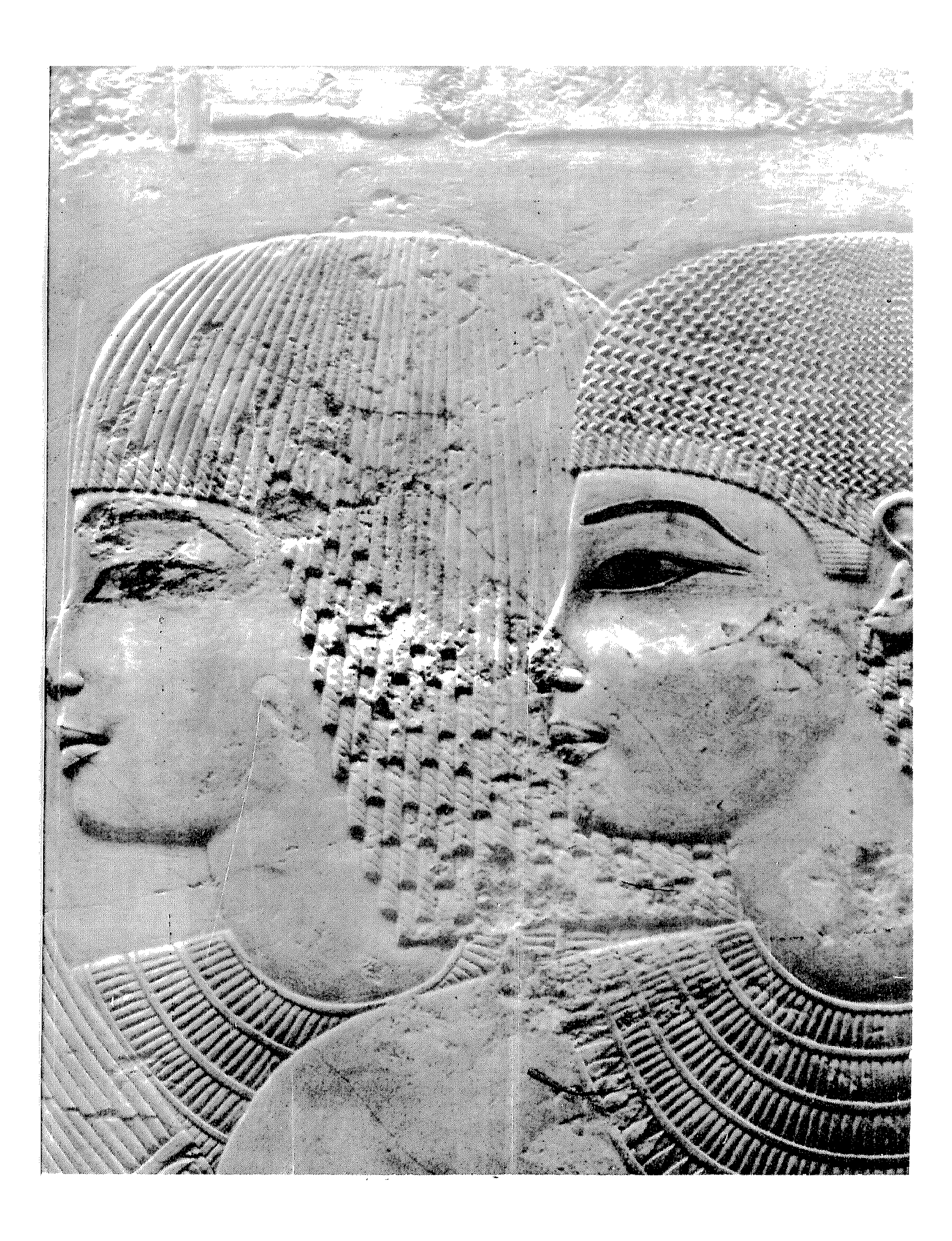
وقد بلغت الطبقة العسكرية أوج سلطتها فى عهد « تحوتمس الرابع » . وعلى قمة هذه الطبقة ، كانت هناك مجموعة من الضباط المتفوقين أصحاب المواهب الخاصة ، فكان منهم المثقفون والسياسيون ورجال الاقتصاد والتكنوقراطيون والإداريون .



سنوفر وزوجته .. [أحد رجال امنحوتب الثالث] .



سنوتم وزوجته .. [من كبار رجال الدولة فى عصر الامبراطورية] .



ولم يكن تغلغل نفوذ هذه الطبقة الجديدة فى كل ركن من أركان الدولة ، إلانتيجة لانتصارها فى صراعها المرير ضد طبقة رجال الدين والكتبة التقليديين فى طيبة .

كذلك فقد كان الجنود العاديون الذين كانوا يعملون تحت قيادة الضباط ، لهم امتيازات خاصة جعلتهم بدورهم طبقة شعبية متميزة ، بالمقارنة بجماهير الشعب من الفلاحين والعمال والحرفيين . وعلى ذلك فيمكن القول بأن طبقة الضباط العسكريين ومن هم تحت قيادتهم من الجنود المحاربين ، كانوا يتولون مقاليد جميع الأمور الخاصة بالثروة القومية فى مصر .

أما الضباط الذين كانوا يحالون إلى المعاش أو الاستيداع بعد خدمتهم العسكرية ، فقد كانوا يعينون فى وظائف عليا باعتبارهم من الأفراد الذين يعتمد عليهم الفرعون .

وكان بعضهم مقرباً إلى الملك إلى حد بعيد ؛ كأن يشغل وظيفة « الياور الملكى » أو « ساقى الملك وخادمه الخاص » أو « المشرف على إدارة القصور الملكية » أو « المشرف على إدارة الأراضى والممتلكات الملكية » أو « المعلم فى البلاط الملكى » .

لقد انعكست الروح العسكرية فى عصر الامبراطورية ، على جميع أوجه الأنشطة الداخلية بالدولة . وأصبح الجيش هو المهيمن على جميع الإنشاءات المعمارية الطموحة التى تقيمها الدولة . بالإضافة إلى سيطرة الضباط فى النهاية على جميع مرافق الدولة ، بما فى ذلك المرافق الدينية والمعابد ، إلى أن سيطروا فى النهاية على عرش مصر وجلسوا عليه .

● ● ●

ولكن ماذا كانت نتيجة كل ذلك .. وهل من الصحيح مايشاع من أن اخناتون قد انغمس فى عبادة الله الواحد وانصرف عن الاهتمام بالجيش .. ومن هو الضابط الذى أنقذ عرش مصر من مؤامرة نسائية دبرتها أرملة توت عنخ آمون .. وماذا فعل رمسيس الأكبر حين تولى عرش الامبراطورية .. وكيف أصبحت خيرات البلاد عندما تعاظمت ، مطمعاً لمن حول مصر من شعوب جائعة .. ؟ !

إن من أكثر الأمور صعوبة ، محاولة الاختيار من بحر زاخر بالمعلومات الجديدة . وتزداد هذه الصعوبة شدة ، عند محاولة تبسيط المعلومات المختارة وإخراجها من دائرة الدراسة الأكاديمية ، لعرضها على مستوى النطاق العام سهلة مبسطة بقدر الإمكان . وهذا هو ما واجهته على وجه التحديد عند عرض هذا الكتاب ، الذى لاتخلو صفحة واحدة منه من

إضافة معلومات جديدة ، أومن رؤ ية المعلومات المعروفة من زاو ية و وجهة ذكية ومبتكرة .

● تمجيد الشجاعة

أدت الروح الحربية التى سادت المجتمع المصرى فى عصر الامبراطور ية ، إلى ظهور نعرة التفاخر والزهو بشرف الانتماء إلى الخدمة العسكر ية وإلى السلك العسكرى بصفة عامة .

وقد منحت الألقاب والرتب والأنواط والميداليات إلى الضباط وإلى الجنود على حد سواء . كما وزعت عليهم الأراضى الزراعية ، وذلك تمجيداً لشجاعتهم وتفانيهم فى أداء الخدمة وواجباتهم العسكر ية . بل وقد ابتكر الجيش رتبا وألقابا وأنواطا جديدة مثل « شجعان الملك » و« النوط الذهبى للمجد » و« النوط الذهبى للشجاعة » .

كما ظهرت أساليب وأوصاف جديدة وردت فى التقار ير العسكر ية التى نقشت على جدران أضخم المعابد ، مثل النص المكتوب على جدران مدينة هابو حيث يصف الملك جنوده وكيفية ومستوى أدائهم القتالى بأنهم : « .. كانوا يزأرون كالأسود فى الجبال » .. !

ولا شك فى أن منح ألقاب الشرف العسكر ية للضباط والجنود على حد سواء ، يعتبر خير دليل على سيادة الروح الامبراطور ية التى سادت ذلك العصر .

ولا جدال فى أن تمجيد وتكريم الجنود العاديين والإشادة بشجاعتهم على هذا النحو ، يعتبر بوضوح منهجاً جديداً فى المفاهيم التقليدية المصر ية ، التى كانت تعزو الإنجازات والانتصارات الحربية إلى الملك وآبائه من الآلهة .

و يشير الدكتور أحمد قدرى فى رسالته إلى حصر تم إجراؤه لعدد الألقاب والرتب العسكر ية التى استخدمت فى الجيش المصرى فى عصر الامبراطور ية ، وقد بلغت نحو «٦٣» رتبة ولقبا .

وهذه الرتب تمثل التسلسل الهرمى للمناصب العسكر ية فى كل من سلاح المشاة وسلاح الفرسان والمركبات الحربية والأسطول الحربى .

• الضباط يتفاخرون بالعلم

وهناك رسالتان طريفتان مكتوبتان على أوراق البردى و يرجع تاريخهما إلى عصر الامبراطورية . الرسالة الأولى أرسلها الضابط الكاتب العسكرى « حورى » إلى ضابط آخر بالجيش اسمه « امنوبى » . وتتضمن الرسالة الثانية رد « امنوبى » عليه .

وفى الرسالة الأولى يسخر « حورى » بشدة من الأهمية التى يعطيها « امنوبى » لنفسه ، وإحساسه الزائد بذاته . و يتهكم فيها أيضا على جهل « امنوبى » وادعائه العلم والمعرفة .

وتعتبر هذه الرسالة فى عمومها دليلاً على وجوب توفر المعرفة العلمية الواسعة لكل من يتولى منصباً من فئة الكتاب العسكريين .

كما تعكس الرسالة أيضا صورة صادقة من افتخار الضابط الكاتب العسكرى « حورى » بنفسه وبمنصبه العسكرى باعتباره ضابطاً بسلاح الفرسان الملكى ، و باعتباره أيضا كاهنا بمعبد مدينة « حمنو » ــ وهى حالياً مدينة الأشمونين بمحافظة المنيا ــ ومشرفاً على أكاديمية تعليم فنون الكتابة ، ومشرفاً على المكتبة الملحقة بالمعبد ، وأستاذا ذا مواهب ممتازة .

أما فى الرسالة الثانية فيرد الضابط « امنوبى » على زميله « حورى » فخراً بفخر . وأخذ يعدد باعجاب المناصب التى يشغلها والمستوى العلمى الرفيع الذى يتمتع به ، فهو أستاذ معلم ، و يشغل منصب « الفارس الأول للملك » ، ويحمل رتبة القائد المساعد بسلاح المركبات الحربية ، كما يفخر بأنه كان « رسول الملك » للتفاوض مع أمراء سوريا ، من منطقة « ثارو » حتى منطقة « يوبا » قرب دمشق .

وهذا الفخر العظيم بالانتماء إلى طبقة ضباط الفرسان والمركبات الحربية يعطينا صورة واضحة للمستوى الطبقى الرفيع الذى ارتقى إليه الضباط فى عصر الامبراطورية ، حتى أصبحوا طبقة أرسقراطية متميزة .

ومن الرسالة التهكمية التى أرسلها « حورى » نتبين أبعاد الصفات والدرجات العلمية التى يجب أن تتوافر فى الضباط طبقا لطبيعة العصر . لقد أكد « حورى » ضرورة أن يكون الضابط متمكنا من « فن المراسلات الرسمية » وأن يكون على أعلى مستوى فى علوم الجغرافيا والطبوغرافيا والهندسة والمعمار والكيمياء والعلوم الرياضية .

ونتبين من رد « امنوبى » مدى الخبرة العالية والقدرات العلمية والشخصية التى يجب أن تتوافر فى الضابط الذى يقوم بدور « رسول الملك » الموفد إلى البلاد الأجنبية للقيام بمهمات ذات طبيعة دبلوماسية .

وهناك العديد من الدلائل الواضحة تؤكد ارتفاع المستوى الثقافى لطبقة الضباط العسكريين ، أوعلى الأقل بالنسبة لبعض منهم والذين يمكن وصفهم بالعباقرة ذوى الثقافة الموسوعية .

• ملكة من بنات الشعب

فى عهد « امنحتب الثالث » ــ والد اخناتون ــ أخذ الصراع بين طبقة الضباط العسكريين و بين طبقة كهنة آمون يأخذ شكلاً أكثر سفوراً وأكثر علانية .

بل إن زواج امنحتب الثالث من الملكة « تى » ــ وهى فتاة تنتمى طبقياً إلى أسرة شعبية يشغل رجالها بعض المناصب العسكرية ، حيث كان أبوها « يويا » وأخوها « آى » من كبار الضباط والقادة بسلاح المركبات الحربية ــ كان ضربة قاصمة ضد كهنة آمون الذين كانوا غير مستريحين لهذا الزواج بحجة علنية هى أن الفتاة التى أصبحت ملكة على مصر ليست سليلة أسرة تجرى فى عروقها الدماء الملكية .

أما الدافع الحقيقى لاعتراض الكهنة على هذا الزواج فيكمن فى أنه وقوف من جانب الملك فى صف ضباط الجيش ، فى صراعهم الخفى والعلنى ضد الكهنة ورجال الدين .

كذلك فقد قام امنحتب الثالث بتعيين بعض كبار ضباط الجيش فى مناصب كهنوتية دينية كانت قاصرة من قبل على رجال الدين على وجه العموم ، وعلى كهنة آمون على وجه الخصوص .

• اخناتون يحسم الموقف

أما الطامة الكبرى التى وقعت على طبقة الكهنة ورجال الدين ، فكانت على يد « اخناتون » حين أعلن « ديانة التوحيد » وأغلق بالتالى جميع المعابد المشركة بالله ، وألغى جميع عبادات الآلهة الأخرى بما فيها الإله آمون ، بكل ما كان له ولكهنته من سيطرة وهيمنة ، ولم يسمح إلا بعبادة إله واحد لاشريك له .

بل وقد تمادى « اخناتون » فى حسم هذا الموقف بأن هجر طيبة عاصمة البلاد والمركز الرئيسى لكهنة آمون ، واختار عاصمة جديدة بناها فى موقع جديد طاهر ، لم يعبد فيه إله آخر من قبل ، وهى مدينة « آخت آتون » ــ تل العمارنة ــ على البر الشرقى للنيل بمحافظة المنيا ــ وقد تم بناء وتشييد هذه المدينة الكاملة بكل قصورها و بيوتها ومعابدها ومقابرها وشوارعها وجميع مرافقها الأخرى فى فترة زمنية قياسية .

وثمة نظرية شائعة بين المؤرخين وعلماء المصريات مؤداها أن اخناتون قد انصرف تماماً إلى التفرغ لتدعيم ديانة التوحيد التى كان يدعو إليها ، وانشغل بالتالى عن الجيش وأمور الامبراطورية المصرية ، سواء بداخل الأراضى المصرية ، أوبالدول والأقاليم الآسيوية والافريقية التى كانت خاضعة للحكم المصرى .

● اخناتون والجيش

غير أن الدكتور أحمد قدرى يعارض هذا الاتجاه الشائع بين المؤرخين ، و ينظر إلى أخناتون من زاوية جديدة .

فكيف كان يتأتى لهذا الملك الشاعر صاحب الدين التوحيدى الجديد أن يقف أمام كل هذه التيارات التى كانت تعارضه وحاولت مناهضته والوقوف ضده هو شخصيا ، وضد ديانة التوحيد التى كان يدعو إليها .. ؟!

وماهى القوى التى اعتمد عليها فى فرض مبادىء الدين الجديد ، وتحقيق سياساته الدينية والإدارية .. ؟!

الإجابة الوحيدة فى مثل تلك الظروف كانت تنحصر فى كلمة واحدة هى « الجيش » . فقد كانت طبقة العسكريين التى رسخت جذورها واتسع نفوذها هى « الترسانة » التى أمدت اخناتون بكل من كان يحتاجهم من رجال عهده الجديد .

وهكذا فقد كان من المحتم على اخناتون أن يختار رجال دولته من بين كبار الضباط والموظفين العسكريين ، الذين هيمنوا تماماً على جميع مقدرات الدولة وممتلكاتها من الأقاليم الآسيوية .

وبهذه الفكرة الجديدة التى يقول بها الدكتور قدرى ، يصبح من الصعب علمياً قبول وصف عهد اخناتون بالاتجاهات والميول السلمية ، والتهوين من شأن أية أنشطة عسكرية تكون قد حدثت فى ذلك العهد .

• دليل من رسائل العمارنة

و يؤكد الدكتور قدرى رأيه بما أشارت إليه بعض رسائل العمارنة من أن هناك مركزاً لعبادة الإله الواحد «آتون» كان قد أقيم فى أحد الأقاليم السورية التى كانت تابعة لمصر كما تثبت بعض الرسائل أيضا وجود العديد من الوحدات والبعثات العسكرية فى مناطق مختلفة فى النوبة . وفى بعض الاقاليم الآسيوية .

كذلك فقد ثبت ببعض المدونات المحلية المصرية التى يرجع تاريخها إلى عهد اخناتون ، أن عملية تجنيد الجنود وتكوين الوحدات العسكرية لم تنقطع ، واستمرت قائمة فى معظم الأقاليم والمقاطعات المصرية ، كما تثبت إحدى رسائل العمارنة أن أحد قواد الجيش المصرى كان يخاطب أحد أمراء الأقاليم السورية بلهجة آمرة .

وهناك شواهد أخرى كثيرة نتبين منها عدم صحة الرأى الذى يقول به البعض من أن اخناتون وضباطه العسكريين ، قد أقلعوا عن التفكير فى شئون الأقاليم التابعة للامبراطورية المصرية .

والتحفظ الوحيد على تلك النظرة الجديدة لتقييم عهد اخناتون من الناحية العسكرية ، أورده الدكتور قدرى بنفسه ، حيث يقول إن كل الظواهر والشواهد تدل على أن أخناتون قد انهمك بالفعل فى نشر وتدعيم عقيدة التوحيد التى آمن بها . وقد استغرق ذلك كل جهده الفكرى ، بحيث لم يتبين حقيقة التغييرات الخطيرة التى حدثت على أطراف الامبراطورية المصرية بشمال سوريا ، حيث ظهرت إلى حيز الوجود امبراطورية عسكرية جديدة هى دولة «الحيثيين» .

• الشرطة .. والأمن القومى

وقد حدثت مشكلة «أمن» عويصة فى عهد أخناتون ، بسبب طبيعى هو دعوة الناس إلى ترك دياناتهم التقليدية التى يتمسكون بها ، واعتناق ديانة التوحيد الجديدة . وماترتب على ذلك من الأوامر باغلاق المعابد و وضعها تحت سيطرة «الشرطة» .

وهذه المشكلة فى حد ذاتها شكلت عبئاً جديداً يقع على عاتق الجيش والقوات المسلحة المصرية ، التى كانت مسئولة باستمرار عن إقرار واستتباب الأمن القومى والقيام بجميع

أعمال الشرطة فى كل المدن والأقاليم المصرية والمدن والأقاليم التابعة للحكم المصرى . وذلك بالإضافة إلى حراسة وتأمين الطرق العامة والطرق التجارية الممتدة فى الصحارى وعلى تخوم وحدود الامبراطورية المصرية .

وكذلك حراسة وتأمين مناجم الذهب بالمناطق الصحراوية والجبلية ، وبالإضافة إلى المسئولية عن حراسة المدافن الملكية وماتحتويه من كنوز تحدد قيمتها بأرقام فلكية .

وكانت مراكز الشرطة الرئيسية والفرعية منتشرة فى طول البلاد وعرضها . وكان جميع جنود وضباط ورؤساء الشرطة يختارون من الرتب العسكرية بالقوات المسلحة .

وقد عثر على كثير من الشعارات الرسمية التى كانت تتخذها مراكز الشرطة كرمز خاص بها . وذلك مثل « العلم » الذى عثر عليه بطيبة وعليه صورة « غزال » . وكان هذا العلم رمزاً لأحد مراكز الشرطة الرئيسية . كما عثر بتل العمارنة على درع عليه رسم يمثل الفرعون وهو يقوم بتأديب رجل من الأعداء . وكان ذلك أيضا رمزاً لأحد مراكز الشرطة بالعاصمة الجديدة .

وقد ثبت أن مراكز الشرطة فى عهد اخناتون ، كانت مكلفة أيضا بالتعاون التام مع وحدات الجيش المختصة لتسهيل عمليات تجنيد الشباب للخدمة العسكرية ، وذلك إلى جانب القيام بالمهام البوليسية المعتادة .

وفى مقبرة « ميحو» رئيس الشرطة بعاصمة أخناتون الجديدة بتل العمارنة ، عثر على نص يسجل فيه « ميحو» أنه قد عمل على سحق « مؤامرة » ضد الملك والعرش . ومن الطبيعى أن يتهدد الخطر هذا الملك الذى كان يريد أن ينشر دينا توحيديا جديداً ، بين دوائر محافظة متمسكة بدياناتها التقليدية ، الأمر الذى أغضب هذه الدوائر ودفعها إلى التآمر.

● الجيش والملك الصغير

ومن المؤكد على وجه اليقين أن كبار ضباط الجيش المصرى قد هيمنوا تماماً على جميع مقدرات الدولة فى أثناء عهد أخناتون . وقد ازدادت هذه الهيمنة أكثر وأكثر بعد موت اخناتون وجلوس الملك الصبى الصغير « توت عنخ آمون » على عرش البلاد .

وبعد الموت المفاجىء لهذا الملك الصغير الذى لم يدم حكمة إلا سنوات قليلة . وقع العرش الامبراطورى فى مصر فى ورطة سياسية خطيرة .

لقد انقطع نسل الذكور فى الأسرة المالكة . وأصبح من المحتم الآن أمام « آى » وهو أكبر وأقوى رجل بالدولة و بالقوات المسلحة المصرية ، أن يرتقى عرش البلاد . وأن يستوزر الضابط التالى له فى الرتبة والنفوذ ، ليتولى شئون الدولة والجيش ، وهو الضابط « حور محب » الذى ارتقى بدوره عرش البلاد بعد موت الملك « آى » .

• المؤامرة

وكان هذا الإجراء الذى اتخذته القوات المسلحة المصرية بتولية الضابط « آى » عرش مصر، هو الوسيلة القومية لإنقاذ العرش من المؤامرة النسائية التى دبرتها أرملة توت عنخ آمون ، الملكة « عنخ اسن آمون » .

فقد سارعت هذه الملكة الصغيرة بمجرد موت الملك ، فى إرسال رسالة سرية لملك الحيثيين « شوبيلوليوما » تطلب منه فيها أن يرسل إليها بأحد أبنائه لتتزوجه ويجلس معها على عرش مصر.

وقد وافق « شوبيلوليوما » فوراً على الإسهام فى هذه المؤامرة ، وأرسل بالفعل إبنه الأمير « زنانزا » ليتزوج الأرملة المتآمرة التى كانت تريد أن تستمر فى الملك ولو بالاعتماد على قوى خارجية . كما كانت هذه المؤامرة فرصة ذهبية لملك الحيثيين لكى يسيطر على مصر، باعتبارها أكبر القوى المنافسة لدولته الجديدة ، كما يسيطر بالتالى على جميع الأقاليم التابعة للحكم المصرى فى مناطق العراق وسوريا ولبنان وفلسطين .

ولحسن الحظ ، فقد وقعت هذه الرسالة السرية فى أيدى « المخابرات » التابعة للقوات المسلحة المصرية . وقام الجيش المصرى بالقضاء على الأمير الحيثى الذى كان يجهز نفسه للزواج الملكى والجلوس على عرش مصر، وذلك أثناء رحلته المشئومة وقبل أن يدخل الحدود المصرية .

وبذلك أصبح من منطق التاريخ أن يجلس على عرش مصر، أحد ابناء الشعب ، وهو الضابط « آى » الذى كان فى الوقت نفسه شقيقاً للملكة « تى » بنت الشعب التى تزوجها امنحتب الثالث .

• مجتمع الطبقات المفتوحة

ولا شك أن انتقال أحد الضباط من أبناء الشعب ليصبح فرعون مصر ــ وإن كان فى الغالب أمراً نادر الحدوث فى التاريخ المصرى ــ إلا أنه يماثل من ناحية أوأخرى إمكانية انتقال أبناء الأسر البسيطة ذات الأصول المتواضعة إلى مصاف الضباط العسكريين ، وما أخذوا يمثلونه من ارستقراطية جديدة .

وبهذا يمكن القول بأن المجتمع المصرى فى العصر الامبراطورى كان يتكون من طبقات مفتوحة ، بمعنى إمكانية جواز الانتقال من طبقة اجتماعية إلى طبقة أعلى ، دون أية عقبات أو موانع قانونية أودينية . وقد سبقت مصر بهذا التطور الاجتماعى جميع المجتمعات الإنسانية الأخرى فى التاريخ القديم .

وبعد أن تولى الضابط حورمحب عرش مصر ، قام بالعديد من الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية . كما وضع نصب عينيه أمر تقوية الجيش المصرى وتدعيمه بالرجال والعتاد ، ليصبح جاهزاً لمواجهة التحديات التى حدثت فى الأقاليم السورية ، والتحديات التى أعلنتها امبراطورية الحيثيين الجديدة ضد النفوذ المصرى فى تلك الأقاليم .

كذلك فقد اشتد حورمحب فى إقرار القانون والنظام العام بالدولة ، والضبط والربط فى القوات المسلحة . فأصدر مرسومه الشهير بفرض العقوبات الرادعة على كل من تسول له نفسه سبل التسيب واستغلال النفوذ ، أياً كان مركزه فى الدولة أوالمجتمع .

ويجمع المؤرخون على تسمية عهد حورمحب « بالنظام العسكرى الصارم » . وهى تسمية لاجدال فى صحتها شكلاً ومضموناً .

ومات حورمحب دون أن يخلف للعرش وريثاً من صلبه . ولذلك فقد تحتم أن يرتقى العرش أحد الضباط الكبار من رجال الجيش ، وهو « بارعمسيس » الذى أسس أسرة ملكية جديدة هى الأسرة التاسعة عشرة ، وسمى نفسه باسم « رمسيس الأول » .

وهكذا بدأ عصر جديد فى مصر ، أشرقت فيه قوتها وازدهرت نهضتها ، كما هبت فيه العواصف السياسية العاتية . وهو العصر التاريخى الشهير الذى يعرف « بعصر الرعامسة » .

• قمم الفن العسكرى المصرى

وصل الفن العسكرى المصرى إلى قمته فى عصر الرعامسة . وخاصة أثناء الأسرة التاسعة عشرة ، إذ تعتبر « معركة قادش » نموذجاً رائعا لتكتيكات الكر والفر ، وهى المعركة الكبرى التى استخدمت فيها الاستراتيجية الجديدة والمناورات التكتيكية للمركبات الحربية .

كما أن المعارك الدفاعية الكبرى التى وقعت فى شمال الدلتا تحت قيادة « رمسيس الثالث » ضد شعوب البحر ، تعتبر أول عملية حربية كبرى لمواجهة « الإبرار البحرى » للعدو فى التاريخ القديم .

كذلك فقد كانت الحياة بأكملها ــ طوال تلك الفترة ــ تنضح بالروح العسكرية الواضحة . ونتيجة للحروب الطويلة فى ذلك العصر ، أخذت مصر مظهر « الدولة العسكرية » .

وكان التجنيد إجبارياً فى الجيش ، لا تعفى منه أية شريحة اجتماعية ، وكان مفروضاً كخدمة عامة بلا تمييز، بالإضافة طبعاً إلى « التطوع الاختيارى » للعمل فى صفوف الجيش .

• رمسيس الأول وابنه العظيم سيتى الأول

و يتناول الدكتور قدرى عصر الرعامسة بكثير من التحليل والتفصيل ، وإن كان يركز بصفة أساسية على الطابع العسكرى الذى ساد كل تصرفات الدولة المصرية ، طوال عصر الأسرة التاسعة عشرة والجزء الأول من عصر الأسرة العشرين .

فى ذلك العصر ، تسيدت طبقة العسكريين من الضباط والجنود ، وتربعت على جميع شئون الدولة العسكرية والسياسية والاقتصادية والإدارية . وذلك بعد أن وصل كبار قادة الجيش إلى ذروة سيطرتهم على كل ميادين النشاط بالدولة ، وأصبحوا يسيطرون على القطاع الكهنوتى ، كما أن مصير العرش الملكى قد أصبح فى أيديهم بصفة نهائية .

وتدل « لوحة الأربعمائة عام » التى عثر عليها فى « تانيس » على أن الضابط « بارعمسيس » الذى أسس الأسرة التاسعة عشرة ، وتولى عرش مصر باسم « رمسيس



سيتى الأول يؤدب الليبيين .

الأول » كان ينتمى إلى أسرة عسكرية محترفة ، من المثقفين المنتمين إلى الصفوة الممتازة من طبقة العسكريين ، خدم أعضاؤها ـــ ومنهم بارعمسيس نفسه ـــ كضباط مقاتلين فى الجيش المصرى .

أما الملك « سيتى الأول » الذى تولى الملك بعد وفاة والده رمسيس الأول ، فقد كان بدوره ضابطاً مقاتلاً اشترك فى عدة معارك حربية منذ أيام الملك حورمحب .

وقد رفع « سيتى الأول » شعار « إعادة الميلاد » بمعنى « النهضة بالبلاد » .. وكرس نفسه لتوطيد وتدعيم هيبة مصر التى كانت قد تدهورت أيام أزمة العمارنة . واتخذ كل ما من شأنه ضمان أمن مصر ضد أى خطر محتمل فى فلسطين ، وفرض السيطرة على الطرق الاستراتيجية والتجارية مع لبنان وماوراء لبنان .

ويقدم النصب التذكارى الذى أقيم فى « بيسان » والذى يتضمن سجلاً بأحداث العام الأول من حكم « سيتى الأول » صورة واضحة لاتجاه العمليات الحربية . فنجد أن « فرقة آمون » قد وجهت صوب « حماه » . وأن « فرقة رع » كانت معسكرة فى بيسان [وهى مركز عسكرى مصرى منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد] . أما « فرقة ست » فكانت مكلفة بصد أى هجوم مضاد من جانب الحيثيين ، يحتمل أن يأتى من جهة الشمال .

ونعرف من نقوش الكرنك أن « سيتى الأول » فى السنة الثانية من حكمه ، استأنف عملياته الحربية فى اتجاه الشمال . فهاجم « قادش » المدينة الاستراتيجية الهامة على نهر العاصى . ونجح فى إعادة فتح الطرق المؤدية إلى وادى العاصى الأعلى .

ثم قام « سيتى الأول » بحملة ثالثة ضد الحيثيين أكدت على الأقل سيطرته على معظم الأقاليم السورية . وعقدت معاهدة بينه وبين الحيثيين تم الاعتراف فيها بمناطق النفوذ المصرى فى تلك الأقاليم .

ومع ذلك فقد استمرت المناوشات والاحتكاكات العسكرية بين جيش مصر وجيش الحيثيين لفترة طويلة من حكم « رمسيس الثانى » الذى تولى العرش بعد وفاة أبيه سيتى الأول .

● قادش .. الحرب والدبلوماسية

ونظراً لما تتمتع به معركة قادش من أهمية بالغة ، باعتبارها نقطة تحول فى الموقف

السياسى والعسكرى فى الشرق الأدنى ، وقمة للفن الحربى فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، فقد أفرد لها الدكتور قدرى دراسة تحليلية موثقة ، تستند إلى تحليل وشرح المدونات والتقارير التى أثبتت وقائع تلك المعركة سواء بالنقش على جدران المعابد المصرية ، أو التقارير المكتوبة على البرديات المصرية وفى « ألواح بوغازكوى » التى سجل عليها الحيثيون وقائع المعركة من وجهة نظرهم .

كما استندت الدراسة أيضا إلى جميع التحليلات التى قال بها المؤرخون المشهورون الذين تناولوا تاريخ تلك الفترة من الناحية التاريخية والسياسية والعسكرية . هذا بالإضافة إلى الرؤية الخاصة التى قال بها الدكتور قدرى فى رسالته تلك للحصول على درجة الدكتوراه .

وتقول المصادر المصرية أن القوات التى اشتركت ــ من الجانبين ــ فى معركة قادش ، كانت كبيرة العدد لدرجة تعطينا شعوراً وتصوراً لما سبق المعركة من « التعبئة الوطنية العامة » فى كل من دولتى الجانبين المتحاربين .

وقد شاركت فى المعركة عشرون ولاية من الولايات والمحميات التابعة للحيثيين فى مناطق آسيا الصغرى وعلى سواحل البحر الأيونى . وكانت هذه القوات جميعاً تحت قيادة « مواتاليش » ملك الحيثيين .

وتقدر المصادر المصرية أن الموجة الأولى من الهجوم الذى شنه سلاح المركبات الحربية لجيش الحيثيين ، قد شاركت فيها ٢٥٠٠ مركبة حربية . كما اشتركت فى الموجة الثانية ١٠٠٠ مركبة حربية .

و يقدر بعض المؤرخين عدد المشاة الحيثيين بأنه كان يتراوح مابين ١٦ ألفا و١٨ ألف جندى . بينما يقدرهم مؤرخون آخرون [السير آلان جاردنر مثلا] بنحو ٣٧ ألفا .

أما القوات المصرية فكانت تتكون من أربع فرق كل منها يحمل اسم إله من آلهة المصريين الرئيسيين وهم : رع وآمون و بتاح وست . و يبلغ عدد قوات هذه الفرق نحو ٢٠ ألف محارب ، باعتبار أن كل فرقة كانت تتكون من خمسة آلاف جندى طبقا للتنظيم المعهود الذى كان معمولاً به فى تكوين الفرق والوحدات العسكرية فى عصر الرعامسة .

وقد سجلت معركة قادش عدة مرات و بروايات مختلفة فى المصادر المصرية ، مما يعكس الأهمية التى كان ينظر بها المصريون إلى أهدافها الاستراتيجية . فقد كانت المشكلة الكبرى المتعلقة بإحياء الامبراطورية المصرية فى آسيا ، والتى تأجلت رغم إرادة

المصريين منذ أزمة العمارنة ، لايمكن أن تحل — فى نظر حكام مصر العسكريين — إلا عن طريق حشد الإمكانيات القومية المصرية على نحو هجومى .

وكان هدف الخطة المصرية هو القضاء على قوة الحيثيين بهجوم مفاجىء يتم فيه الاستيلاء على قادش ، وهى المركز الاستراتيجى بالقرب من مخرج وادى البقاع بين لبنان وسوريا . وتدل على ذلك السرعة الهائلة التى تقدمت بها الجيوش المصرية ، حيث وصلت إلى التلال المشرفة على قادش بعد شهر واحد من عبورها حدود مصر الشرقية .

وبعد تحليل دقيق لوقائع التحركات العسكرية التى تناولها الفريقان المتحاربان أثناء المعركة ، يعلق الدكتور قدرى على مجمل النتائج التى أسفرت عنها جميع المعارك الحربية التى وقعت بين المصريين والحيثيين والتى تغطى فترة زمنية استمرت نحو ٣٥ سنة خلال حكم كل من سيتى الأول ورمسيس الثانى . ويقول إن الدولتين الكبيرتين توصلتا فى النهاية إلى ضرورة وضع حد للعداوة والعمليات الحربية . وعقدا معاهدة للسلام تحدد العلاقات فيما بينهما . ولاجدال فى أن التفاهم الضمنى على تقسيم مناطق السيادة والنفوذ بين الامبراطوريتين المصرية والحيثية ، والشروط المتبادلة فى المعاهدة التى وقعت بينهما فى السنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثانى ، إنما يعكس التوازن الاستراتيجى العام بين الجانبين . كما أن هذه المعاهدة تعد من الناحية الدبلوماسية أكثر من مجرد ميثاق بعدم الاعتداء . فقد رتبت على الطرفين التزامات بالمساعدة العسكرية المتبادلة فى حالة تعرض أحدهما لعدوان خارجى .

• سيطرة رجال الدين العسكريين .. وانهيار الامبراطورية المصرية .

وهكذا يستمر الكتاب فى عرض كل المظاهر العسكرية والحربية فى عصر الرعامسة الذى استمر فى الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين . مبينا بالتفصيل مابلغه هذا العصر من العظمة والمجد عندما ازدهر وارتقى ، وما بلغه من همود وخمود عندما أوشكت شمسه على المغيب .

كما تناول شرحاً لجميع التحصينات العسكرية المصرية التى أنشأها العصر على طول الساحل الغربى للبلاد ، كما شرح الطبيعة العسكرية التى سادت البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، كما أوضح الحالة الاجتماعية التى كان يعيشها أفراد الطبقة العسكرية من

ضباط وجنود كطبقة مميزة ، والعوامل التى أدت إلى تقلد الضباط للوظائف الإدارية والكهنوتية فى المعابد ، مما أدى بالتالى إلى نشأة ونمو طبقة جديدة لها طابعها الخاص المميز، وهى « الطبقة الكهنوتية العسكرية » التى واصلت سيطرتها حتى استولت على عرش مصر، وأقامت الحكم الدينى فى أواخر الدولة الحديثة . الأمر الذى ساعد ــ بالإضافة إلى عوامل أخرى ــ على انهيار الامبراطورية المصرية فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد .



المؤلف :

- وكيل الوزارة بقطاع النقل البحرى سابقا . من مواليد باب الشعرية بالقاهرة عام ١٩٣٣ . ليسانس فى القانون والاقتصاد ١٩٥٥ ، ودبلوم عال فى القانون البحرى ١٩٧٥ .
- محاضر فى الاقتصاد والعلوم البحرية والنقل الدولى ، فى مراكز التدريب والتنمية الادارية بمصر والدول العربية . وتعتبر مؤلفاته ومترجماته فى علوم النقل البحرى من الكتب الرائدة غير المسبوقة باللغة العربية .
- كتب العديد من سيناريوهات الأفلام الثقافية التسجيلية عن التاريخ المصرى القديم ، والآثار الاسلامية بمصر ، وأعلام العرب ، وقصص القرآن . . بالاضافة إلى العديد من البرامج الثقافية بالتليفزيون والإذاعة المصرية وهيئة الاذاعة البريطانية بلندن
- نشرت له عشرات من القصص القصيرة المؤلفة والمترجمة منذ الخمسينيات وحتى الآن فى مجلات : روزاليوسف وصباح الخير ونصف الدنيا والكاتب والقوات المسلحة والاذاعة والتليفزيون وكتب للجميع ومجلة حورس التى تصدرها مصر للطيران . . كما كتب عشرات المقالات المتخصصة فى مجلات الهلال والعربى والمسرح والقاهرة والثقافة والأوبرا وإدارة الأعمال ، وجرائد الأهالى والوفد والجمهورية والأخبار والأهرام .

كتب للمؤلف :

● فى الاقتصاد والعلوم البحرية :

١ ـ اقتصاديات النقل البحرى .

٢ ـ أساسيات النقل البحرى والتجارة الخارجية .

٣ ـ المصطلحات الفنية البحرية .

٤ ـ المصطلحات التجارية الدولية .

٥ ـ دراسة تحليلية عن عقد البيع البحرى «فوب» [محاضرات] .

٦ ـ عمليات نقل البضائع على سفن الخطوط المنتظمة [محاضرات] .

٧ ـ عمليات نقل البضائع على السفن المستأجرة [محاضرات] .

٨ ـ عمليات الموانى وعمليات الشحن والتفريغ [محاضرات] .

٩ ـ سند الشحن « دراسة تحليلية » [محاضرات] .

١٠ ـ قطاع النقل البحرى فى مصر .

١١ ـ محاضرات فى البيوع البحرية .

١٢ ـ القانون البحرى « ترجمة » ـ تأليف : إيمانويل دفورسكى .

١٣ ـ تأجير السفن « ترجمة » ـ تأليف : بيرجر نوسوم .

١٤ ـ انتاجية الرصيف « ترجمة » ـ تأليف : دى مونيه .

١٥ ـ الرقابة على الأعمال البحرية عن طريق الميزانية « ترجمة » تأليف : ج سيموندز.

١٦ ـ سفن الحاويات والموانى المعدة لاستقبالها « ترجمة » ـ تأليف : أ . إيفانس .

١٧ ـ مصطلحات التجارة الدولية والنقل البحرى وأنواع النقل الدولى الأخرى .

١٩ ـ حساب الوقت والعوامل المؤثرة فيه [فى عمليات شحن وتفريغ السفن] ـ تحت الطبع .

● فى الأدب والفن :

٢٠ ـ ألوان من النشاط المسرحى فى العالم .

٢١ ـ خيال الظل والعرائس فى العالم .

٢٢ ـ الرقص والحضارة « دراسة تاريخية . فولكلورية . إثنولوجية » .

٢٣ ـ زرع النوى «رواية أدبية » .

٢٤ ـ مساخر من العاصمة والأقاليم « مجموعة قصصية » .

٢٥ ـ عذراء سرابيوم « مجموعة قصصية » ـ تحت الطبع .

٢٦ ـ الضحك بسبب « من الأدب الساخر » .

٢٧ ـ الضحك بالراحة « من الأدب الساخر » .

٢٨ ـ الضحك علينا « من الأدب الساخر » ـ تحت الطبع .

٢٩ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الأول .

٣٠ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الثانى .

٣١ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الثالث

٣٢ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الرابع .

● روايات ومسرحيات مترجمة :

٣٣ ـ أوليفر تويست ـ تأليف : تشارلس ديكنز .

٣٤ ـ الآمال الكبرى ـ تأليف : تشارلس ديكنز .

٣٥ ـ ثورة على السفينة بونتى ـ تأليف : وليم بلاى .

٣٦ ـ توم سوير ـ تأليف : مارك توين .

٣٧ ـ مغامرات هكلبرى فين ـ تأليف : مارك توين .

٣٨ ـ رجال عظام ونساء عظيمات ـ تأليف : ليزلى ليفيت .

٣٩ ـ دافيد كوبر فيلد ـ تأليف : تشارلس ديكنز .

٤٠ ـ جزيرة الكنز ـ تأليف : روبرت لويس ستيفنسون .

٤١ ـ دكتور جيكل ومستر هايد ـ تأليف : روبرت لويس ستيفنسون .

٤٢ ـ كنوزالملك سليمان ـ تأليف : سير هنرى رايدر هاجارد .

٤٣ ـ نجمة الصباح ـ تأليف : سير هنرى رايدر هاجارد .

٤٤ ـ مون فليت ـ تأليف : ميد فوكنر .

٤٥ ـ المفتش العام ـ تأليف : نيكولاى جوجول .

٤٦ ـ روبنسون كروزو ـ تأليف : دانييل ديفو .

● فى الآثار والتاريخ المصرى القديم :

٤٧ ـ المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الإمبراطورية « مترجم » تأليف الدكتور أحمد قدرى [بالانجليزية] . مراجعة : الدكتور محمد جمال الدين مختار ـ نشرته هيئة الآثار المصرية .

٤٨ ـ فن الرسم عند قدماء المصريين « مترجم » تأليف : وليم بك . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى ـ نشرته هيئة الآثار المصرية .

٤٩ ـ مصر والنيل [فى أربعة كتب عالمية] ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥٠ ـ مراكب خوفو [حقائق لا أكاذيب] ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥١ ـ الحضارة المصرية من عصور ما قبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة «مترجم» ـ تأليف : سيريل ألدريد . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥٢ ـ نفرتيتى : الجميلة التى حكمت مصر فى ظل ديانة التوحيد « مترجم » ـ تأليف : جوليا سامسون . مراجعة : الدكتور محمد جمال الدين مختار ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥٣ ـ مجوهرات الفراعنة « مترجم » ـ تأليف : سيريل ألدريد . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى ـ نشرته الدار الشرقية .

٥٤ ـ صفحات من تاريخ الاسكندرية ـ تحت الطبع .

٥٥ ـ كليوباترا ـ تحت الطبع .

٥٦ ـ دراسات فى الآثار والتاريخ المصرى ـ تحت الطبع .



محتويات الكتاب

■ تقديم الطبعة الأولى : الأستاذ محمد العزب موسى ٧

■ تقديم الطبعة الثالثة : بقلم الأستاذ سامح كريم ١٣

■ مقدمة الطبعة الثالثة : بقلم الأستاذ مختار السويفى ١٧

■ **النيل : النهر والناس** ٢١

المؤلف والكتاب ٢٣

تقديم : ٢٤

رحلة النهر عبر المكان ٢٦

المنبعان الأزرق والأبيض ٢٦

معروف فى الشمال مجهول فى الجنوب ٢٧

نحو الجنوب صعودًا مع النهر ٢٩

رحلة النهر عبر الزمان ٣٣

نيل غريب اسمه النيل النوبى ٣٤

هل مصر حقا هبة النيل ٣٥

اسمها باليونانية : دلتا ٣٦

كانت منارة العالم ٣٧

اختراق الدلتا مكانا وزمانا ٣٨

عاصمة النيل ٤١
حين كان الهرم يطل على النيل ٤٢
الزراعة دون الاعتماد على المطر ٤٣
الرى بالحياض وعلم قياس الأرض ٤٩
تخزين المياه لم يعد مشكلة ٤٩
الانفجار السكانى مشكلة المشاكل ٥١
مخزن البروتين غير المستغل ٥٢
النوبيون فى مصر والسودان ٥٧
عاصمة النيلين ٥٨
مع النيل الأزرق حتى تانا ٥٨
مع النيل الأبيض حتى منطقة السدود ٦٠
بحر الغزال . . بحر الزراف . . بحر الجبل ٦٢
منابع النيل كانت أسرارًا مغلقة ٦٣
الذين وصلوا إلى منابع النيل ٦٤
البحيرات الافريقية العظمى ٦٧
النيل والانسان الأول ٧٢
تعقيب : ٧٣
النهر المعلم ٧٣
أقدم عيد فى العالم ٧٤
خرافة عروس النيل ٧٤
المسئول ونص الخرافة ٧٥
أكذوبة عاشت ألف سنة ٧٦
دلائل الكذب والتخريف ٧٦

علاقة عاطفية وواقعية ٨٠
من هى عروس النيل ٨٠
الحجة الشرعية من أيام الفراعنة ٨١
اغتصاب العيد من المصريين ٨٢
نابليون يحتفل بوفاء النيل ٨٣
سبب الأفراح والأحزان ٨٤
■ **مشرق القوة** ٨٥
تقديم ٨٧
الإجيبتومانيا ٨٨
شفاء لكل مرض ٨٩
الحضارة المصرية تغزو أوربا ٨٢
لماذا خلدت آثارهم ٩٣
أم الحضارات ٩٥
متى تم توحيد الوجهين ٩٦
وأشرقت شمس الحضارة ٩٧
الملوك العظام بناة الأهرام ٩٧
تأكيد الذات المصرية ١٠٠
ممنوع السخرة ١٠١
أول ثورة اجتماعية فى العالم ١٠٢
الانقلاب الطبقى ١٠٤
العصر الذهبى للأدب ١٠٥
عودة النظام والرخاء ١٠٩
خطط لزيادة الانتاج ١٠٩

أدب النعيم وأدب الشقاء ١١٠
الهجوم خير وسيلة للدفاع ١١١
قصر التيه ١١٢
٢١٦ سنة هكسوس ١١٢
سيدنا يوسف فى عهد الهكسوس ١١٣
شهيد التحرير ١١٥
أول بطل تحرير فى العالم ١١٥
مطاردة خارج الحدود ١١٦
أشهر أسرة ملكية فى العالم ١١٦
امنحتب الأول : العادل ١١٧
تحوتمس الأول : المحارب ١١٧
تحوتمس الثانى : المتأنق ١١٩
حتشبسوت : سيدة النساء الشريفات ١١٩
تحوتمس الثالث : الامبراطور وأول فاتح عظيم فى تاريخ العالم ١٢١
أمنحتب الثانى : الرياضى ١٢٤
تحوتمس الرابع : الدبلوماسى ١٢٤
أمنحتب الثالث : ملك الملذات ١٢٤
اخناتون : أول الموحدين ١٢٥
توت عنخ آمون : أشهر ملك فى العالم ١٣١
الأسرة التاسعة عشرة ١٣٢
سيتى الأول ١٣٢
رمسيس الأكبر ١٣٣
فرعون موسى ١٣٥

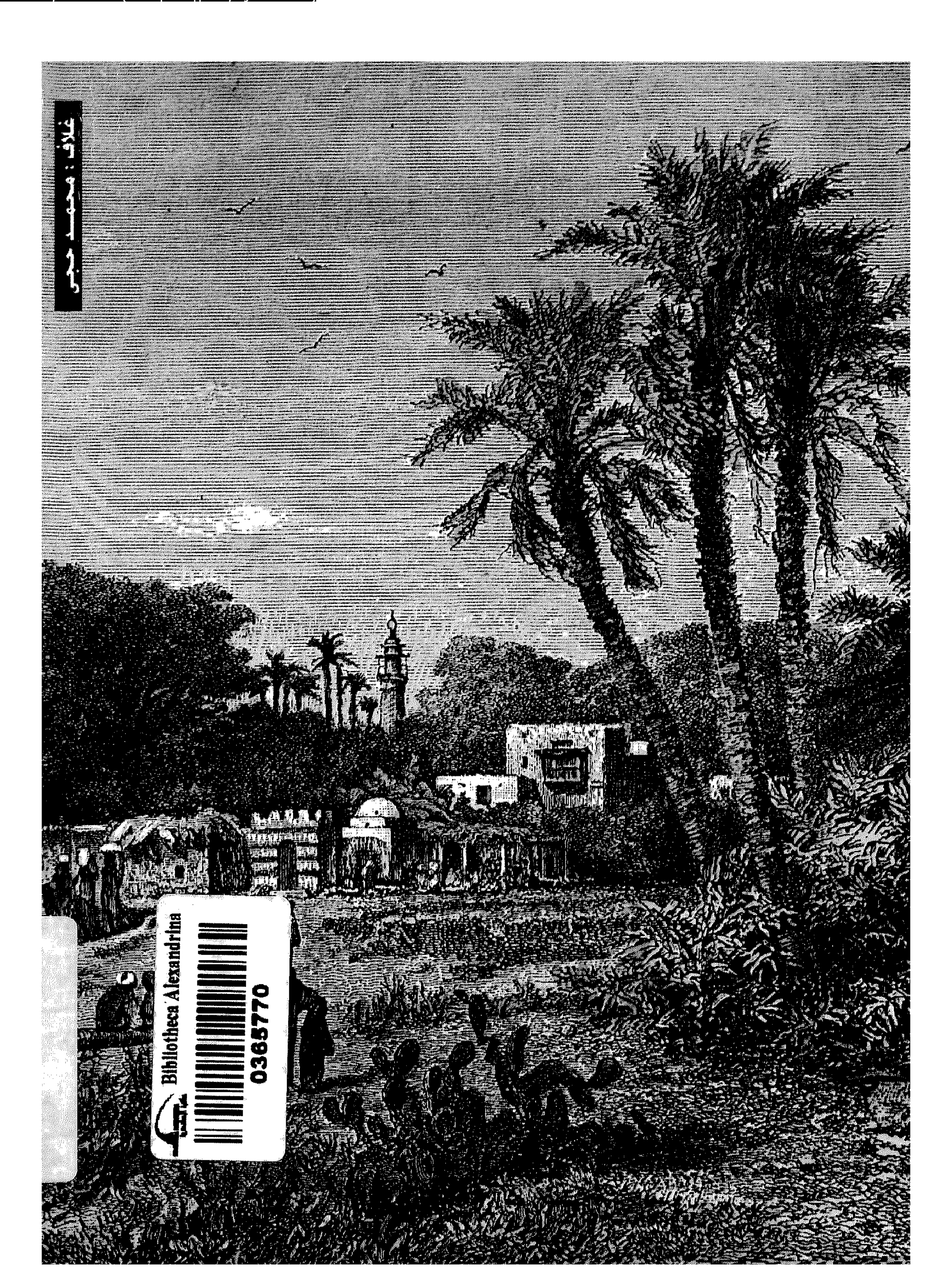
آخر الملوك العظام ١٣٦
أول اضراب فى التاريخ ١٣٧
عصر الاضمحلال الثالث ١٣٧
تحت حكم الليبيين ١٣٨
تحت حكم النوبيين ١٣٨
صحوة الموت ١٣٩
الفرس قادمون ١٤٠
لحن الختام الحزين ١٤١
■ **رمسيس الأكبر . سيد العالم** ١٤٣
المؤلف والكتاب ١٤٥
تقديم : كلمة فرعون ليست شتيمة ١٤٦
رمسيس فى قلب باريس ١٤٦
إسم رمسيس ١٤٨
مقارنة بين أشهر فرعونين ١٥٠
اسلافة المباشرون وانتقال السلطة ١٥٢
كيف أصبح ملكا ١٥٣
فى السنوات الأولى من حكمه ١٥٤
موقعة قادش ١٥٧
معاهدة السلام والدفاع المشترك ١٦٢
زفاف فى الستين ١٦٣
سيد البنائين ١٦٥
عمل يشبه المعجزات ١٦٦
فى معبدى الاقصر والكرنك ١٦٨

أبوسمبل : سيد المعابد ١٧٢
الرفيقة الجميلة المفضلة عنده ١٧٥
■ المؤسسة العسكرية المصرية
في عصر الامبراطورية ١٧٩
تقديم ١٨١
عبقرية العسكرية المصرية ١٨٢
أول حرب تحرير فى تاريخ العالم ١٨٤
الاستراتيجية اكتشاف مصرى ١٨٥
تطوير الجيوش وتصنيع السلاح ١٨٦
سلاح الفرسان والمركبات الحربية ١٨٨
الكتاب والمثقفون العسكريون ١٨٩
اختيار الضباط وتدريبهم ١٩٠
سيطرة الطبقة العسكرية ١٩٠
تمجيد الشجاعة ١٩٤
الضباط يتفاخرون بالعلم ١٩٥
ملكة من بنات الشعب ١٩٦
اخناتون يحسم الموقف ١٩٦
اخناتون والجيش ١٩٧
دليل من رسائل العمارنة ١٩٨
الشرطة والأمن القومى ١٩٨
الجيش والملك الصغير ١٩٩
المؤامرة ٢٠٠
مجتمع الطبقات المفتوحة ٢٠١

قمم الفن العسكرى المصرى ٢٠٢
رمسيس الأول وابنه العظيم سيتى الأول ٢٠٢
قادش : الحرب والدبلوماسية ٢٠٤
سيطرة رجال الدين العسكريين وانهيار الامبراطورية المصرية ٢٠٦
المؤلف .. وكتب للمؤلف ٢٠٩




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


غلاف : محمد حجى